افتتاحية العدد

■ إبراهيم الحميد

يجمع العديد من الباحثين على المخاطر الكبيرة التي باتت تهدد اللغة العربية، فلا تكاد تقرأ في كتاب أو دورية إلا وتجد همَّ اللغة العربية، وانحسار الاهتمام بها، وبروز اللغات الأجنبية.. أحد الاهتمامات الواسعة التي تشغل حيزّاً من الهموم التي يتم سكبها على صفحات الكتب والمطبوعات؛ بل إن هذا الشعور كان بارزاً منذ بدايات القرن الماضي، حينما خلّد حافظ إبراهيم هموم العربية في قصيدته الشهيرة، والسجالات التي شهدها عصره..

وفي ملف الجوبة الجديد حول اللغة العربية، يتجدّد الحوار في مساقات هذا الملف باعتبار أن اللغة العربية تجسّد منهجا فريداً، ومساراً بارعاً، وملمحاً بارزاً للشخصية الإنسانية؛ من كونها لغة القران الكريم، وامتلاكها خصائص عجيبة وميزات جميلة؛ مؤكدة أن الفصحى قادرة على مسايرة الزمن، وتلبية حاجات حياتنا اللغوية، ومواكبة المستجدات المعاصرة؛ فهي ليست أداة تواصل فقط.. وإنما غنيّة بذاتها، تختزن بين أحرفها وكلماتها فكراً وثقافة وتطوراً أبعد، وعمقاً كبيراً.

ومن مقارنة بين أن اللغة منتج إبداعي، واستخدامها الحالي بوصفها لغة استهلاكية دعائية، ومقارنة بين رؤية هذه اللغة حاضراً وماضياً وامتداداً لذلك، رؤية اللغة القوية والحيّة التي تأتي نصوصها الإبداعية عاكسة لهذه القوة، بموازاة الانحدار والانحطاط للمنتج، كنتيجة مباشرة..

إلا أن ورقة أخرى ترى أن تقوية اللغة العربية وبثها و نشرها يكتسب أهمية دينية وسياسية و اجتماعية، مؤكدة أن دور المؤسسة التعليمية حاسم في تنفيذ برنامج تعليمي يولي أهمية بالغة لتقريب الناشئة من التطورات التكنولوجية الحديثة في مجال

التواصل والمعلومات، في عصر أصبحت فيه الثقافة القوية تلتهم الثقافات الضعيفة ما يهددها بالاضمحلال، وهنا تبرز الحاجة لتعزيز الهوية المهددة وتعميقها..

إلى ورقة أخرى ترى أهمية وسائل تعليم اللغة و تركيزها عن طريق الأنشطة المختلفة؛ كالمسرح، و تشجيع القراءة، وغرس محبة الكتاب، وتنظيم مسابقات القرآن الكريم وتحفيز الناشئة على ترتيله، وكذلك الحديث الشريف، ونصوص الشعر العربي قديمه وحديثه، وتفعيل الإعلام المدرسي الذي يجعل من الطفل كاتباً وقارئاً و ناقداً ذكياً وفاعلاً في بيئة ثقافية تربوية نشطة؛ ما يؤسس لمجتمع قارئ مع أهمية التدريب على الخطابة وتقديم العروض لترسيخ خطابة تواصلية تحترم اللغة العربية وأساليبها، وأن القرآن هو المحور الذي بسببه أصبحت لغة عالمية خالدة لا يمكن إقامة الدين من دونها.. إلى مَن يؤكد في ورقته أن المرونة التي تجعل التفكير بهذه اللغة أو تلك يتخطى مختلف المفاهيم والنظريات المعقّدة؛ ومن هنا تجد الورقة أن جان جاك روسو قد أجاب على سؤال: لماذا لا تبسط اللغة العربية سيادتها في مختلف الأقطار العربية؟ «إن الامة بقدر ما تقرأ وتتعلم تذوب لهجاتها فلا تبقى...»؛ ما يؤكد أن العزوف عن القراءة هو المغذّي الرئيس لنمو العاميات.

وصولا إلى أن الشكوى من إهمال الفصحى، قديمةٌ وليست حديثة، ومنها كتاب ابن قتيبة الدينوري (أدب الكاتب) الذي وضع في القرن الثالث الهجري، وفيه يشكو الكاتب بمرارة من الجهل باللغة.. إلا أن المخاطر التي تواجهها اللغة اليوم غير تلك التي أشار إليها ابن قتيبة وغيره من المتقدّمين مع تعاظم منافسة العاميات واللغات الأجنبية بسبب تقصير العلماء العرب.. حتى باتت التهديدات تواجه العربية بالإقصاء مع استبدالها باللغة الانجليزية في التواصل والتحصيل.. على الرغم من رؤية التقديس التي كانت ترى اللغة العربية مرادفة للإسلام، حينما سأل أبو جعفر المنصور مولى لهشام بن عبدالملك عن هويته فقال المولى : «إذا كانت العربية لساناً فقد نطقنا بها، وإن كانت ديناً فقد دخلنا فيه».

إلى ورقة تقتفي عيش الثقافة العربية اليوم، واقعاً مأزوماً، وبلوغه مدى بعيداً في اغترابه ومآزقه التي تراكمت، وانعكست على خطاب الأجيال الجديدة، بصورة جعلت من عدم القدرة على الانتباه لذلك المأزق تعبيراً طبيعياً، تشهد عليه أخطاء اللغة، وركاكة التعابير؛ وغير ذلك من الخطايا، و مدللا على خيانة الشعراء الشباب للغة..



نشأةُ اللّغة العربيّة وأهميتها

■ د. إبراهيم الدّهون - جامعة الجوف

أنا البحرُ في أحشائه الدّرُّ كامنٌ   فهل سألوا الغوّاصَ عن صَدَفاتي

(حافظ إبراهيم)

تجسّدُ اللّغةُ العربيّة منهجاً فريداً، ومساراً بارعاً، وملمحاً بارزاً للشخصية الإنسانيّة، ويتجلّى ذلك في كونها لغة القرآن الكريم التي انتقاها الله عزّ وجل لتغدو بوتقة حاملة لرسالة نبيه محمّد -عليه الصلاة والسّلام- إلى البشريّة لامتلاكها خصائص عجيبة وميزات جميلة.

لذا، قال عنها الثّعالبي: «من أحبّ الله تعالى أحبّ رسوله محمّداً - صلى الله عليه وسلم-، ومن أحبّ الرسول العربي - صلى الله عليه وسلم - أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب أحبّ العربيّة، ومن أحبّ العربيّة عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها».

١- تأصيل اللّغة

يذهب كثيرون إلى أنّ اللّغة أخذت ثلاثة اتّجاهات، تبدّت في الآتي:

الاتجاه الأوّل: يرى أصحاب هذا الاتجاه أنّ اللّغة توقيفيّة من السّماء؛ بمعنى أنّ الله علمها آدم.. فهي وحي من السّماء.

الاتجاه الثّاني يقول: إنّ اللّغة وُضعت، واصطلحها الإنسان.

الاتجاه الثّالث: يحاول أن يوفق بين الاتجاهين الأوّل والثّاني.

وقسم آخر يذهب إلى أنّ أصل اللّغات كلّها، إنّما هو من الأصوات المسموعة، كدويّ الريح، وخرير الماء، ثمّ ولدت اللّغات عن ذلك فيما بعد[1].

ولا غرابة، إذا رأينا من جهة أخرى الصّاحبي يقول: إنّ لغة العرب توقيفيّة، ويستشهد بقوله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا»[2].

وعقّب ابن عبّاس على الآية السّابقة قائلاً: علم الإنسان الأسماء كلّها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها النّاس، من دابة وأرض وجمل وأشباه ذلك من الأمم وغيرها[3].

وتشير الدّراسات إلى أنّ بداية اللّغة العربيّة تعتريها الضّبابيّة، وعدم الدّقة، وذلك للجهل بمعالم تاريخ العرب وجذور القدامى، ونقوشهم وكتاباتهم الموجودة على الصّخور وجذوع

النّخيل، وجلود الحيوانات.

من هنا، نلحظ أنّ هناك العديد من الآراء والروايات، والأقوال في أصل العربيّة وموطنها عند القدامى اللّغويين، على النحو الآتي:

الرأي الأوّل: ذهب أصحابه إلى أنّ يَعرب أوّل من أعرب في لسانه، وتكلم بهذا اللسان العربي؛ فسمّيت اللغة باسمه. كما أنّ أوّل من فتق الله لسانه بالعربيّة المبينة هو إسماعيل بن إبراهيم، وهو ابن أربع عشرة سنة.

الرأي الثّاني: يلحظ مؤيدوه أنّ العربيّة هي اللّغة التي تكلم فيها آدم في الجنة، إلاّ أنّه لا وجود لأدلة علميّة دامغة، أو أحاديث نبويّة صحيحة تثبت تلك المقولات أو الأطروحات.

وهكذا، لو عدنا إلى التّاريخ القديم وما عُثِرَ عليه من نقوش قديمة، سنجد أنّ هناك لغتين انبثقت منهما سائر اللّهجات العربيّة، تمثلت بلغة العرب الجنوبيين، ولغة العرب الشّماليين.

وممّا لا شك فيه، أنّ اللّغة العربيّة السّائدة في الجنوب قديماً كانت مختلفة عن اللّغة العربيّة الشّماليّة؛ فأهل الجنوب كانوا أكثر اتصالاً باللّغة الحبشيّة، والأكادية. أمّا أهل الشّمال فقد كانوا أقرب إلى اللّغة العبريّة والنّبطيّة.

وأخذت اللّغة العربيّة تتطور، وتستوعب دلالات، ومفردات، ومشتقات جديدة؛ فبعد مرور أكثر من ألفي سنة من دلالتها غدت – قبل الإسلام- يطلق عليها لغة: (مُضَر)، واشتهرت في شمالي الجزيرة العربيّة، وقد سيطرت على اللّغة العربيّة الشّماليّة، وحلت مكانها. بينما سُمّيت اللّغة العربيّة الجنوبيّة القديمة لغة: (حِمْيَر) نسبة إلى أعظم ممالك اليمن حينذاك، وما انتهى النّصف الأوّل للألفيّة الأولى للميلاد حتّى ظهرت لغة قريش، ولغة ربيعة، ولغة قضاعة.

وقد أطلق عليها الدّارسون مسمّى لغات، وبقيت الحال على هذه الشّاكلة، إلى أن نزل القرآن الكريم، الذي أطّر وأثبت رقيّ لغة قريش؛ فسمّيت اللّغة العربيّة الفصحى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[6].

٢- مفهوم اللّغة العربيّة

تباينت آراء الدّارسين في تعريف اللّغة العربيّة، إذ أجمع مؤلفو المعاجم على أنّ كلمة: (لغة) كلمة عربيّة أصيلة ذات جذور عربيّة تداولها العرب، واستخدموها في كتاباتهم وكلامهم اليومي.

أمّا الخليل بن أحمد الفراهيدي، فقد أشار إلى أنّ العرب تشتق في كثير من كلامها أبنية المضعف في بناء الثّلاثي المثقل بحرف التّضعيف، وكلام العرب مبني على أربعة أصناف الثّنائي: والثّلاثي والرباعي والخماسي[7].

وقسم ثالث أكد على أنّ اللّغة العربيّة عريقة في القدم، فهي لغة مكتملة النّمو، استطاعت أن تعبّر عن دقائق المشاعر الإنسانيّة، والدّلالات والآراء والأحاسيس؛ وهي اللّغة التي جسّدت هوية العربي، بما تملكه من بواعث إنسانيّة وآفاق عالميّة رحبة؛ وهذا ما يؤكده، عندما اصطفاها الله أن أصبحت لغة الوحي الإلهي ولغة التنزيل، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[8].

٣- مزية اللّغة العربيّة وفرائدها

تفرّدت العربيّة بمزايا وخصائص جعلت منها لغة راقية مليئة بالثّراء، وكثرة الألفاظ، وإمكانيّة الإبداع المستمر، والتّجديد المتواصل. ومن الملحوظ على العربيّة الآتي:

- الاشتقاق، وهي سمة دفعت اللّغة العربيّة إلى البقاء على الرغم من الصّراع المستمر والتّحديات المتلاطمة، والهجمات الشّعواء عليها.

- حركة الحرف الواحد: فالعربيّة توظّف وتفيد من التغيرات الطّارئة على الحرف في إنتاج الدّلالة، وابتكار المعنى، ومثال ذلك كلمة: (الحِبر) الثّلاثيّة الباء.
- دقة التّعبير واختصاص كلّ مفردة بدلالة أو معنى معين ومحدود، وهما من قدرة اللّغة العربيّة، وصفاء منهجيتهما، نحو قولنا: مشى بلفظه العام، وقولنا: درج للصبي، وحبا للرضيع، وحجل للغلام إذا رفع رجلاً ومشى على أخرى، وخطر للشاب، ودلف للشيخ: مشى رويداً بخطى متقاربة، وهدج مشى مثقلاً، ورسف للمقيّد، والتّبختر للمتكبر، والقهقرى لمن يرجع إلى الخلف.

٤-أهمية اللّغة العربيّة

تمثّل اللغة أيّاً كانت أهم ملامح الشّخصية الإنسانيّة، فضلاً عن أنها تشكّل ركيزة أساسيّة في فكر الإنسان وتطوره؛ فاللّغة العربيّة غدت أداة للتفكير، ومستودعاً للتراث، وحاملة همّ وثقافة ومنجزات العرب القديمة والحديثة.

ومن هنا، فإن لغةً اختارها الله تعالى لتكون وعاءً لكتابه الخالد، لا شك أنها لغة تتربع على عرش الألسنة والمحافل واللغات، «فاللّغة العربيّة لغة كاملة عجيبة تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة، وتمثّل كلماتها خطرات النّفوس، وتكاد تتجلى معانيها في أجراس الألفاظ، كأنّما كلماتها خطوات الضمير، ونبضات القلوب، ونبرات الحياة»[8].

وتأسيساً على ما سبق، بقيت اللّغة العربيّة أرسخ اللغات ثباتاً وبياناً، لم تتغير بلاغتها وفصاحتها وقدرتها الإثرائيّة، وأبعادها الاستشرافيّة منذ القديم إلى يومنا الحاضر.

ولعلّ قيمة العربيّة، وعلو شأنها دفع كثيراً من الصّحابة والعلماء والأدباء والمفكرين إلى تشجيع تعلّمها والاهتمام بها؛ فهذا عمر بن الخطّاب يقول: «تعلموا العربيّة فإنّها تثبّت العقلَ، وتزيد المروءة». كما نلحظ أنّ للعربيّة أثراً ملحوظاً، وفاعلية جادة على كثير من اللغات الأخرى في العالم، كالتركيّة، والفارسيّة، والأرديّة، وغيرها.

وخلاصة القول: إنّ اللّغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم، ولغة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى أنها لغة الآباء والأجداد والعرب القدامى؛ فالعربيّة هي أداة الولوج في الإسلام، ثمّ أداء فرائض الله الواجبة، فضلاً عن أنها اللغة الوحيدة التي يستطيع أبناؤها قراءة ما كتب بها قبل ألف وخمسمائة سنة.

فالفصحى قادرة على مسايرة الزمن وتلبية حاجات حياتنا اللغويّة، ومواكبة التّطورات والمستجدات المعاصرة وصلاحية بقائها، فلقد بلغت حد الكمال في قلب الصّحراء عند أمّة ديدنها الحلّ والتّرحال؛ لذا، لم تكن أداة تواصل فحسب، بل إنها تختزن بين أحرفها وكلماتها فكراً وثقافة وتطوراً وتاريخاً وحمولات ومعارف عديدة.

---

(١) انظر: أبو الفتح عثمان بن جنّي، الخصائص، القاهرة، ١٩١٣م، ص٤٦-٤٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ٣١.
(٣) انظر: أبو الحسن أحمد بن فارس، فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها، لبنان، بيروت، ص٣١-٣٣.
(٤) سورة يوسف: الآية ٢.
(٥) سورة النحل: الآية ١٠٣.
(٦) انظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ٤٢/١.
(٧) سورة الشّورى: الآية ٧.
(٨) عبد الرزاق عبد الرحمن السّعدي، مقوّمات العالميّة في اللّغة العربيّة وتحدياتها في عصر العولمة، مجلة آفاق الثّقافة والتّراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتّراث، دبي، ع٦٣، شوال، ١٤٢٩هـ، ص٤٧.

خصائص العربيّة بين القديم والحديث

■ أ.د. هاشم العزام - جامعة الجوف

هذا موضوع يفرض نفسه في كلّ عصر من العصور؛ لأنّ ماضي اللّغة العربيّة كلما ذهبنا إلى الوراء يذّكرنا بحاضرها في الزمن الذي تلا تلك العصور الذهبيّة، لا لشيء إلاّ لأنّ المنتج الثّقافي في تلك الأزمان كان نموذجاً لكلّ علوم العربيّة في العصور التي تلته والذي فقدناه. وما ترومه هذه الدّراسة من جراء طرح هذه الإشكالية البالغة التزايق والمفرطة المروغان في دائرة الإبداع برمتها: (المبدع، المتلقي، النّصّ) مبعثه الحنين والتوق إلى اللّغة الرقيعة العابقة، والتي ظلّت محط نظر المدوّنة النّقديّة دائماً؛ طالما شغلتها ردحاً من الزمن والقواعد الصّارمة التي سنّتها المؤسسة النّقديّة حول المفردة والتّركيب، والنّصّ برمته بحثاً عن اللّياقة، فرضت مسؤولية باللغة الأهمية على المبدع بحثاً عن أفضل الوسائل الواجب اتباعها إرضاء لذائقته، ومراعاة لمقامه الطبقي ورتبته الاجتماعيّة. ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا: إنّ المتغيا من تجويد النّصوص هو المتلقي، لذلك تطفو عملية المقارنة على السّطح في اللّغة ذاتها بين زمنين في كلّ عصر، لمعالجة التّشوّهات وتلافي الضّعف والانحدار الذي لحق بها.

لذلك، تسير هذه الورقة الثّقافية، ابتداءً، من التّدبر في الاختلاف بين اللّغة العربيّة في أوج ازدهارها، بوصفها منتجاً ثقافياً إبداعياً، وبين حاضر هذه اللّغة بوصفها لغة دعائيّة استهلاكيّة، الأمر الذي يعكس ذائقة الأمّة في العصرين. فلت التّدبر في الاختلاف الذي لا يمكن معالجته إلا عبر التّفكير في هذا الاختلاف، والذي ترك هوّة واسعة بين العصرين، هذه الهوّة هي محلّ لتأمّل صيغة معينة، ستكشف عند تحليلها أموراً يمكن للمقارنة السّلبيّة وحدها أن تكون مثمرة؛

وخطاب التّقابل هذا نحتاجه لعقد المقارنة كلما ضعفت اللّغة أو اعتراها الوهن. ولكي لا تكون المقارنة مجانبة، سيكون للدراسة أكثر من فرصة، يطل من خلالها على تجليّات الجودة والقوّة في المنتج الثّقافي قديماً، بموازاة الانحدار والانحطاط للمنتج ذاته في الزمن الحاضر.

أقصد أنّه كلما كانت اللّغة حيّة، وقويّة جاءت النّصوص الإبداعيّة عاكسة لهذه القوة، ليكشف هذا التّضاد الحاد في طبيعة

المنتج الثّقافي، والعمل الإبداعيّ عن سخرية تحرك المتلقي خارج محيطه المألوف بحثاً عن الأسباب، ليكشف أنّ علاقة اللغة بالغائب المفقود، والنّصوص الإبداعيّة اللغويّة تتفوق على علاقتها بالحاضر، وإن كانت الثّانية شرطاً للعبور إلى مناقشة هذا الضّعف.

ولكي لا تهدر تلك الجهود التي أحيطت بالعمل الإبداعي عبثاً، يحاول الدّارس الانعطاف إلى الزمن الماضي، انعطافاً ينعكس من التّباكي عليه إلى التأمّل، ومن التّحسر إلى النّظر؛ لندرس هاجس العلاقة بين الخصائص والسّمات للغة ذاتها في الزمن الماضي والحاضر؛ لنستنتج أنّ الموروث الثّقافي الذي وصلنا بصورته النّاصعة ما كان له أن يكون بهذه القوة والجمال، لولا أنّ مؤسسة لغويّة نقديّة قويّة كانت تقف وراءه. فللنّص مواصفات ومقاييس لا يمكن تجاوزها، وعلى المبدع شروط قاسية تطالبه الالتزام بها، والمبدع والمتلقي مطالبان معاً بثقافة عالية. أقول وبكل فخر بذلك الزمن: إنّ مكتسبه العقلي شكّل مخزوناً، ما تزال أجيال وأجيال تقتات منه وعليه.

إنّ معاييرَ من مثل: الفحولة، والجودة، والفصاحة، والبلاغة؛ وأساليب من مثل: حسن التّخلص، وبراعة الاستهلال؛ وشروط خاصّة وضعت للفظ الفصيح البليغ، عملية تكرير وإعادة تكرير للفظ قبل أن يوضع في السّياق؛ ونقد، وإعادة النّقد بعد دخول الألفاظ في السّياقات، ومواءمة الألفاظ للمعاني، ومراعاة ذائقة المتلقي، حرصاً على استرضائه، وعدم خدش مشاعره، وتحقيق مبدأ اللياقة في الخطاب. كلّ هذه الشّروط وغيرها كانت المولد الرئيس وراء كلّ إبداع، فضلاً عن أنها كانت تضمن نصّاً قوياً جريئاً لائقاً. والأديب في الزمن الماضي كان يعدّل نصّه مرة، ويحاسب عليه مرّة أخرى، ويرفض مرّة ثالثة. ما كانت لتمر النّصوص بسهولة دون أن تحقق شروطاً وضعتها مؤسسة النّقد لكلّ علوم العربيّة؛ لذلك ظهرت كتب لأطراف العمليّة الإبداعيّة كافة، فهذا سرّ الفصاحة لابن سنان في الألفاظ، وعيار الشّعر لابن طباطبا، ونقد الشّعر لقدامة بن جعفر، والصّناعتين للعسكري، كلّها وضعت في متناول الشّاعر لضمان ضبط النّصوص في قطبها الفنّيّ، ولتحقيق مبدأ الجودة.

فالذي دخل وفي شعره إقواء، وهو عيب من عيوب القافية، ما عاد الإقواء إلى شعره قط؛ والذي مارس سوء الابتداء، كوفئ أسوأ مكافأة؛ والذي لم يراع قاعدة لكلّ مقام مقال، رفض طلبه بل شتم. وخير مثال على ذلك، عندما مدح جرير الخليفة عبدالملك بن مروان، فقال:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة
لو شئت ساقكم إليّ قطينا

فلما سمعه عبدالملك قال: ما زاد على أن جعلني شرطياً - والله لو قال: (لو شاء) لسقتهم إليه قطينا. وقد أخطأ جرير في قوله: (شئت) بإسناد الفعل لنفسه، وجعل الخليفة شرطياً عنده - وهذا لا يليق بمقام الخليفة، ولو استبدل كلمة: (شاء) أي الخليفة مكان (شئت) لحظي بما يريد.

ومثال آخر عندما دخل ذو الرُّمّة على عبدالملك بن مروان فقال له: أنشدني أجود شعرك، فأنشده:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ
كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

وكانت عينا عبدالملك تسيلان ماء، قال: فغضب عليه وأمر به، فأخرج مهاناً وقد عرف موضع خطئه. فلمّا كان من الغد دخل في زمرة النّاس وأنشد:

مَا بَالُ عَيْنِي مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ
كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

وهذا «الشّاعر العراقي، علي بن الجهم، عندما قَدِمَ على المتوكل - وكان بدوياً جافياً - فأنشده قصيدة قال فيها:

أنتَ كالكلبِ في حفاظك للود
وكالتيس في قراع الخطوب

أنتَ كالدلو لا عدمناك دلواً
من كبار الدلا كثير الذنوب

فعرف المتوكل قوته، ورقّة مقصده وخشونة لفظه، وذلك لأنّه وصف كما رأى، ولعدم المخالطة وملازمة البادية. فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة، فيها بستان يتخلله نسيم لطيف والجسر قريب منه، فأقام ستة أشهر على ذلك ثمّ استدعاه الخليفة لينشد، فأخرجه وأسكنه بين دجلة والرّصافة وكان أعرابياً جلف الطباع، ثمّ أعيد إلى الوالي فقال له: صفني، فقال الشّاعر:

عُيونُ المَها بَينَ الرُصافَةِ وَالجِسرِ
جَلَبنَ الهَوى مِن حَيثُ أَدري وَلا أَدري

وتأسيساً على ما سبق، فإنّ الكتابة في الماضي كانت فعلاً والكتابة اليوم انعكاساً؛ فالخطاب النّقدي كان يتجه إلى مكونات العمليّة الإبداعيّة برمتها شكلاً ومضموناً، وإلى أطرافها مبدعاً ومتلقٍ. أمّا الكتابة اليوم، فهي أمر في غاية السّهولة؛ لأنّه لا مؤسسة لغويّة رقابية تفرض شروطها، لذلك تراها تتكاثر وتتناسل في الأخطاء؛ لأنّ الكُتّاب لم يدركوا حجم المغامرة أو المخاطر التي تكتنف مسعاها، فيؤدي بهم إلى الانزلاق في متاهات لجيّة. لذلك، يجب أن تتضافر الجهود لضبط فوضى الكتابة الإبداعيّة وَفْقَ قواعد اللّغة وفنيّة الألفاظ، وإيجاد مؤسسات رقابيّة لغويّة بوصفها ضامناً أساساً لإنتاج نص متماسك.

في الماضي لم يكن الشُّعراء، والكتّاب يستسهلون الضّرورات الشّعريّة، ولا الرخص اللّغويّة، وإن وجدت فبقلة؛ فكانت الألفاظ والمعاني تنتظم في تراكيب قويّة تعطي النّصّ الأدبيّ معنى، ويصبح النّصّ مولداً للالتذاذ. هذه الشّروط هي التي أفرزت المتنبي وأبا تمام، والمعري، وابن الرومي، وبشار بن برد، وأبا نواس، والبحتري، وهؤلاء أحفاد وتلاميذ امرئ القيس، والأعشى، وزهير، وطرفة بن العبد، والنّابغة الذّبياني...

فتأمّل كلام المتنبي، سيد الإنشاد على مر قامته الشّعريّة، وهو يخاطب سيف الدّولة، فيقول:

وَقَيَّدْتُ نفسي في ذراك محبةً
ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا

فهذا أدب جم، وتواضع وعرفان بالجميل. واقرأ لأبي تمام في حب الأوطان، إذ يقول:

نَقِّل فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ مِنَ الهَوى
ما الحُبُّ إِلّا لِلحَبيبِ الأَوَّلِ

كَم مَنزِلٍ في الأَرضِ يَألَفُهُ الفَتى
وَحَنينُهُ أَبَداً لِأَوَّلِ مَنزِلِ

ولتقرأ في مجال العواطف الإنسانية قول البحتري:

وَرَقَّ نَسيمُ الريحِ حَتّى حَسِبتُهُ
يَجيءُ بِأَنفاسِ الأَحِبَّةِ نُعَّما

سَلامٌ وَإِنْ كَانَ السَّلامُ تَحِيَّةً،
فَوَجْهُكَ دُونَ الرَّدِّ يَكْفِي الْمُسَلِّمَا

وتأمل كرم الشنفرى واحترامه لضيوفه، إذ يقول:

وإن مُدَّت الأيدي إلى الزاد لم أكنْ
بأعجلِهم إذ أجشعُ القومِ أعجلُ

وانظر لبشار بن بُرد في التسامح، إذ قال:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الأُمُورِ مُعَاتِبًا
خَلِيلَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لا تُعَاتِبُهْ

فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ
مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهْ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَذَى
ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا
كَفَى الْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

واسمع لجرير في الرثاء، قائلاً:

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ
ولزرت قبرك والحبيبُ يزارُ

وقف عند امرئ القيس في حديثه عن الإرادة والطموح، فيقول:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما
نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

أمرُّ على ساحل اللغة في الزمن الماضي عندما تطوف بي الذاكرة، فأسمع صدى صوت عظماء الشعراء وأقطف من رياض شعرهم، أقرأ سياقات جزلة، وتراكيب قويّة، في أوج تألقها، وصوراً فنيّة، أتذكر قمم الشُّعراء وهم يتربعون على عرش سلم القيم في كل مجالات الحياة آنية فخراً؛ لأنّ المكتسب العقلي كان مشفوفاً في مختلف صنوف المعرفة، بدءاً من اللغة وانتهاءً بالمعرفة والعلم. كواكب منيرة ملؤها بالهيبة والوقار الذي يلفك بحضرة المتنبي وامرئ القيس، رجلان ملَكا ناصية اللغة، عندما تقف أمامهما ذات الهيبة والوقار يتناتبك أمام الخوارزمي في الرياضيات، وجابر بن حيان في الكيمياء، وابن رشد في الفلسفة، وابن سيناء الشيخ الرئيس في الطب، وابن خلدون في الاجتماع، والرازي وابن الهيثم في البصريات، رجال عولموا العالم قبل ١٤٠٠عام قبل أن تصلنا العلوم، فهموا العربيّة في القديم، ورجالها كانوا أمّة ذات حظ أوفر من الثّقافة فأثروا في ثقافات الأمم المجاورة وأجبروهم على تعلم العربيّة، وترجمتها ونقل ما فيها من علوم إلى بلادهم.

أمّا اليوم، والتّذكر يبعث على الأسى الشفيف الذي يلفّ المنتج الثّقافي في ذات اللّغة، فلم نرَ إلا الطلاسم والأشفان وسفسطة، وشعر مناسبات، تمحل ومماحكة، وكأنّ النّصوص تولد ولادة قيصرية غير مكتملة، أنزّه العربيّة من أن أورد أمثلة لنماذج شعريّة تزكم الأنوف، وما دمنا نذكر أشعاراً على شاكلة قول المتنبي:

أنامُ ملءَ جُفُوني عن شَوارِدِها
ويَسْهَرُ الخَلْقُ جَرّاها ويَختَصِمُ

أي ثقة تملأ المتنبي حتّى يدخل هذا التّحدي، وأيُّ جعبة ملئت بالنحو، وثقافة ملئت باللغة، وأيُّ بصيرة يرى بها بشار بن برد عندما قال:

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا
وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُه

صورة لمعركة ووصف دقيق، والرجل كفيف البصر، وعندما يُسأل: من أين أتيت بهذه الصّورة الشّعريّة وأنت أعمى؟ الجواب: الأذن تعشق قبل العين أحياناً! إنه تفعيل كامل لحواس الإدراك.

هؤلاء، هم فرسان الكلام وعلماء ذلك العصر. هذه هي عربيّة المشرق العربي. وإذا ما يمّمت وجهك للمغرب آنذاك، فلن تجد أقل منه، مثل: ابن شهيد، والأعمى التطيلي، وأبي البقاء الرندي، وابن زيدون.

ومهما قلت في العربيّة ومكتسبها الثّقافي والعقلي، لن تفيها حقها، لأنني كلما طرقت باباً من أبوابها، أو دخلت محراباً من محاريب العلم والأدب فيها، أستشعر قداسة غاية في الطهر والنّقاء، تلفّ الزمان والمكان؛ لأنها لغة تفرق بين المُقدّس والمُدنّس في الألفاظ والمعاني، كما في كل حقل من حقول المعرفة، وتملك القدرة، في الوقت نفسه، على الفصل والوصل بين الأصل والمقلد.

حقاً، ينتابني الخجل، عندما أسأل: أين فحولة وجزالة وقوة المعلّقات، والمذهّبات، والمسمطات، والمفضليات، والمختارات، والحوليات، والمنصفات، والأصمعيات؟ هذه المجاميع الشّعريّة التي انضبطت وَفق عروض الخليل، ونحو سيبويه، والكسائي وقليل مَن يعرفهم.

وصفوة القول: إنّ هذه الورقة أو المقالة الأدبيّة التي عنيت بالخصائص بين القديم والحديث، فإنّها تود التّأكيد على هذه الخصائص المتمثلة في جزالة التّراكيب، وفصاحة الألفاظ، وبلاغة السّياقات؛ ناهيك عن الأساليب التي عكست امتلاك الأدباء للمعرفة اللّغويّة العميقة بما تضمّنته من معانٍ وقيمٍ إنسانيّة، وصور فنّيّة وأدبيّة، أشبه ما تكون بلوحة فنّيّة متكاملة، كلّ مشهد فيها غاية في الدّقة والجمال والتّناسق، الذي ما عدنا رأيناها.

ولقد أخذ الأوائل الذين عملوا في المؤسسة اللّغويّة والأدبيّة والنّقديّة على تضافر الجهود، ليبعدوا النّصوص الإبداعيّة عن الركاكة، وينقذوها من الابتذال، فلن تجد نصاً إبداعياً يحوي لفظاً حوشياً أو عامياً ساقطاً، ولا غريباً مستهجناً أو نادراً، فإنّه حق المعنى الشّريف واللّفظ الشّريف. ولقد راعت العربيّة خصوصية المخاطب ورتبته الاجتماعيّة؛ فنصّوا على قاعدة لكلّ مقام مقال، ولكلّ مقال مقام؛ فلا مجال لسماع مَن لم يصطنع عبارة مهذبة، ولا فرصة لمن لم يحسن التّخلص أو لا يعرف البدايات الشّعريّة الجميلة في مفتتح خطابه الشّعري، ولا مكان لمن لا يعرف كيف يحقق مبدأ اللّياقة في النّص الشّعري.

ومن أجل تحقيق هذا، صنع النّقاد كتباً تدل عناوينها الجميلة على مضامينها الأجمل. وتذكر الورقة أمثلة للتدليل على هذا من عناوين كتبهم، نحو: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق، وقطر النّدى وبلّ الصّدى لابن هشام الأنصاري، ونفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب للتلمساني، والذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الشّنتريني. نرى أسماء مؤلفات كشفت عن ارتفاع الذّوق ورقيه؛ إذ كان الغذاء للعقل والنّفس والروح، بحق تهفو القلوب إلى تلك الثّقافة العريقة، والشّوق يغمر عقولنا إلى أن نرى نصوصاً إبداعيّة تحاكي تلك المرحلة.



لغتُنا هويتُنا: كيفَ نصونُها؟

■ الزبير مهداد - المغرب

إن مشكل اللغة العربية موضوع الساعة، وكل الساعات وسيظل هذا المشكل مطروحا للنقاش الحيوي ما دمنا لم نفلح في تشخيص أسباب التردي اللغوي وضعف استيعابنا لهذا الوعاء العلمي والحضاري، والتراجع في مسيرة نشره وبث محبته داخل النسيج الاجتماعي العربي وبين الأمم، في الوقت الذي نقف فيه عاجزين مكتوفي الأيدي أمام الغزو الشنيع القوي للهجات غير الفصيحة واللغات الأخرى.

فضلا عما تمثله اللغة العربية من أهمية في التواصل الاجتماعي، وتعبيرها عن حاجات الناس وأفكارهم، ودورها في نموهم العقلي والوجداني والاجتماعي، فإن تقويتها ودعمها وبثها ونشرها يكتسب أهمية دينية وسياسية وحضارية واجتماعية، وبخاصة في هذا الظرف الدقيق الذي تعيش فيه دول العالم العربي الإسلامي تحوّلات اجتماعية خانقة بتأثير العولمة؛ فالأخطار المحدقة بها تهددها بالتفكك وضياع هويتها، والناشئة تسعى لمسايرة الأحداث والتغيرات الطارئة، وتتخلى في المقابل عن أصالتها وهويتها الثقافية. والمؤسسات التعليمية مطالبة بتنفيذ برنامج تعليمي يولي أهمية قصوى لتقريب الناشئة من التطورات التكنولوجية الحديثة في مجال التواصل والمعلومات، التي لا تخلو من حمولة ثقافية غربية تزيد من تعميق الأزمة وتستعجل التحولات.

الثقافة ذاكرة أمة واللغة أهم مصادرها

في هذا العصر، عصر العولمة، الذي أصبحت فيه الثقافات القوية تلتهم الثقافات الضعيفة، ما يهدد الهويات بالاضمحلال، برزت الحاجة الملحة إلى تعزيز الهوية المهددة وتعميقها، وكذا الذاتية الثقافية المخترقة، لأجل إقدارها على الصمود ومواجهة الغزو وآثار العولمة الكاسحة، المسلّحة بالثورة التكنولوجية ووسائل الاتصال الحديثة، التي

تعتمد لغات وتقاليد وقواعد غريبة ودخيلة على ثقافات مجتمعاتنا، تهدد ثقافاتنا بالضمور والتفكك، أو الذوبان في ثقافات أخرى منافسة.

وعندما نتحدث عن الثقافة، فأهم مصادرها وعناصرها هي اللغة العربية والتراث. وليست اللغة مجرد أداة للتعبير ونقل الأفكار، ولكنها لغة فكر أيضا وقواعد تفكير وسلوك وقيم؛ فالقرآن الكريم حمّل اللغة العربية شحنة واسعة من القيم والمبادئ، وجعلها الإسلام لغة عقيدة وثقافة وخطاب وتواصل؛ ولذلك، فإن الاهتمام باللغة العربية يأتي من جانبين: أولهما ديني، بوصفها لغة القرآن الكريم والسنة النبوية؛ وثانيهما قومي في المحافظة عليها حفاظا على التراث القومي العربي الثقافي والفكري.

يقول هيجل: «اللغة وعاء الفكر، فلولا اللغة التي تحفظ الفكر لتبعثر هذا الفكر، وحتى التفكير داخل ذواتنا يتم من خلال اللغة، لذلك قيل: «إن التفكير الصامت الذي يوحي لنا بوجود حياة باطنية هو - في الحقيقة - مونولوج داخلي يتم بين الذات ونفسها». فاللغة تسيطر على كامل تفكيرنا، سواء كان هذا التفكير داخليا بيننا وبين ذواتنا، أو خارجيا بيننا وبين الآخرين. ويقول الأديب يحيى حقي: «إن اللغة قالب الفكر، فإذا كان هذا القالب مكسورا، فالفكر يكون مكسورا، فأنت لا تستطيع أن تفكر تفكيرا صحيحا إلا بلغة صحيحة»[1].

فتعلّم اللغة وإتقانها وامتلاك ناصيتها يؤدي إلى تقديرها والتمسك بها، وييسر استعمالها استعمالا صحيحا في الاتصال بالآخرين، تحدثا وكتابة واستماعا وقراءة، وتكوين عادات لغوية سليمة، الأمر الذي يتيح تحقيق المصالح المشتركة والتفاهم والتعاون والإحساس بالانتماء للجماعة. فاللغة العربية أهم أوعية الثقافة العربية وتراثها الفني المتنوّع. (ويكفي للاستدلال على أهمية اللغة أن نعرف قدرتها على أن تكون رابطا اجتماعيا محكما، باعتبارها وسيلة تواصل ثقافي فعال، ومن هنا، تعد إجادة اللغة تنمية للولاء الثقافي للأمة، والوطن، والمجتمع، والأسرة)[2].

المماليك، الهوية لغوية وليست عرقية

اللغة أهم العناصر التي تشكّل الهوية، والهوية اللغوية أقوى تأثيرا ورسوخا في النفس من الهوية العرقية، وخير مثال لذلك هو المماليك، فتاريخهم وسيرتهم وآثارهم تقدم لنا حجة قوية على أهمية الهوية اللغوية.

فالمماليك تم استقدامهم وجلبهم صغارا أو مراهقين من قوميات غير عربية كالتركمان والفرس والروم وغيرهم، ومع ذلك فقد أبانوا عن تشبث قوي بالهوية العربية الإسلامية، برز في سياستهم وتعاملهم وكل خططهم.

والفضل في ذلك يحوزه السلاطين الذين عنوا بترسيخ الهوية العربية الإسلامية في نفوس المماليك الذين استقدموهم صغارا في مرحلة الطفولة القابلة لتشكيل الهوية وتحديدها. ولما كان التعليم هو المدخل المهم لغرس القيم والتقاليد وترسيخ الهوية؛ فقد اهتم السلاطين بنظام التربية، فأخضعوا المماليك لتكوين دقيق، قوامه نظام دراسي يبدأ بحفظ القرآن الكريم، ومبادئ العربية والكتابة، ثم دروسا في علوم الدين الإسلامي وآداب اللغة العربية، وذلك كان لا يقل أهمية عمّا يتلقونه من تدريبات عسكرية ورياضية، ليكون بداية أمرهم على الإسلام والثقافة العربية[3]. وكان يشرف على تعليمهم الفقهاء والمؤدبون والمدربون، فتشربوا

الثقافة العربية الإسلامية، ونشأوا على التمسُّك بالدين والتقاليد الإسلامية والعربية»[1].

فاستوعب المماليك هذه الثقافة وتشرّبوها، وأجاد كثيرٌ منهم اللغةَ العربية وآدابها، بل واشتغل بعضهم بالعلم والأدب فكان منهم شعراء ومؤلفون، قال ابن إياس عن السلطان المؤيد شيخ: «إنه كان عارفًا بالموسيقى والشعر» وقال عن الظاهر جقمق: «كان فصيحًا بالعربية متفقّهًا، له مسائل في الفقه عويصة يُرجع إليه فيها». وقال عن السلطان الأشرف قايتباي: «كان له اشتغال بالعلم، كثير المطالعة، وكان متقشّفًا فيه نزعة صوفيّة»[2].

وهؤلاء المماليك الذين تشبعوا بالثقافة العربية بفضل التكوين الذي خضعوا له، استبدلوا هويتهم العرقية بالهوية اللغوية، فغدا الإسلام والعروبة هوية جديدة لهم، تجلّت خلال توليهم الحكم آثار هويتهم في منجزات عملية مهمة، منها عنايتهم بالدين ومؤسساته، ونشرهم التعليم العربي وتشجيعهم ودعمهم للثقافة العربية وآدابها في بلدان الشرق الأوسط التي كانت تخضع لحكمهم وهي مصر وبلاد الشام ومناطق من العراق.

كما ظهر من أبناء المماليك عددٌ من العلماء والمؤرّخين، منهم: ابن تغري بردي وابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٧م)، وابن إياس، على الرغم من أن هؤلاء لم يكونوا من أصول عربية إسلامية، وإنما تنشئتهم في صباهم هي التي أكسبتهم الهوية العربية الإسلامية وجعلهم يتشبثون بها ويناضحون عنها.

وما يقال عن المماليك كأفراد يقال أيضا عن بلاد الأندلس ومصر وشعوب شمالي إفريقيا وغيرها. فبفضل التعليم استبدل الناس هويتهم العرقية بالهوية اللغوية، وتولّدت الهوية من خلال التفاعل اللغوي الاجتماعي للذوات، وانتقلت اللغة بالتالي من الوظيفة التواصلية إلى الوظيفة الوجودية، وهذا ما يبرهن على العلاقة الجدلية بين اللغة والهوية، فاللغة العربية التي دخلت بحمولتها إلى البلدان المسلمة أسست صرح هويتها الثقافية والحضارية[3].

التعليم محقن العقول

إن العمل التربوي بكل أشكاله من تنشئة اجتماعية وتعليم أو تدريب، سواء في المدارس أو المساجد أو المنازل والزوايا أو غيرها من المؤسسات، هو وسيلة المعرفة والتكوين، وهو أيضاً المحقن الذي يحقن عقول وعواطف الناشئة بقيم المواطنة ومحددات هويتهم الدينية والثقافة التي ستطبع شخصياتهم وترسم طريقهم وتؤطر استجاباتهم وسلوكهم.

وقد تبين لنا من درس المماليك، أهمية وقيمة الدور الذي قام به المؤدبون والمعلمون والشيوخ الذين تعهدوا المماليك صغارا بالتربية والتدريب والتعليم والتكوين. والوعي الذكي الذي تمتّع به الملوك الذين أدركوا أهمية التعليم في الطفولة، وهي الفترة الذهبية من عمر النشء، فاستثمروا فيها ما وجهوه للمماليك من عناية بأخلاقهم ودينهم وتعليمهم، ما أثمر نخبا عسكرية وسياسية متشبّعة بالهوية العربية الإسلامية ومكوناتها الدينية واللغوية والثقافية، مندمجة في مجتمعها؛ فعظّمت الإسلام، ودافعت عن العروبة، وحمت استقلال الشعوب العربية، وحرصت على نهضتها وتقدمها وإسهامها بحظها في مسيرة التقدم الإنساني بإنتاج غزير، مادي ومعنوي.

إن التعليم يجب أن يحرص على تأصيل

عناصر الهوية في وجدان النشء، من خلال تعليم اللغة والثقافة القوميتين اللتين تعدان من أهم مكوناتها، حتى يستطيع النشء مقاومة التأثيرات السلبية للعولمة؛ فالتمسك بالهوية الأصيلة واللغة القومية شرط ضروري للحيلولة دون اضمحلال الهوية أو ذوبانها، إلا أن تعليم اللغة لم يكن دوما يتم بشكل يبعث على الرضا والارتياح، إذ كان موضوع ملاحظات كثيرة. وجهت سهام النقد لهذا التعليم واتهمته بالفشل في النهوض باللغة العربية وتمكين المتعلمين من امتلاك ناصيتها وتطويعها.

وهذه الانتقادات ليست وليدة عصرنا؛ فمنذ قرون عديدة، جهر كتاب ومثقفون بهذه الانتقادات، منهم الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) مؤلف البيان والتبيين، وابن العربي (ت ٥٤٢هـ) في كتاب رحلته، وابن خلدون واضع المقدمة، وابن الأزرق (ت ٨٩٦هـ) مصنف روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام.

صرخة ابن خلدون

يعد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) من بين أهم الذين لفتوا النظر إلى مساوئ طرق التعليم وفشلها في تمكين المتعلم من استضمار النسق اللغوي وإتقان التواصل باللغة العربية؛ فأشار بوضوح إلى أن التمكّن من ناصية اللغة لا يتم من خلال حفظ النص أو فهم ما يلقى إلى المتعلم، بل لا بد من طرق تواصلية تفاعلية متجددة. ويقترح ابن خلدون أن يتم التفاعل من خلال درس يعتمد الجدل والحوار بين المعلم والمتعلم، باعتبار ذلك من أهم وسائل تمكين المتعلم من امتلاك مهارات التعبير والتواصل والتعايش وتدريبه على فنون الحوار وقبول الاختلاف في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها.

يؤكد ابن خلدون «أن التعليم التلقيني يجعل المتعلم عاجزا عن التصرف بالعلم الذي حفظه، فتجد طالب العلم منهم، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية، سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون؛ وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، «فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم؛ ثم بعد تحصيل مَن يرى منهم أنه قد حصل، تجد ملكته قاصرة في علمه، إن فاوض أو ناظر أو علّم. وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم، لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية؛ وليس كذلك». ويقترح أن يعتمد التعليم طرقا جديدة تقوم على التواصل الحر بين المعلم والمتعلم، الذي يتيح لقدرات المتعلم ومهاراته التواصلية البروز ويمكنها من النضج والتطور، يقول ابن خلدون شارحاً فكرته: «وأيسر طرق هذه الملكة، فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية: فهو الذي يقرّب من شأنها، ويحصّل مرامها».

التعليم لترسيخ الهوية لمواجهة العولمة

إن تطوير أساليب تعليم اللغة العربية وطرقه كان مطلبا قديما، واليوم أصبح ملحًا أكثر من أي وقت مضى، لأنه سلاحنا في مواجهة تأثير العولمة الكاسح، الذي يهدد الهوية العربية الإسلامية ومكوناتها بالاضمحلال والذوبان، في ظل سيادة وهيمنة الثقافة الغربية المسلحة بالتكنولوجيا الحديثة والاقتصاد القوي والترسانة العسكرية والنظم السياسية والاجتماعية الليبرالية، والتي تسعى لتوحيد

الكرة الأرضية تحت قيادتها.

وقد بدأنا نلمس نتائج هذا التهديد، في حياتنا اليومية وأنماط عيشنا وتواصلنا، ومضامين إعلامنا، نتيجة إحلال قيم ثقافية جديدة تتصل بالحضارة الغربية ولا ترتكز إطلاقاً على جذورنا الثقافية، حتى أضحينا نتواصل عبر الهاتف ونقرأ في الوسائط الإعلامية كلاما عربيا بحروف لاتينية أو عامية محلية يمجّها الذوق السليم؛ فتنكّرنا لهويتنا وتقاليدنا وحضارتنا وثقافتنا الأصيلة.

فمن وظائف المدرسة تعليم اللغة وتلقينها للمتعلمين حتى تكون وسيلتهم لإبراز هويتهم وصونها، واكتشاف القيم الحضارية الإسلامية والوطنية، والتفتح على البيئة الطبيعية والمحيط الاجتماعي والحقل الثقافي، ولإكساب شخصياتهم التوازن الوجداني والفكري وتذوق جمال الأشياء وجمال الفعل الإنساني وجمال الكلمة واللغة، إلى جانب إكسابهم مهارات التواصل عن طريق اللغة كتابة وقراءة ومحادثة.

عيوب التعليم التلقيني

إن إتقان هذه المهارات اللغوية (الاستماع، التحدث، القراءة وفهم المقروء) يعتمد أساسا على قابلية الطفل على الشعور بعمق، إلا أن ذلك غير متاح لمتعلمينا؛ لأن طرق التعليم التلقينية تحرمهم من ذلك. ونتيجة غياب فرصة هذا الشعور في مدارسنا، فقد ظل تعليم اللغة العربية في مدارسنا متدهورا، وخريجو هذه المدارس، وإن كانوا يتقنون بعض مهارات القراءة والكتابة، فإنهم لا يتقنون استعمال اللغة الفصيحة بالتلقائية المطلوبة، (ولا يتقنون التحدث بطلاقة في واقع الاستعمال، لأن مناهج التعليم وطرقه أهملت مهارات الاستماع والتعبير الشفهي، بل أهملت اللغة كلها بوصفها أداة تبليغ وتواصل في الحياة عموما)[7].

الطرق التعليمية السائدة في مدارسنا وداخل فصولنا الدراسية، إنما هي مجرد طرق تبليغ تقليدية تلقينية متوارثة، ومقومات هذه الطرق تكشف عن التصور المعطى لمكونات العملية التعليمية ولأشكال العلاقات القائمة بينها، وهذه المقومات هي:

١. محورية المعلم الذي يلقّن ويقرر ويحدد وينظم.

٢. تجزئة المواد الدراسية وترتيبها وفق اعتبارات منطقية.

٣. قصور المتعلم وسلبيته في مواقف النشاط والتعلم، بوصفه عنصرا منفعلا فقط[8].

وقد كان الدكتور نهاد الموسى شجاعا جريئا حين صارحنا بالحقيقة المرة (ليست لممارسات المعلمين أي نهج علمي واضح منظم... فالصورة السائدة عن معلم اللغة العربية هو أنه معلم غير متخصص، ولا يتميز بأنه يتناول مادة منضبطة بأصول يتطلب تعليمها وعي علم ذلك كله..)[9].

ومن مساوئ الطرق التعليمية القائمة في مدارسنا أنها تركز على تحفيظ التلميذ بعض العبارات والتراكيب وقواعد اللغة، ويسود الاعتقاد بأن السبيل الوحيد لتعليم اللغة هو تلقين قواعدها المجردة للتلميذ؛ فتبذل المدرسة قصارى جهدها لتعريف التلميذ أجزاء الكلام، وتصريف الفعل، وغير ذلك من القواعد التي لا تمكن من الاستعمال الفعلي للغة في واقع الخطاب[10].

يقول هايمز (Hymes) «اللغة ليست أنماطاً

وصيغاً وتراكيب جامدة؛ بل وسيلة للتعبير عن وظائف مختلفة، كالطلب، والترجّي، والأمر، والنهي، والاستفهام، والتقرير، والنفي، والإثبات، وغيرها من الوظائف التي يصعب حصرها»[11].

فاللغة، لها وظيفة تواصلية وهي أهم وظائفها؛ لذلك يظل تطوير تعليم اللغة العربية وإضفاء طابع الحيوية على تعليمها، وتحريرها من الجمود أمرا ضروريا، والجمود يكمن في أنماط التعليم التقليدية القائمة في مدارسنا التي تعلّم اللغة بشكل ممل ومرهق[12].

فاللغة العربية مرتبطة بمادتين دراسيتين تقليديتين اثنتين، وهما مادة اللغة العربية، ومادة الدين. أما المواد الدراسية الأخرى فإنها لا تدعم تعليم اللغة العربية في شيء، بل تسيء إليها؛ لأنها تقدم بلغات هجينة، هي خليط لغوي من عربية ولهجة محلية ومصطلحات أعجمية.

اللغة ممارسة حيّة

قال هنري كوك، وهو أحد أهم الباحثين في تعليم اللغة: «إن تعليم الطفل اللغة والتمكن منها لا يتأتيان من القراءة والاستماع التقليديين، بل من الحركة والفعل والتجربة»[13].

فلا بد، إذاً، من نشاط لغويّ فعليّ يمارس خلاله المتعلم حصيلته اللغوية من مفردات وتراكيب وأساليب تعبيرية في مختلف الوضعيات والوظائف؛ فهذا الاستخدام هو الذي يهب الحياة للكلمات المختزنة في الذاكرة، إذ (إن كل كلمة تبدو في حد ذاتها كما لو كانت شيئا ميتا، وما الذي يعطيها الحياة؟ إنها تكون شيئا حيا أثناء استخدامها، فهل دبت فيها الحياة بهذا الشكل أو أن الاستخدام نفسه هو حياتها؟)[14].

إن النمو اللغوي يكون نتيجة تفاعل، لذلك فإننا لا نستطيع تنمية لغة الطفل بالتكلم معه فقط، بل يجب أن نتيح له الفرصة ليقوم بتعلم ذاتي، يمارس اللغة ويجرب فرضياتها ويتحقق من صدقها أو خطئها، ويركب ويفكك ويعبر ويفهم ويفسر ويتساءل ويستحضر إجابات ويبدع ويتخيل.

يقول الأستاذ نعيم عطية في كتابه التقييم التربوي الهادف «إن المهارات اللغوية جميعها التي تنطبق على أية لغة تنطبق أيضا على اللغة العربية الفصيحة، والتي يمكن أن نجملها في: (١) الفهم السمعي (٢) الكلام والخطاب (٣) القراءة (٤) التعبير الكتابي»[15].

والاتجاه في التربية الحديثة يرمي إلى التمهير لا إلى التحفيظ والتسميع، والتمهير هو الأداء المتقن في الوقت والجهد والقائم على الفهم، وسبيل ذلك الممارسة والتكرار، على أن تتم الممارسة في مواقف حيوية ومتنوعة وبصورة طبيعية وقائمة على الفهم وإدراك العلاقات والنتائج.

الأنشطة أداة التمهير

إن تنمية المهارات اللغوية يتوقف على ممارسة اللغة ممارسة حيويّة فعّالة ومخططة وموجهة إلى تحقيق هذه الأهداف؛ بدل الاكتفاء بما يلقى في الدروس الصفية التي تعتمد على التلقين وتتوسل بتمارين الكتاب المدرسي.

وعلى ذلك، ينبغي على المدرسة أن تعمل على توفير كافة الوسائل الممكنة التي تشعر بحيوية اللغة وفاعليتها، وكذلك توفير كافة الفرص لممارستها وتجسيدها تجسيداً يرتبط فيه اللفظ بالمدلول واللفظ بالمعنى، لتمكين المتعلمين من إحياء ما يتوافر لديهم من

تراكيبها وألفاظها ومعانيها، وتنميتها من خلال الأنشطة التربوية اللغوية التي تتيح ممارسة اللغة، ممارسة واقعية حيوية باعثة على المتعة.

ويُقصد بالأنشطة التربوية اللغوية الألوان المتنوعة من الممارسة العملية للغة التي تستغرق فنونها الأربعة: (الحديث، والكتابة، والقراءة، والاستماع)، يقوم بها التلاميذ برغبتهم داخل حجرات الدراسة بشكل مصاحب للدرس وخارجها كنشاط حر مواز للمنهج الدراسي، ويستخدمون فيها اللغة استخداماً موجهاً في المواقف الحيوية والطبيعية.

فالأنشطة اللغوية من الوسائل الفعالة لتعليم اللغة، لذلك تستعين بها المدرسة الحديثة في الأنظمة التعليمية المتقدمة لبلوغ أهداف تعليم اللغة، لأنها تتيح تعلّم اللغة بالتقليد والمحاكاة والممارسة السليمة في مواقف حيّة تشبه مواقف الحياة الطبيعية التلقائية.

وتعد الأنشطة المسرحية من أهم الأنشطة اللغوية التي تحقق ذلك، فالمسرح يمنح فرصا مهمة لممارسة اللغة، لأنه حركة وفعل وحياة، وبخاصة إذا كانت المسرحية تتضمن فنونا أخرى كالغناء والرقص التعبيري، فالطفل يعيش اللغة ويمارسها معبرا عن مختلف المواقف والمشاعر التي تفرضها الألعاب التمثيلية المسرحية، فتنمو لغته وتتطور، وبخاصة أن تلميذنا يعيش تمزقا لغويا نتيجة البون الشاسع بين لغته الأم واللغة التعليمية ولغة الشارع[١٦].

والمسرح بحواره وأدائه وتقنياته وحركاته وما يثيره في المتتبع والممثل من مشاعر وأحاسيس، وما يتطلبه من قدرات وتدريبات، كفيل إذا أحسن استثماره واستغلاله بأن ينمّي في المتعلم كثيرا من المهارات اللغوية، كمهارات الاستماع، وإلقاء الكلام، والقراءة، والتعبير الكتابي.

كما ينبغي تشجيع المتعلمين على القراءة الحرّة، وغرس محبة الكتاب في نفوسهم، وتكريس تعلقهم بالثقافة المكتوبة، لمواجهة العزوف عن القراءة أمام الانتشار الطاغي للثقافة الشفوية وثقافة الصورة في عصرنا، بفعل التأثير المدمّر لوسائل الإعلام الترفيهي على حياتنا الاجتماعية والثقافية. فالتعامل مع الثقافة المكتوبة يتطلب جهدا عقليا، وينمي الذوق الأدبي والجمالي، ويدرب على ترتيب الأفكار، وفهم المقروء، ويكسب رصيدا معجميا، إلى جانب غايات كثيرة تتحقق بفضل القراءة الحرة للكتب والمجلات، والتي يضيق المجال بإحصائها.

الأطفال والناشئة في الأوساط الريفية أولى بالعناية، لقلة إمكانات الحصول على الكتاب المطبوع، وينبغي التفكير في إقامة موزعات آلية للكتب في المؤسسات التعليمية والساحات والأماكن العامة ومحطات المسافرين. هذه الموزعات الآلية التي تفرج عن الكتاب مقابل قطعة نقدية معدنية، مثل الموزعات الآلية للمشروبات والحلويات، كفيلة بتسهيل الوصول إلى الكتاب وترويجه على أوسع نطاق. وحبذا لو تنظم المؤسسات التعليمية حفلات توقيع كتب ومعارض ضمن فعاليات أنشطتها الموسمية وغير الموسمية.

إلى جانب تنظيم منافسات في حفظ القرآن الكريم وترتيله، والحديث الشريف، ونصوص الشعر العربي القديمة والحديثة، وتفعيل الإعلام الثقافي المدرسي، يجعل من كل طفل كاتبا وقارئا وناقدا ذكيا، وفاعلا في بيئة ثقافية

تربوية نشطة، الأمر الذي يؤسس للمجتمع القارئ ومجتمع المعرفة. كما أن أنشطة الإذاعة المدرسية والتدريب على الخطابة تسهم في ترسيخ عادات تواصلية تحترم اللغة العربية وأساليبها الجميلة والهوية القويمة. كما يمكن تنظيم معسكرات صيفية لغوية لممارسة اللغة خارج حجرة الدرس وبشكل طبيعي متحرر من قيود النظام التعليمي المصطنعة.

هذه مجرد أمثلة مقتضبة للأنشطة التربوية اللغوية التي يمكن إقامتها في المؤسسات التعليمية، ونجد في الدراسات الأكاديمية وكتب التربية واللغة، أمثلة أخرى كثيرة لأنشطة متنوعة ومختلفة تنمِّي المهارات اللغوية لدى الأطفال والناشئة.

وعدم الالتفات إلى أهمية هذه الأنشطة وقيمتها التربوية والتعليمية، وعدم استثمارها بالشكل المفيد يُضَيِّع أمام مدرستنا فرصا عديدة وثمينة لتدريب أبنائنا على إتقان المهارات اللغوية، ويعد خطأً ينتقص من قيمة مناهج تعليم اللغة العربية وفعاليتها في مدارسنا.

ونعوّل على الأنشطة التربوية اللغوية، لإتاحة أحسن الظروف أمام التلاميذ لتعلم جيدٍ للغات وإتقان مهاراتها، ومساعدتهم على تحقيق تكيفٍ ذاتي ومدرسي واجتماعي يسهم في إقبالهم على الدراسة.. ويحد قدر الإمكان من تسربهم وتخلفهم الدراسي، ويطور أساليب تعليم اللغة العربية، وينشرها داخل النسيج الاجتماعي ويثبّت مكانتها، ويغرس حبها في نفوس أبنائنا، ويؤسس المجتمع القارىء مجتمع المعرفة ليحتل المكانة التي هو جدير بها بين الأمم المتقدمة.

---

(١) جداد، محمد: الخطر على العربية خطر على ثقافة العرب العامية، مجلة العربي (الكويت) العدد ٦٦٣، يناير ٢٠١٤م، ص: ١٩.

(٢) السيحان، ليلى خلف: المواطنة اللغوية، مجلة العربي (الكويت) العدد ٦٦٣، يناير ٢٠١٤م، ص: ١٤.

(٣) أبو علي، نبيل خالد: المدخل الدلالي لشعر المديح وطابعه الديني في عصر سلاطين المماليك والعثماني؛ مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد ١٥ العدد ٢ (يونيو ٢٠٠٧م)، ص ١٤١.

(٤) ماجد، عبدالمنعم: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم، القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٧٩م، ص ١٥-١٩.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور http://www.alukah.net/Culture/1042/34934.

(٦) أخ العرب، عبدالرحيم: اللغة العربية بالمغرب، بين لغة الهوية وهوية اللغة، مجلة علوم التربية، العدد ٥٨، يناير ٢٠١٤م، ص ١٠٥

(٧) بوشحدان، الشريف، طرائق تعليم اللغة لغير الناطقين بها، الفيصل العدد ٢٥٠ (ربيع ١٤١٨هـ) ص٣٦.

(٨) بيدادة، محمد: تصلب الطريقة ومحاولات التجديد: مجلة التربية والتعليم العدد ٩ - ١٠ (١٩٨٤م) ص ٤١.

(٩) الموسى، نهاد: مقدمة في علم تعليم اللغة العربية، الرياض، دار العلوم، ١٤٠٥هـ، ص ١١ - ١٢.

(١٠) بوشحدان، مرجع سابق، ص ٣٦.

(١١) بوشحدان، المرجع السابق نفسه.

(١٢) حسن سعاد، مسرح الطفل والتربية: مقال بجريدة الاتحاد الاشتراكي، ١٩٨٩/٣/١٢م، ص ٢.

(١٣) حسن سعاد، المرجع نفسه.

(١٤) المعتوق، أحمد محمد: الحصيلة اللغوية، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، سلسلة عالم المعرفة، ٢١٢ (١٩٩٦م)، ص ٢٦٣.

(١٥) عطية، نعيم: التقويم التربوي الهادف، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٠م، ص ٢٦٩.

(١٦) حسن سعاد، مرجع سابق.



في الطريق إلى النور! أهمية اللغة العربية لفهم القرآن والسنة

■ أ.د. خالد فهمي - مصر

١- عندما يفرض الأمرَ منطق الأشياء

لقد كان مما انتشر واستقر حقيقة علمية في تاريخ العلم عند المسلمين أنّ نزول القرآن الكريم كان باللسان العربي. وهو الأمر الذي أعلنه الذكر الحكيم في ملمح مهم من ملامح التعريف بنفسه، يقول تعالى: ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾ [النحل ١٠٣]، ويقول عز وجل: ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين﴾ [الشعراء ١٩٣-١٩٥]، ويقول عز من قائل: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ [يوسف ٢]، ويقول: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا﴾ [الشورى ٧]، ويقول تبارك اسمه: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ [الزخرف ٣].

وكان مما ترتب على هذا الإعلان المستفيض أنّ فهم العلماءُ أن منطق الأشياء يفرض أن يُعتنى بالعربية وقوانينها وعلومها جميعا. ولم يفتأ العلماء على مرّ العصور يبنون ذلك ويكشفون عنه حتى صارت قضية منطقية من لازم عمل العقل عند النظر في مقدماتها! فترى الشافعي يقول في رسالته: (ص ٤٠ بتحقيق العلامة أحمد شاكر): «ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب».

وتطور الأمر عند المعاصرين، فكان من نتائجه القول بأنه لولا القرآن ما كانت العربية -على حد تعبير العلامة رمضان عبدالتواب في كتابه (فصول في فقه العربية)- قاصداً بها: (ص ١٠٨): «أن القرآن هو المحور، الذي فجر العلوم اللسانية والعربية وغيرها. ولم يزل هذا الفاتح قائما يزداد مع مرور الأيام أنصارا، حتى صح أن نقرر أن اللغة العربية لم يكن لها أن تصير لسانا عالميا إلا بفضل نزول الكتاب العزيز بها. ومن هنا، فرض منطق الأشياء أن تتقدم المعرفة باللسان العربي،

وتتحول إلى منظومة من علوم لسانية تستهدف جميعا خدمة قضية فهم الكتاب العزيز وما معه مما هو من مثله، وهو الحديث النبوي الشريف، حتى صار لازما عقليا القولُ بأن تحصيل فهم هذين الأصلين العظيمين غير محقق إلا بالتضلع والغوص الشديد والصبر الأكيد على تحصيل العلوم اللغوية، والتوسع فيها وفي مقرراتها من الصوت إلى النص، وأن كل توسّع في هذا الباب عائده شهيٌ إلى أبعد الحدود، لا يجادل في ذلك أحد على الإطلاق.

٢- الوعي بقضية أهمية اللغة العربية لفهم الكتاب والسنة في التراث

قراءة في الأدبيات

وقد كان من أثر منطقية العلاقة وعضويتها بين نزول الوحي باللسان العربي المبين وترقي العلوم اللغوية العربية، ظهور مؤلفات مستقلة تفرغت لمناقشة هذا المشكل العلمي، المتعلق ببيان أهمية اللغة العربية لفهم القرآن والسنة في التراث. وقد وصل إلينا من أدبيات هذا الوعي ما يأتي:

أ. الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية، لابن عبد الكريم الطوفي الصرصري الحنبلي، المتوفى ٧١٦هـ.

ب. روضة الإعلان بمنزلة العربية من علوم الإسلام، لابن الأزرق الحميري الأصبحي الغرناطي، المتوفى ٨٩٦هـ.

لقد اجتهد هذان العالمان في جمع الأسباب الموجبة للعناية باللغة العربية، وجمعا بسبب تأخرهما الزمني أدلة كثيرة تثبت الحاجة الماسّة لترقية علوم هذه اللغة من جوانب كثيرة، كان أهمها ما يتعلق بالكتاب العزيز والسُّنَّة المطهرة، وفيما يلي محاولة موجزة لقراءة أهم ما ورد من حقائق في كل منهما:

أ. الصعقة الغضبية للطوفي المتوفى ٧١٦هـ: حرص الطوفي على الانطلاق من أن إرادة صيانة اللسان من دواعي الفساد، والتي بدت ملامحها بتأثير مُسلمة الفتح ممن سماهم (هذه الحمراء)، وهو مقصد مهم جدا يمنع عند تأمله من تطرُّق مادة الفساد إلى الذكر الحكيم والسنة الشريفة. ثم جمع أدلة فضل العربية ووزعها على أنواع ثلاثة هي: أدلة فضلها من الكتاب ومن السنة ومن صريح العقل، ثم عرَّج على ذكر فضل مَن حصَّل علوم هذه اللغة وبيان عيوب من أخطأ فيها وخلا منها. على أمر أهم ما يستفاد من الكتاب في موضوعنا هو ما أورده في الباب الرابع من بيان كون العلم بهذه اللغة أصلا من أصول الدين، ومعتمدا من معتمدات الشريعة، وكشف في هذا الباب على امتداد فصول ثلاثة.. تأثير العلم باللغة في تحصيل مراد القرآن والسنة، وتخريج الأحكام بناء على قواعد العلم بها للدرجة التي قرر معها (ص٦٣١) قائلا: «لو استقصينا المسائل الشرعية المعتمدة على القواعد العربية لكانت

مقدار تلك الثقة على ما تقرر!؛ وسواء صح هذا التقدير أو لم يصح، فإنه كاشف عن مدى الأهمية التي كان يستشعرها الوعي اللغوي في تراث دراسات هذه اللغة، وعبرت عنه أمثال كتاب الصعقة الغضبية في كثير جداً من المواضع.

ب. روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام، لابن الأزرق الحميري الأصبحي الغرناطي، المتوفى سنة ٨٩٦ هـ.

وإذا كان الوعي المشرقي، كما تجلى في كتاب «الصعقة الغضبية»، ظهر وكشف عن حقيقة تقدير أهمية اللغة العربية لمن رام التعامل مع الكتاب والسنة والشريعة؛ فإن الوعي المغربي لم يكن بعيداً، وإن تأخر بطبيعة الحال نسبياً، وجاء مستفيداً ومواكباً منجز المشارقة في هذا الباب، وهو ما نلمسه من حجم كتاب ابن الأزرق، ومن تنظيمه الدقيق، فقد توسع في ذكر الفضائل العقلية والنقلية، والمركبة منهما، ثم قرر أن الاحتياج إليه في ملة الإسلام ضروري، وهو ما يعني احتياج الاعتقاد والشريعة إلى اللغة العربية، حتى تقرر عنده بالدليل أنه «يلزم الخوض فيهما (أي اللغة والنحو) بسبب الشرع؛ إذ جاءت الشريعة بلغة العرب، وكل شريعة فلا تظهر إلا بلغة أهلها».

إن هذين الكتابين المستقلين في بيان فضائل العربية، وأهمية تحصيل قواعدها.. يكشفان عن وعي حقيقي مدعوم بالأدلة والنماذج التطبيقية بقيمة اللغة العربية، وأهميتها لتحقيق الإيمان وتأسيسه، وفهم الكتاب والسنة جميعاً!

(٣) أهمية اللغة العربية لفهم القرآن والسنة جميعاً، مقال في التجليات

إن من أكثر الأشياء صعوبة محاولة استيعاب القول في أهمية اللغة العربية لفهم الكتاب العزيز والسنة المشرفة، لتشعب الموضوع، واتساع مسائله. ولكن ربما كان كافياً في هذا السياق أن نشير إلى مجمل ملامح هذه الأهمية فيما يأتي:

أولاً، تأسيس الإيمان وفق الدليل اللغوي

إن أول الملامح التي تتجلى في سياق قراءة أهمية اللغة العربية في فهم الكتاب والسنة يكمن في أن تأسيس الإيمان لا يكون من دون استصحاب الدليل اللغوي، فقراءة (إِيَّاكِ) بكسر حركة الكاف مثلاً يفضي إلى مشكلات عقدية مرعبة تدخلنا إلى جر التأنيث عليه سبحانه مثلاً، وهو ما يعني أن تحصيل قواعد اللغة ابتداءً من الصوتيات فما فوقها أمر لازم لبناء اعتقاد صحيح مدعوم بالدليل، ومانع من الوقوع في مصائد الخلل الاعتقادي الذي قد يخرج الإنسان من الملة، أو يجره إلى مستنقع عدم تنزيه الله تعالى، أو تقدير ما يصدر عنه، مما هو داخل في أصول الاعتقاد أو فروعه.

ثانياً، تحقيق حق التلاوة للذكر الحكيم

لقد جاء الأمر الشرعي بتلاوة الذكر الحكيم حق تلاوته في سياق امتداح فعل

مَن يفعل ذلك، يقول تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) [البقرة ١٢١]، وقد جاء في تفسير (حق تلاوته) رأيان هما:

أ. يقرأونه حق القراءة، ولا تكون إلا بتحصيل علوم لغة العرب أصواتاً وأبنيةً وإعراباً ونحواً.

ب. يتّبعونه حق اتّباعه، ولا يكون إلا بعد فهمه، وتحصيل معناه، والاستنباط منه، وقد تقدم أن ذلك لا يتم من دون فهم لغة النص الكريم، مجموعاً إليه ما ورد من شروح في السُّنّة المشرّفة.

ثالثاً: القيام بواجب تدبر الذكر الحكيم

لقد أمر الله تعالى بتدبر كتابه في أكثر من آية، يقول تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) [سورة ص ٢٨]، والتدبر مرتبة لا تكون إلا بعد الفهم، المبنيّ على تطبيق قواعد اللغة العربية واستثمارها. وإذا كان التدبر من الأسباب الحاكمة للتنزيل على ما قرره المفسرون فإن تحصيل قواعد اللغة تبعاً لذلك يعد من الأسباب الحاكمة لصناعة التدبر، وبناء ملكته.

رابعاً: إقامة التكاليف الشرعية

إن أهمية اللغة العربية في هذا الباب ظاهرة جداً، والعمل فيما نقلناه عن الطوفي الحنبلي يؤكد ذلك، إذ إنه قرر أن ثلث الفقه –في تقديره– معتمد على قواعد اللغة. وهذا الباب متسع جداً إلى درجة أن مبحث حروف الجر أو حروف المعاني مؤثر جدا في كثير من مسائل الفقه الموزعة على الأبواب جميعاً.

وقد توسّع ابن الأزرق –عن حق– فقرر «أن حفظ الضرورات الخمس وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال من أعظم مقاصد الشرع... (و) أنها واجبة الحفظ في كل ملة، وحاصل حفظها يرجع إلى كل ما يقيم وجودها» وقد خلص من هذا إلى أن العناية باللغة العربية والاهتمام بها من موجبات هذا الحفظ.

وقد نشأ من أجل ذلك تفريع للأحكام الفقهية المختلفة، تبعا لاختلاف الفهوم للأدلة الشرعية من قرآن وسنة من جهة قواعد اللغة، ومما يدُلك على بعض هذا، خلافهم في معنى (من) في قوله تعالى في آية التيمم (امسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) إذ حملها بعضهم على ابتداء الغاية، وحملها آخرون على التبعيض، مما كان منه اختلاف الحكم الفقهي المتعلق بالتيمم على رأيين هما:

أ. حصول التيمم من دون النظر إلى علوق التراب الطاهر باليد لمن فهم من (من) معنى ابتداء الغاية.

ب. حصول التيمم بشرط علوق التراب الطاهر باليد لمن فهم منها معنى التبعيض.

وبسبب من ذلك، اتسعت مدوّنة الفقه وغنيت وتمتعت بثراء عريض دالّ على فضل العربية وأهميتها في تحليل الأصلين

العظيمين وفهمهما والاستنباط منهما.

خامساً: أهمية اللغة العربية في رد شبهات المنحرفين

وقد ظهرت أهمية كبيرة للغة العربية في فهم الكتاب والسُّنَّة في مجال الرد على شبهات المنحرفين وأصحاب الأهواء من أهل الفرق والملل؛ إذ اعتمد كثير منهم على نصوص شرعية حرفوها لتسويغ مقالاتهم في الاعتقاد وغيره، من مثل احتجاج القدرية بالحديث المتفق عليه الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: «احتج آدمُ موسى فقال: يا آدم أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال آدم: أنت الذي اصطفاك بكلامه... تلومني على أمر قدره الله عليَّ... فحجَّ آدمُ موسى» برفع (آدم) على أنه فاعل (حج) ونصب (موسى) على أنه (محجوج)، يقول الطوفي (ت ٧١٦ هـ): «وبيان ذلك أن الله تعالى تقدم في سابق علمه إخراج آدم من الجنة بسبب الأكل من الشجرة بدليل (إني جاعل في الأرض خليفة) وما علمه الله أن سيكون فهو كائن لا محالة، إذ خلاف معلوم الله تعالى محال، وحين إذٍ، عدم عصيان آدم محال، وهذا أكبر دليل يُحتج به لأهل السنة على إثبات القدر». ثم يقرر أن القدرية حرفوا الرواية ونصبوا آدم. وهو دليل حاسم على التفطن لأثر اللغة في توجيه الآراء والانتصار للاعتقادات. وأهل الأصلين (القرآن والسنة) يلزمهما التضلع من علوم اللغة لخطرها على ما يستنبط من هذين الأصلين في كل مجالات الدين والحياة.

سادساً: أهمية اللغة العربية لفهم الكتاب والسنة في بناء أجيال الدعاة وتكوينهم للقيام بواجب البلاغ إلى الله تعالى

إن أهم مصدر لتكوين الدعاة إلى الله تعالى وإمدادهم بمراده يتمثل في مداومة الاتصال بالكتاب العزيز والسُّنَّة المشرفة، وعلى هذا انعقد إجماع من أصَّل لثقافة الداعية من العلماء المعاصرين، ذلك أن القرآن والسُّنَّة لا يجودان بكنوزهما إلا لمن ملك مفاتيح التعامل معهما، وهي تلك المفاتيح المتمثلة في قواعد اللسان وأسراره. وتبرز أهمية اللغة في هذا المقام في ملامح بعينها، من مثل:

أ. ترقية ملكة البيان لدى الدعاة مع دوام الاتصال بلغة الذكر الحكيم وسمت كلام النبي صلى الله عليه وسلم القائم على الخلوص إلى القصد من أقرب طريق.

ب. تحصيل مراد الله تعالى بدليله اللغوي تمهيداً لبذله للناس.

ج. ترقية مروءة الدعاة؛ إذ تحسين اللسان يزيد في مروءة الإنسان ويُعلي من تأثيره في المدعوين.

سابعاً: أهمية اللغة العربية في تحصيل قوانين ترقية العمران من القرآن والسنة

لقد استقر في دراسات الحضارة المعاصرة

المرتبطة بالمرجعية الإسلامية تقرير أن القرآن والسنة مصدر لترقية العمران الإنساني، وفق قوانين هذا الدين الثابتة في الأصلين العظيمين. ومما أسهمت به تطبيقات اللغة العربية في الكشف عنه في هذا الباب:

١. أن الظلم معيار وقانون مُسقِط للعمران.

٢. أن العدل قانون يرقى بالعمران.

٣. أن الفُحش وسوء الخلق والسفه في استعمال الموارد مدمّر للحضارة.

٤. أن العمل اليدويّ أصل ثابت في ترقي الحياة، فقد كشف التحليل اللغوي للقرآن والسُّنّة امتداح العمل، والإخبار عن كثير من الأنبياء أنهم عملوا أعمالا يدوية من حدادة ونجارة وبناء وتشييد ...إلخ.

٥. لزوم الأخلاق الفاضلة لتقدم العمران.

٦. العناية بالإنسان أصل كل عناية بالعمران.

إن فهم القرآن والسُّنّة وفق مقررات اللغة وقواعدها كاشف عن أهميتها المركزية في استصدار قوانين العمران وفق التصور الحضاري في الإسلام.

ثامنًا: أهمية اللغة العربية لفهم القرآن والسُّنّة في الكشف عن المنظومة الأخلاقية الإسلامية

ومما يُعبّر عن أهمية اللغة العربية في سياق فهم الكتاب والسُّنّة أنها طريق للكشف عن المنظومة الأخلاقية التي أرساها وأسسها التصور الإسلامي. ومما يمكن بيانه في هذا الصدد ما يأتي:

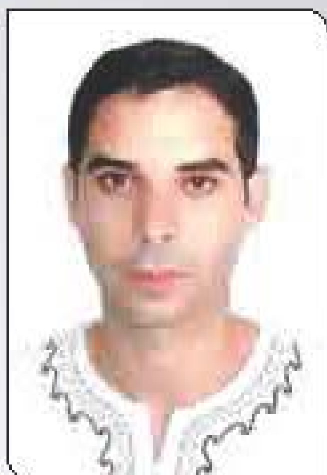
١. الكشف عن ثبات منظومة الأخلاق الإسلامية التي جاءت نصوصها في الكتاب والسُّنّة مطلقة غير مقيّدة بقيود لغوية تمتدح الصبر والصدق والعفّة والأمانة والمسؤولية الفردية في السياقات جميعا.

٢. إثبات مركزية بذل حسن الخلق للناس جميعا، مؤمنين وغير مؤمنين إحسانا وبرا في التصور الإسلامي.

٣. إثبات مركزية رعاية الوجود كله في محيطه الإنساني والحيواني والبيئي، فقد تقرر من فهم الكتاب والسُّنّة وفق قواعد اللغة الرفق بالحيوان، وتحريم فجيعة الطير بولده والحفاظ على البيئة وحسن استثمار مواردها.

٤. الإعلاء من القيم الأخلاقية التي تصب في حفظ بدن الإنسان وتهذيب روحه وتأمين نفسه..

إن اللغة العربية في قضية توقف فهم الكتاب والسُّنّة عليها ثم تفعيلهما في الوجود تصل إلى أن تكون محوراً وعماداً أساساً لا يمكن من دونه تصور إقامة الدين. وهو ما يعني أننا في طريقنا نحو النور القادم من الله تعالى يلزمنا أن نمتثل بما تقرره أحكام اللغة العربية وقواعدها وأسرارها في مستوياتها جميعا.



اللغة العربية بين العالمية والعلمية

■ سعيد بوديوز- المغرب

لماذا لا تكون اللغة العربية عالمية؟

لكي تجيب «اللغة» على هذا السؤال، ينبغي أن تكون لغةً للشاعر والشارع معاً؛ أن تكون ذات مرونة عالية، وقدرة كبيرة على المناورات في كل الاتجاهات؛ أن تكون قادرة على الصعود إلى الصعيد العالمي، بما يساوي قدرتها على النزول إلى مستوى العامي. ينبغي أن تنتصر على بعض اللغات التي تنافسها على مستوى العالم، وتنتصر على اللهجات العامية التي تسحب الأزقة والأزقة من تحت قدميها. وقد يكون بلوغ قمة العالم أسهل من بلوغ أعماق الزقاق، بقدر ما يصعب على العامية أن ترقى من قاع الشارع إلى قمة الشاعر.

إن المرونة التي تجعل اللغة قادرة على تخطّي الحدود الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، هي المرونة نفسها التي تجعل «التفكير» بهذه اللغة أو تلك، يتحدى (ويتخطى) مختلف المفاهيم والنظريات والظواهر المعقّدة. ولكي نغوص في هذا الموضوع بشيء من الدقة، لا بد أن نقرر بداية أن اللغة العربية (الفصحى) هي لغة «التوحيد». ويمكننا أن نتابع سلسلة طويلة من المفردات التي تنحدر من سلالة هذه المقولة، أي مقولة «التوحيد»: توحيد الخالق تبارك وتعالى، والأمة، والكلمات. بهذا نكون قد أشرنا إلى ثلاثة مباحث، وهي: الثيولوجيا والأنثروبولوجيا، والفيلولوجيا.

وإذا كانت العربية الفصحى لغة التوحيد بهذا المفهوم، فلابد أن تكون في صراع مع «الانفصال»، أي «الإلحاد» بوصفه «انفصالاً» عن الخالق، والاستقلال السياسي بوصفه انفصالاً لجزء من الأمة عن الكل، ونشوء العاميات بوصفه استقلالاً لسانياً. وهكذا، كباحث سيميائي، أرى أن فعل التحدث باللغة العربية هو فعل حكائي قبل أن يكون خطابيا؛ وإذا استعرنا تعبيرا لسانيا قد نقول أن هذه اللغة «إخبارية» أكثر منها «إنشائية»، بمعنى أن المتحدث باللغة العربية الفصحى، يقوم بفعل مزدوج في الآن ذاته؛ يخاطب(ك)، ويحكي عن(ها) أسطورة بإمكاننا أن نطلق عليها «العودة»، كعنوان دلالي.

إن هذا الفعل «الحكائي» يتم إدغامه لا شعورياً في الفعل «الخطابي». وينبغي أن نميز هنا بدقة بين المتحدث والكاتب؛ لأن الأول يستطيع (وفي كل بلد عربي) أن يتحدث بعاميته، لكن الثاني نادرا جدا ما يتيسر له ذلك. وبهذا تصبح مناسبة «التحدث» أكثر إثارة للاستفهام، من وجهة النظر العلمية. إذا سمعتك تتحدث بالعامية المغربية مثلا، فقد أسألك: «ماذا تقصد؟»، لكن من العبث أن أسألك: «لماذا تتحدث بهذه اللغة؟». والعكس قد يكون صحيحا، أي إذا قرأت لك نصا باللغة العربية الفصيحة، فمن العبث أن أسألك: «لماذا تكتب بالفصحى؟» بل ومن الوارد أن أسألك: «لماذا تكتب بالعامية؟». إذاً، لا بد من التمييز أولا بين «التحدث» و«الكتابة» لكي نصل بالقارئ إلى عمق الفكرة.

إن الجواب المتواري خلف(ية) المتحدث المسؤول (افتراضا) عن سبب تحدثه بهذه اللغة، هو: «إنني أعود إلى الأصل». نعم، ففي الأصل (الزمان الماضي فقط) كنا أمة واحدة. وهنا يكمن جزء كبير من الإشكال، لأن مركز الثقل الجاذبي للغتنا العربية يقبع في الماضي المثالي وحده، بوصفه مجداً وانتصاراً. وسوف نرى أن بعض اللغات (الحيّة) التي انتقلت فيها مراكز الثقل الجاذبي إلى الحاضر، شهدت، في الواقع، انتقالا حضاريا ملموسا من الزمن المثالي إلى الزمن العلمي. إذا كنا سنختلف حول عدد الفئات البشرية التي يستهويها المثالي، فلن نختلف حول عدد الفئات التي يستهويها العلمي. فقبل أن نقول إن لغة كذا أصبحت عالمية (في الظاهر)، ينبغي أن ندرك بأن العلم لغة عالمية (في الباطن) بمعنى أنه لغة ذات النحو والصرف والمعاني التي لا يختلف حولها اثنان من البشر. وإذا كان الأمر كذلك، فقبل أن نتساءل: لماذا لا تكون اللغة العربية (عالمية)، يجب أن نتساءل: هل تحمل هذه (العربية) لغة عالمية؟

واللغة هنا يعني مجموعة من قواعد التواصل الأكثر يومية بين الأفراد والشعوب انطلاقا من حاجياتها الأكثر يومية والأكثر أساسية كذلك. أن تتحدث باللغة العربية الفصحى، يعني أن تستحضر أرواحا لكي تطرد بها أخرى مؤقتا. فدائما يتم استحضار هذه اللغة كثرات في مقابل اليومي، وكدين في مقابل الدنيا، وكخطاب أدبي في مقابل الخطاب العامي. لم يعد (ونادرا ما كان) بإمكان الإنسان أن يتحدث باللغة العربية من دون أن يترك علامة استفهام وراءه! فهل هو بصدد محاضرة، أم خطبة جمعة، أم نشرة أخبار، أم قصيدة شعر.. إلخ؟

إن اللغة (اللسانية) لا تصبح عالمية اعتمادا على جودتها الذاتية فحسب، فلا ننسى بأن اللغة العربية لم تحقق هذا الانتشار حتى وقد بلغت ذروة الجودة الذاتية إبّان العصر الجاهلي، ولكنها انتشرت (وفقط) حين أصبحت لغة القرآن، ونحن جميعا نعرف أن القرآن الكريم نشر العربية بين جميع مَن يفهمون لغته الثيولوجية قبل اللسانية! والدليل على ذلك أن هناك العديد من الشعوب لا يتحدثون اللغة العربية أصلا، ولكنهم قرآنيون، بمعنى: «مسلمون». وهنا نلاحظ بوضوح أن «اللغة اللسانية» تنتشر اعتمادا على «لغة إنسانية» بالمعنى البراغماتي للكلمة (الذي يشكل المتحدَ البشري)، حتى وإن تعلق الأمر بالدين. أشير إلى أن تعبير (اللغة الإنسانية) لا أعني به الأدبيات الأخلاقية المعروفة عند الجميع،

بل أعني ببساطة مجموعة من القيم والقواعد والمصالح (دينية أو دنيوية)، التي تشكل قطبا قادرا على جذب عدة نماذج بشرية. ولقد رأينا أن لغة العلم قادرة على استقطاب كل النماذج البشرية، أو معظمها على الأقل، باستثناء بعض الشعوب البدائية التي غادرت التاريخ إلى غير رجعة.

من الغرائب التي دفعتها اللغة العربية، أنها بقدر ما تبدو مرتبطة بالمقدس، بقدر ما تبدو بعيدة عن الإنسان (العربي نفسه). وليس غريبا أن تبدو لغة للماضي، لأن جوهر الوعي القدسي، بطبيعته الدينية، ينجذب إلى ما قبل التاريخ، فلا ننسى أن «الجنة» بوصفها جوهرا للميتافيزيقا، توجد فيما قبل التاريخ. مثلا: متى كان آدم في الجنة؟ الجواب: قبل التاريخ. وأين آل مصيره بعد اقتراف الخطيئة؟ الجواب: هبط إلى التاريخ. إذاً، بقدر ما ينفتح وعي الشعوب على «التاريخ» بقدر ما يصبحون بعيدين عن لغة المقدس عموما، واللغة العربية على وجه الخصوص. فما قمة المستقبل، بالنسبة للإنسان العامي، إلا ذروة للعلوم والخبرات المتراكمة عبر «التاريخ»، وما قاع الماضي، بالنسبة للإنسان الديني النموذجي، إلا ذروة للميتافيزيقا المتمثلة في «الجنة». وهكذا، فإن ابتعاد الإنسان العامي، في حياته اليومية، عن اللغة الفصحى لا يعني أنها رخيصة، بل يعني أنها مكلفة، لدرجة أن ما يجلبه من ثقافته اليومية لا يكفي لدفع فاتورتها. ومن هنا، ندخل في مشكلة التعليم باللغة العربية.

إن العامل الذي ارتقى باللغة العربية إلى المستوى الذي نعرفه الآن، هو العامل نفسه الذي أبعدها عن العامي. وكانت النتيجة أنها، بقدر ما ارتفعت عن السوقي إلى الرسمي، وارتفعت عن العامي إلى العالم (بكسر اللام)، بقدر ما تجاوزتها الحياة اليومية، وتركتها في قلاع الطقوس والمناسبات؛ لأن العامي أكثر التقاطا لتفاصيل الزمان من العالم أو الرسمي، وهذا يعني أن العامية أكثر مواكبة للتاريخ من الفصحى شئنا أم أبينا. وبناءً على ذلك، فإن التمثيل الثقافي الذي أخذته الفصحى على عاتقها يواجه بعض الصعوبات في التقاط عناصر الارتباط بين الإنسان العربي وبيئته، لأن بيئة الناطق بهذه اللغة لا يمكن إلا أن تكون محلية، واللغة العربية الفصحى بطبيعتها لا يمكن إلا أن تكون لغة لجميع العرب بصرف النظر عن اختلاف بيئاتهم؛ ولهذا، فإن الإنسان الناطق بهذه اللغة لابد أن يدفع ضريبة تماسكها وعبقريتها من خلال بعض تنازلاته- كلما أراد أن يكتب أو يتحدث بها- عن أدق التفاصيل التي تميز طبيعة تجاربه مع بيئته المختلفة، بشكل أو بآخر، عن غيرها.

إن طالب العلم، في هذه الحالة، يحسُّ دائما بأن هناك مسافةً ما بينه وبين ما يدرسه، والسبب في ذلك أنه يقطع بالفعل مسافة ذهنية سيكولوجية لكي يستعمل هذه اللغة (الفصيحة). لذلك، أعتقد بأنه لو كان يدرس بلغته اليومية (أو بعبارة أخرى)، لو كانت اللغة العربية لغة يومية، لأصبحت هذه «المسافة» قصيرة جدا حدَّ التلاشي، ولأصبح هناك سرعة ملحوظة في استدعاء ملفاته الثقافية (سرعة التفكير/دقة التحليل). فلعلنا نلاحظ، بخصوص اللغات الحية، تلاشي هذه «المسافة» بين الطلاب وبين ثقافتهم، سواء الأكاديمية، أم الدينية، أم التقنية، أم غيرها؛ فكل شيء يصبح بسيطا، ويتم عرضه بسهولة وبساطة. وأعتقد أنه بمجرد المقارنة بين كتابين؛ واحد غربي

وآخر عربي سيتبين للقارئ الفرق؛ فكثيرا ما يعرض الأول فكرة معقدة بلغة بسيطة، بينما نرى الثاني متعبا في تسلق لغة معقدة من أجل أن يعرض فكرة بسيطة، هذه ملاحظة عامة، وطبعا هناك استثناءات. كل هذا له دور فعال في الارتقاء، أو النزول، باللغة من قمة العلم والعالم وإليهما.

لكي يدرس الطالب العربي باللغة العربية الفصحى، عليه أن «يعود» ذهنيا، في كل درس، إلى «الأصل». عليه أن يجمع شظايا انتشاره عبر زمان الحاضر ومكان الحضور، «يعود» إلى زمن كثافته، إذ يتعين عليه أن يلعب دور عضو في جسد الكل. ولكن هذا لا يعني ضرورة التخلص من اللغة الفصحى أبدا؛ فهي صاحبة دور كبير في هذه الحضارة العربية والإسلامية، وأنها تحتاج فقط إلى مجهودات جبّارة لكي تمسك بزمام الحياة المعاصرة، رغم ما يذهب إليه بعض الباحثين، أذكر منهم زكريا أوزون[1] الذي هاجم كل شيء في هذه اللغة، وقد كتبت ردا أو تعليقا على بعض ما جاء به[2]. وأيضا قولنا بابتعاد العامّي عن لغة المقدس لا يعني ابتعاده عن الدين؛ هذا ونضيف أنه بحكم عمومية العامي ووفرته، في مقابل خصوصية الفصيح وندرته، لا يمكن للكائن الفصيح إلا أن ينشغل بمقاومة الانقراض الذي يهدده على يد الكائن العامي. فلم يعد (وقلما كان) الفصيح يقاوم العامي خارج أسوار الطقوس الدينية وغيرها من المناسبات التي يظهر فيها باستحياء ويختفي أمام المارد العامي.

إذاً، فإن التحدث بهذه اللغة نوع من العودة إلى أنواع من الوحدات، منها الظاهرة للعين المجردة، ومنها ما يحتاج إلى تحليل دقيق. لكي يسهل علينا فهم طبيعة «العودة» التي تنشدها اللغة الفصحى؛ فمن الجدير أن نجري استقراء سريعا لنشوء العاميات. إن نشوء العامية يدل على «التفرع»؛ إذاً، فإن الفصحى التي خرجت منها العامية تدل على «التأصل». فلا يمكن للتفرّع إلا أن ينتشر في فضاء «الحاضر والحضور» كجسر إلى «المستقبل». ولا يمكن للتأصل إلا أن يتضمن (يحافظ) على عملية معكوسة، فهو «جسر إلى الماضي». وإذا كان الواقع الحضاري للأمة العربية يسير، بطبيعة الحال، نحو «التفرّع» كغيرهم من الأمم؛ فإن الخبر المؤسف عندي أن حظ اللغة العربية، في أن تصبح لغة عالمية يوما، ضعيف جدا. فنحن نرى حتى بعض الحضارات المتقدمة حاليا لم تستطع اللغة اللاتينية مثلا أن تواكبها وتشهد نموها إلى هذا الحد، وإذا أخذنا اللاتينية كمثال، نرى أنها خرجت منها عدة لغات مثل الفرنسية التي لم تصبح عالمية، لكنها اقتربت كثيرا. أما الإنجليزية، فإن ظروفها برأيي تختلف كليا عن ظروف العربية. وبلغة دقيقة أقول: لم تصل الإنجليزية إلى المستوى العالمي إلا بعد أن تغلب فيها الخطاب العلمي على «العمق المثالي»، وتغلب فيها العامي على الرسمي بشكل موازٍ ولذلك استطاعت أن تظل قريبة من الفرد والمجتمع والثقافة اليومية. أما لغتنا العربية، فما زالت تحكي نفسها.

إن الإنسان العربي الآن لا يتحدث اللغة العربية بشكل مباشر، ولكن من خلال «مؤسسة»، قد تكون هذه المؤسسة أكاديمية، أو إعلامية، أو حكومية، المهم أنها لم تعد (وقلما كانت) لغة الفرد والمجتمع. إنه لمن الصعب أن أتصور يوما يتحدث فيه الناس باللغة العربية الفصحى في الشوارع والمنازل. لأن هذا «اليوم» لا يمكن إلا أن يكون ضيفاً وافداً من

الماضي، وفي مقولة «الماضي» هذه تتدرج عدة مفاهيم، أولها «الوحدة العربية»، ثانيها «توحيد الله تعالى»، وثالثها، توحيد «السلطة الأدبية» من خلال فصل رقبة الأديب عن جسد المجتمع الذي لا يمكن إلا أن يكون عاميا. أما الوحدة العربية، فهي قابلة للتحقيق على المستوى الاقتصادي، أما على المستوى الثقافي، فلا بد لنا من التمييز بين «الثقافة العربية الفصيحة» و«الثقافات العربية العامية»، أي حين نقول «الثقافة العربية» بالمطلق، لا يصح كلامنا إلا بالمعنى المجازي، فالواقع يقول إن هناك «ثقافات عربية» وليس ثقافة واحدة.

(لو تتبعنا نزعة التوحيد إلى حدودها القصوى في أعماق الماضي اللغوي العربي، سنجد أنها، على سبيل المثال، كانت تظهر واضحة حتى في بُنية الكلمة، ومن جملة ذلك الألفاظ التي «تقع على الشيء وضده في المعنى»[٣]. فما هذا إلا توحيد، ليس بين معنيين فحسب، بل بين «الأضداد» أيضا، وطبعا هناك العديد من المؤلفين تحدثوا عن هذه المسألة[٤]، لكني لا أسوقها الآن من أجل تحليل دقيق لبنية اللغة العربية، وإنما مجرد إشارة سريعة إلى ما يصب في هذا الموضوع).

إن اللغات التي أصبحت عالمية حققت ذلك من خلال الاكتشافات والاختراعات العلمية التي أصبحت جزءا من الفرد والمجتمع والحاضر؛ إنها في كل مكان؛ في المنازل والشوارع والمؤسسات. أما لغتنا العربية، فهي موجودة في القواميس والمنابر الإعلامية والمناسبات الدينية (ورفوف المكتبة)، فلا يمكنها، إذاً، إلا أن تكون لغة مناسبات. وهذه الحالة لا تؤهلها لمواكبة النمو الاجتماعي، ولا حتى تفاصيل الثقافة الدقيقة لهذا أو ذاك المجتمع، إنما تلتقط مختصرات عامة وملخصات وخلاصات هذه الثقافات لا أكثر. إذاً، فهي لغة الإجمال ولم تعد لغةً للتفصيل حين تتحدث عن الإنسان العربي المعاصر.

وإذا كان لنا أن نتعمق في الموضوع قليلا، فإن الإحساس الوحدوي لدى الإنسان العربي ليس إحساسا يوميا، ولا مقبولا تفصيليا، وإنما هو إحساس بالواجب الذي لا وجود له إلا في ثقافة التأجيل؛ فهو مرتبط بالدين؛ وما الانفصال، في اللاشعور العربي، إلا «خطيئة» تتحدر من سلالة الخطيئة الأولى، وهي خطيئة آدم وحواء. فلا نتوقع من العربي أن يصرح بأنه ضد الوحدة العربية، ولا نتوقع من المسلم أن يصرح بأنه ضد الوحدة الإسلامية، حتى وإن كانت جميع أفعاله ضد هذه الوحدة بالذات. وعلى غرار ذلك، يندر أن تجد عربيا يفضل العامية على الفصحى بالقول، ولكنه لا يملك إلا أن يكرس العامية على حساب الفصحى بالفعل، تماما كما يعيش «الشهادة» في الدنيا، وينشد «الغيب» في الآخرة.

بيد أنه، بقليل من التأمل، يظهر لنا أن السؤال المطروح، في مستهل هذه الورقة، يستمد معناه الكامل من بعده الأفقي فحسب، لكن بالنظر إلى بعده العمودي، فإن النسخة المتواضعة منه يمكن أن تأتي على هذا النحو: لماذا لا تكون هذه اللغة عربية؟ بمعنى بسط سيادتها على مختلف الأقطار العربية، من قاع الشارع إلى قمة الشاعر كما أشرنا سابقا. يجيبنا جان جاك روسو قائلا: «إن الأمة بقدر ما تقرأ وتتعلم تذوب لهجاتها، فلا تبقى في الأخير إلا في شكل رطانة لدى الجمهور الذي يقرأ قليلا ولا يكتب أصلا»[٥]؛ وبناءً على هذا الجواب، نفترض أن العزوف عن القراءة هو

المغذي الرئيس لنمو العاميّات التي تقضم اللغة من أطرافها يوما بعد يوم، حتى أصبحنا أخيرا نشاهد مسلسلات مدبْلجة باللهجات العامية وغير ذلك. ولكن ما الذي يُغذّي العزوف عن القراءة نفسه؟

ربما هناك من يعد هذا السؤال رهيباً وصعبا ومعقداً، وقد يكون على جانب كبير من الصواب، ولكن، مع ذلك، فليس أمام الإنسان الواقعي والموضوعي إلا أن يعيد صياغة هذا السؤال على النحو الآتي: هل هناك ما يستحق القراءة؟

عموما - وإذا ما استثنينا المجلات المحترمة، وبخاصة بعض المجلات الخليجية ذات العيار الثقيل - يمكن القول إن دور النشر العربية قد أفلست، كمؤسسات ثقافية، وتحوّلت إلى تجارة محضة، ما زاد في انتشار الرداءة، الأمر الخطير الذي لا يقابله سوى العزوف الأخطر عن القراءة. لقد أصبح في إمكان دار النشر أن تطبع وتنشر أي شيء، بشرط أن يدفع صاحبه ثمن الطبع، وهذا في الواقع لا يهدد اللغة والثقافة والأدب العربي فحسب، بل يهدد هوية الأمة بالانقراض من خلال الغرق الكارثي في طوفان الرداءة. ينبغي ألا تغيب عنا هذه الحقيقة، فحين نرى إعلانا عن صدور كتاب عربي في هذا الزمان، كثيرا ما نشعر وكأننا قرأناه مرارا وتكرارا، وأنه لا داعي لقراءته مجدداً! وللأسف، يكاد يسود هذا الإحساس.

إن صدور الكتاب، في زمننا العربي هذا، أصبح يدل أولا على أن صاحبه ميسورا، لأنه ببساطة استطاع أن يدفع ثمن الطبع. ولكن، مع ذلك، ليت معظمنا يملك وعيا موضوعيا بحيث لا يصدر أحكاما جاهزة بهذا التعميم المخيف.

ورغم كل قوى الرداءة والنشر التجاري، ما نزال نعتقد بأن هناك عباقرة في هذه الأمة قادرون على إنجاز أصعب ما يمكن إنجازه في سبيل النهوض بهذه اللغة وغيرها، لكن المشكلة أن اكتشافهم صعب، ليس صعبا علينا كقراء ومهتمين وباحثين فحسب، بل يصعب عليهم أن يظهروا أيضا. وبخاصة ونحن في زمن لا يستطيع أحد أن ينشر فيه كتابا إلا إذا كان من عائلة ميسورة، فمَن يضمن لنا بأن جميع العقول الكبيرة تنتمي إلى عائلات ميسورة؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ مَن يضمن لنا بأن جميع الباحثين الميسورين يستحقون أن تعرض كتبهم على رفوف المكتبات؟ هنا أتذكر ما قاله أحد وزراء الثقافة المغربية ذات يوم: «يمكن أن يكون هناك عباقرة رعاة في الجبال»، وأنا بدوري أضيف: «يمكن أن يكون هناك عباقرة عراة يفترشون الرمال». ومن المؤكد أن عبقرية البشر لا تجدي نفعا خلف قطيع من البقر.

---

(١) زكريا أوزون: جناية سيبويه، الرفض التام لما في النحو من أوهام، الطبعة الأولى، تموز ٢٠٠٢م.

(٢) سعيد بوديبون: زكريا أوزون والنحو العربي، مخطوط منشور رقميا على شبكة الأنترنت.

(٣) أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي: الأضداد في كلام العرب، تحقيق: د.عزة حسن، الطبعة الأولى ١٩٦٣م ط ثانية ١٩٩٦م.

(٤) أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي: المرجع السابق - مقدمة، وانظر: فقه اللغة للصاحبي ٦٦؛ وأضداد أبي حاتم السجستاني.

(٥) جان جاك روسو: محاولة في أصل اللغات، ترجمة: محمد محجوب، تقديم: عبد السلام المسدي، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ص٤٧.



اللغة العربية في عصر العولمة

بين إقصاء الأبناء وجحود العلماء

■ أ.د. محمد صالح الشنطي - الأردن

لن أبدأ كما هو معتاد بتعريف العولمة باعتبارها المصطلح الرئيس في هذه المقالة، ولكنني سأشير إلى ظاهرة ذاعت ثم غلبت وابتلينا بها بوصفها علامة على ما حلّ باللغة العربية من إقصاء؛ إذ استبدلت بها اللغة الإنجليزية في التواصل وفي التحصيل؛ الأمر الذي جعل المسألة في غاية الخطورة؛ ولعل ما يثير الاهتمام أن ثمة مَن تكتب له بالعربية، فيرد عليك باللغة الإنجليزية.

وإذا كنا في عالم تلاشت فيه الحدود والقيود، وانفتح على مصراعيه في ظل ما عرف بالعولمة، بحيث بدت الثقافات وقد انصهرت في ثقافة واحدة وفقدت خصوصيتها؛ فإن ما لا ينبغي أن يُنسى أن التعددية أهم سمات الوجود الإنسانية، في مقابل الوحدانية للواحد الأحد الفرد الصمد؛ ولذلك جاء قول الله تعالى مخاطبا البشر بصيغة الجمع ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

ومن المعروف، أن اللغة مادة الفكر، وأننا نفكر باللغة ومن خلالها؛ ولهذا فإن لغتنا تحمل سمات تفكيرنا. ومعجزة الإسلام معجزة قولية، لذا، كانت لغة الأمة العربية لغة القرآن الكريم، وكانت تحديا للعرب؛ لأنها حملت ملامح روحية وثروة تعبيرية إلهية لا يستطيع العرب أن يأتوا بمثلها؛ فهي في أنساقها وصياغاتها تحمل ملامح هذا الإعجاز التعبيري الذي ينطوي على الرسالة الإلهية؛ ولذلك، فإن اللغات التي قاربت المعاني القرآنية بمحاولة نقلها إليها لم تجرؤ على تسمية تلك المحاولات بترجمة القرآن الكريم، بل عمدت إلى القول بأنها ترجمة لمعانيه، والمعاني جزء من المخزون الروحي والدلالي الذي يزخر به كتاب الله العزيز.

والعولمة أساسا منشؤها اقتصادي؛ إذ تمكنت الشركات المتعددة الجنسيات من

احتكار التجارة العالمية، واستثمار الأيدي العاملة الرخيصة؛ فضلا عن المواد الخام المتوافرة في بلدان العالم الثالث؛ فانتشرت تلك الشركات على مساحة الكرة الأرضية، وجعلت من العالم قرية صغيرة، وفرضت أنماطا من السلوك الاستهلاكي الذي يخدم مصالحها ويُسخِّر شعوب هذا العالم لخدمتها. ومعروف أن من يهيمن على وسائل الإنتاج تكون السيادة له، فهو الذي يتحكم بنمط العلاقات في الاقتصاد. وكان من نتيجة ثورة الاتصالات أن ساعدت على هذه الهيمنة، وأوجدت شكلا اقتصاديا جديدا، هو اقتصاد المعرفة؛ الأمر الذي مكّنها من بسط نفوذ ثقافتها على العالم، فصادرت الهويات الوطنية لصالح هويتها الثقافية، ومن ثَمّ فرضت هيمنتها اللغوية. ولكن الشعوب العريقة التي تملك رصيدا ثقافيا هائلا مثل الأمة العربية، لا يمكن أن ترضخ لهذه الهيمنة العاتية، وبخاصة أن لغتها هي لغة القرآن الكريم ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾، وراح فريق من أبناء العربية يتنكّرون للغتهم فكانوا يمثلون تحديا إضافيا.

وفي زمن العولمة، عمد الغرب إلى فرض لغاتهم وبخاصة اللغة الإنجليزية، بكل ما تحمله من سمات ثقافتهم وأسلوب معاشهم وطرائق سلوكهم، لكي يعيدوا صياغة ثقافة الشعوب على هواهم وجرِّها إلى مربعات مصالحهم. ومعروف أن الأمم الغالبة تفرض لغاتها على الأمم المغلوبة على نحو ما أوضح ذلك ابن خلدون في مقدمته، ورأينا كيف أن فرنسا استطاعت أن تسيطر على الجزائر ما يقرب من مئة وثلاثين سنة، وفرضت لغتها، ومن خلال هذه اللغة تسللت بثقافتها وأسلوب حياتها إلى عمق المجتمع الجزائري، ولم يستطع الجزائريون أن يهزموا فرنسا ويخلّصوا بلادهم من نير الاستعمار الفرنسي إلا بعد أن أشرعوا في وجهها سيف المقاومة الثقافية من خلال رابطة العلماء.

وقد كان من أهم الأسلحة التي استخدمها الفرنسيون ضد الجزائر لإحباط مقاومتهم سلاح اللغة، إذ عملت على محو اللغة العربية ومنع تعليمها باعتبارها لغة أجنبية، وروّجوا للهجات العامية، ودعوا إلى ضرورة المحافظة على اللغة الأمازيغية زاعمين أن الأمازيغ من أصل أوروبي، وطمس الثقافة العربية الإسلامية، وكان لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بزعامة الشيخ عبدالحميد بن باديس عام ١٩٣١م الأثر الأكبر في مواجهة الاستعمار الفرنسي، وقد عمل على تأكيد الهوية العربية الإسلامية عبر تعليم اللغة العربية.

من هنا، عُدّت الكتابة الأدبية بغير العربية لونا من ألوان السجن؛ لذا، قال مالك حداد قولته المشهورة «إن اللغة الفرنسية أشبه بالسجن»، وقد اعتبرت الروايات التي كتبها بعض الجزائريين بالفرنسية مثل محمد ديب تعبيرا عن أزمة، بسبب اضطرابه في التعبير عن المجتمع الجزائري واضطراره إلى ترجمة كلام الفلاحين والتعبير عنهم بلغة مثيرة للسخرية، فقد كتب رواية (الحريق) بلغة لا

يستطيع الفرنسي ولا الجزائري فهمها كما ينبغي، فهو كالغراب الذي ضيّع مشيته؛ لذا، ظهر ما يسمى باللغة الرابعة التي استخدمها الروائي الجزائري كاتب ياسين صاحب رواية (النجمة)، ملخص هذه اللغة الرابعة الطرفة التي تروي أن شرطيا قال لصاحب سيارة «أعطني رخصة السيارة فلم يفهم، فقال له أطني (البيرمي) فقال الرجل هكذا نفهمك، تكلم يا خويا بالعربية»، فهذا لون من ألوان الضياع اللغوي نجده عند محمد ديب، المتماسة مع العربية وتراثها الشعبي الفصيح، وكذلك الشعور بالغربة عند مالك حداد وكذلك عند كاتب ياسين[1].

وهذه قضية مهمة، وبخاصة في ظل الفكر العولمي السائد؛ وإذا كان ثمة مَن يقلل من أهميتها باتخاذ موقف وسطي (بين، بين)، على النحو الذي فعله الكاتب الناقد المغربي أحمد المديني في حوار أجرته معه الدستور الثقافي الأردنية، حول الأدباء المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية باعتبار هذا الأدب تراثا إنسانيا معترفا به، وإن اعترف أن هذا الأدب يتحرك في مدار «اللغة والثقافة الفرنسيتين»، وأن الأدب المعترف به حقا هو المكتوب بالعربية، ولكن ثمة ما يشبه الإجماع على أن «اللغة جذر انتماء في مكونات الهوية القومية والثقافية، وأن أدب كل لغة يحمل روحية من روحيتها، كما يحمل خصائصها الأسلوبية والتعبيرية، وحاملة لثقافة الأمة الناطقة بها وتاريخها ورؤيتها للوجود والحياة»[2].

وثمة مَن يرى أن هناك تراثا ثريا كتبه كتّاب بالفرنسية، مثل الذين ذكرناهم سابقا، إضافة إلى رشيد بوجدرة، ومراد بوربون، وأندريه شديد، ورشيد ميموني، وآسيا جبار، وأمين معلوف، وأن عزله عن عربية كتابه يجعل من البنية القومية العربية بنية تكوينية وزاهية، وأن المهم هو مضامين هذه الكتابات، وليس لغتها، ويتبنى هذا الرأي الناقد المصري محمود قاسم في كتابه «الأدب العربي المكتوب بالفرنسية»[3].

ويُصِرُّ محمود قاسم على أن الأدب المكتوب بالفرنسية أدب عربي، على الرغم من أنه يعترف أن الفرنسيين شجعوا هذه الظاهرة لاعتقادهم أن اللغة باعتبارها المنطوق الأساس للبشر يمكن أن تزيد من انتماء المتحدث بها إلى ثقافة هذه الدولة[1].

والحقيقة، أنه لا مراء في ارتباط اللغة بتراثها وهوية الناطقين بها، ولكن ثمة تحديات تفرضها طبيعة العصر الذي نعيش، على نحو ما رأينا من تحدّيات فرضها الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي؛ الأمر، الذي دفع بكثير من الأدباء إلى اصطناع الفرنسية لغة للكتابة؛ فالعولمة بما أسفرت عنه من تحكّم في الاقتصاد العالمي، وهيمنة على مقدرات الشعوب، وسيطرة على إنتاج المعرفة، وإمساك بزمام التقدم التكنولوجي، كل ذلك جعل اللغة الإنجليزية وسيلة التواصل العلمي والحضاري، ما أوقعنا في شرَك الاستبداد اللغوي لها وإيلائها الاهتمام الأكبر على حساب لغتنا؛ بل

رأينا أن هناك من يُعلي من شأنها في مختلف المجالات، وليس في ميدان العلم فحسب؛ فإذا دخلت قاعة المحاضرات وجدت خليطاً عجيباً من الكتابة بالإنجليزية تارة.. والعربية تارة أخرى؛ وإذا دخلت الأسواق وجدت اللافتات المعلقة على واجهات المحلات مكتوبة بغير العربية، تحمل أسماء العلامات التجارية باللغة الإنجليزية؛ وإذا دار حوار بين اثنين من المثقفين.. تسمع إلى خليط من الرطانة الأجنبية!

وقد ساد وهمٌ مفاده أن اللغة الإنجليزية لغة عالمية يتفاهم عبرها الناس في مختلف أنحاء العالم، فإذا دخلت إلى فندق في أي بلد عربي عليك أن تتحدث بالإنجليزية، وقد استمرأنا هذه اللعبة، ورحنا نستعرض معرفتنا بها، فكرّسنا وجودها لغة للتواصل وأهملنا لغتنا؛ بل ذهبنا إلى أبعد من ذلك حين رضخنا للتحريف الهائل في لغتنا وما ألحقته العمالة الأجنبية من تشوهات بنيوية في التراكيب اللغوية، فجاريناهم في لكنتهم ورطانتهم، فأصبح ذلك هو الأصل في التعاطي مع اللغة في التداول اليومي لشؤون الحياة مع هؤلاء، ولم نُعْنَ بتصحيح كلامهم، بل انسقنا إلى عُجمتهم!

يشير الدكتور أحمد الضبيب إلى أن ما هو شائع عن اللغة الإنجليزية من أنها لغة عالمية ادّعاء ليس له نصيب من الصحة، مستشهداً بما ورد في كتاب صموئيل هنتنجتون (صدام الحضارات)، إذ يشير إلى أن عدد الذين يتحدثون باللغة الإنجليزية بوصفها لغة أولى كان لا يتجاوز سبعاً وستة أعشار بالمئة، متدنياً عما كان عليه الحال عام ١٩٥٨م، مستنتجاً أن «لغة أجنبية لدى اثنين وتسعين بالمئة من سكان الأرض لا يمكن أن تكون لغة عالمية؛ فهي لغة اتصال بين الثقافات، وليس لغة عالمية»[4].

ومهما يكن من أمر، فإن مثل هذا التحدي قد واجه العرب حينما اتصلوا بالحضارات الأخرى عبر الفتوحات، فلم ينغلقوا على أنفسهم، وواجهوا هذا التحدي الحضاري بحركة ترجمة نشطة إلى اللغة العربية، ولم يفعلوا كما نفعل الآن بهجرة لغتنا إلى خريطة لغوية جديدة، بل أفرغنا تضاريس الخرائط اللغوية الأخرى في لغتنا التي أصبحت أكثر ثراء؛ بل أجبر العلماء والفلاسفة والأدباء على إتقان لغتنا والإبداع فيها، وقد حدث مثل هذا في بدايات عصر النهضة، حين وجدنا عدداً من الشعراء الذين ينتمون إلى أصول غير عربية يبدعون بالعربية مثل محمود سامي البارودي وأحمد شوقي.

ثمة تحديات كثيرة عرض لها كثير من الباحثين في هذا الاتجاه غير العمالة والتحدي التكنولوجي والاقتصادي؛ فالازدواجية اللغوية بين العامية والفصحى، والخلل في الميزان التعليمي والتربوي الذي فرضه بعض الذين تلقّوا تعليمهم في الخارج، فحاولوا أن يُطبّقوا المناهج الغربية حتى في مجال تعليم اللغة، وعملوا على تكريس تعليم الإنجليزية في مرحلة مبكرة؛ الأمر الذي أثّر على مستوى استيعاب

الطلاب للغتهم العربية، ولعل تجربة الدكتور عبدالله الدنان التي طبقها في مدارسه تثبت صحة ذلك؛ فقد ثبت أن استنهاض السليقة والفطرة في تعلم اللغة العربية منذ المراحل الأولى في التعليم، إذ يتم تدريب المعلمين على النطق بالعربية الفصحى، والحديث مع الأطفال في الروضة بها، الأمر الذي أدى إلى إتقانهم لها دون تعليم قواعدها؛ بل إنهم كانوا يصححون أخطاء معلميهم بعد حين، فالمهم أن تتحول اللغة إلى لغة حياة في الدرجة الأولى.

وقد ثبت عبر التاريخ أن اللغة العربية قادرة على الصمود أمام التحديات إذا لم يُقصِها أبناؤها، ولم يتنكّر لها أهلها. ولعلنا نتذكر تلك الحقبة المريرة التي مرت بها اللغة العربية، حين تصاعدت نبرة التتريك بعد أن هيمنت جمعية الاتحاد والترقّي على الدولة العثمانية وتصاعدت النزعة الطورانية التي أسفرت عن قيود بالغة كبّلت بها اللغة العربية، واستبدلت الحروف اللاتينية بالحروف العربية في كتابة اللغة التركية، وشنّت السلطات التركية آنذاك حملة شرسة على كل ما هو عربي، وبخاصة في ظل بروز التوجه العربي بوصفه رد فعل للتوجه الطوراني، وعلق مدحت باشا السفاح رجالات العرب على أعواد المشانق. وعلى الرغم من ذلك، ظلت العربية شامخة في وجه التحديات السافرة، وقد كانت صحيفة الوقائع المصرية الرسمية تحرّر بالتركية ثم تترجم إلى عربية ركيكة، ولكن رفاعة رافع الطهطاوي قلب الآية فأصبحت العربية هي اللغة الأولى التي تكتب بها الصحيفة ثم تترجم إلى التركية، ولم تفلح حركة العلمنة التركية في تغريب العرب عن لغتهم أو في إقصائهم عنها.

وفي مرحلة تالية حين تعالت الدعوات إلى استخدام العامية بدلا من الفصحى، ووصل الشطط ببعضهم.. وبخاصة وزير الري البريطاني، إلى حد استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي تحت دعاوى مختلفة، ففشل نتيجة لانحياز العرب إلى لغتهم، على الرغم من ولوع بعض المثقفين من المستغربين في هذا المستنقع؛ إذ تنادى بعض أصحاب الهوى إلى التأليف بالعامية؛ الأمر الذي أثار حفيظة العروبيين فقاوموه بكل ما أوتوا من قوة. ولعل من أبرز الشواهد على ذلك، ما فعله لويس عوض حين ألف كتابا كاملا بالعامية تحت عنوان (مذكرات طالب بعثة)، وديوانا شعريا هو (بلوتلاند)، وقد تنامت هذه الحركة في الستينيات، عصر ازدهار المسرح في مصر، إذ كان مشاهير الكتّاب يؤلفون للمسرح بالعامية، مثل: نعمان عاشور، وعلي سالم، ولطفي الخولي، ونجيب سرور وغيرهم؛ وإلى جانبهم مَن تمسك بالفصحى مثل توفيق الحكيم في مسرحه الذهني والاجتماعي، وهو الذي دعا إلى استعمال اللغة الثالثة في بيان أصدره في مقدمة مسرحيته (الصفقة) التي يستخدم المتحاورون فيها لغة إن ضبطت بالحركات بدت فصيحة، وإذا سكنت أواخرها تصبح عامية، وكان هناك مسرح الجيب الذي كان يشرف عليه الدكتور رشاد رشدي، وكانت تعرض عليه مسرحيات أجنبية تمثل الاتجاهات

الحديثة في المسرح، وكلها كانت مترجمة إلى الفصحى. ونتيجة للمواجهة العنيفة بين أنصار العامية والفصحى كان منح جائزة الدولة التقديرية لتوفيق الحكيم عام ١٩٦٦م، انتصارا حاسما للمتمسكين بلغتهم، في حين اندحر دعاة العامية وخسروا المعركة، وأذكر في ذلك الوقت أن محمود تيمور أعاد كتابة حوارات أعماله السردية بالفصحى، وتم الاحتفال بانتصار الفصحى في حفل مهيب تحدث فيه محمود تيمور مستدعيا إلى الأذهان سوق عكاظ.

ومن مظاهر إقصاء اللغة العربية، الاهتمام المفرط بما يسمى بالمدارس العالمية التي أصبحت مظهرا من مظاهر الرقيّ الاجتماعي، إذ يتفاخر الناس بإدخال أبنائهم إلى هذه المدارس ليحوزوا على مكانة اجتماعية متقدمة، زاعمين أنهم حريصون على ضمان مستقبل أبنائهم من خلال إتقانهم للإنجليزية، وفي هذه المدارس تصبح اللغة العربية هامشية تحتل مرتبة متأخرة، حتى إن أصحابها لا يهتمون باختيار مدرسيّ اللغة العربية وفق معايير الجودة المطلوبة، فيتخرج الأبناء وهم يعانون ضعفا ملحوظا في مستوى إتقانهم للغة العربية، وفي الوقت ذاته لا يتقنون الإنجليزية.

ولعل من أبرز مظاهر الإقصاء، الإصرار على تعليم التخصصات العلمية في الجامعات باللغة الإنجليزية، حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى العزوف عن الجامعات التي تدرس هذه العلوم باللغة العربية، في حين أثبتت التجربة أن تعلم العلوم باللغة الأم أيسر وأجدى. وقد أجريت تجارب في الفلبين وفي غيرها ثبت من خلالها أن التعلم باللغة الوطنية يعطي نتائج مبهرة، في حين يزداد الأمر صعوبة إذا كان التعليم بلغة أجنبية، وقد دلت نتائج بعض الدراسات التي قام بها أساتذة مارسوا تعليم العلوم باللغة العربية على أن ثمة توفيرا في الوقت ملحوظا ينجم عن استعمال العربية في هذا المجال؛ ففي دراسة استطلاعية نهض بها الدكتور زهير السباعي، فأجراها على طلبة الملك عبدالعزيز، أجاب أغلب المشاركين في الاستطلاع بأنهم يوفرون ٣٠٪ من وقتهم حين يدرسون باللغة العربية.

وإذا كانت اللغة صانعة الثقافة، فإن أخطر ما تواجهه ثقافتنا تلك الحرب الشعواء التي تتبدى في آفاق العولمة ضد الثقافة العربية الإسلامية، ومن ثمَّ فإنها تنال من لغتها وتقتحم عليها خصوصيتها. فنحن أمام مشهد ثقافي متحاز، ولعل من أصدق الشواهد على ذلك كتاب نهاية التاريخ لفوكو ياما الذي يكرس الثقافة الغربية الديمقراطية سيدة للثقافة العالمية ونهاية للتاريخ، ويعد العدو الرئيس لها الثقافة الإسلامية، بعد هزيمة الثقافة الشيوعية وانحلال الحاضنة الرئيسة لها، ممثلة في الاتحاد السوفييتي، وسقوط جدار برلين، فضلاً عما آل إليه صراع الحضارات طبقا لهنتنجتون؛ الأمر الذي أدى إلى ما يشبه الخواء الروحي، ما أدى كذلك إلى شيوع ثقافة اليأس في تجليات

سلوكية تتزيا بزي شعائريّ فلسفيّ في شكل نحل متعددة الأشكال، مثل مَن عُرفوا بأتباع شريعة معبد الشمس، الذين هيأوا أنفسهم ليوم السفر الأكبر، كما يسمونه، وانتهوا به إلى الانتحار الجماعي الذي أودى بحياة ثمانية وأربعين في الدفعة الأولى، إذ حرقوا أنفسهم عام ١٩٩٤م في سويسرا، وأربعة وسبعين في عام ١٩٩٧م في كندا؛ ثم ما لبث عبدة الشيطان أن انتشروا في مصر والأردن وغيرها من أقطار العرب، ممن انحازوا إلى تلك الثقافة، بعيدا عن ثقافتهم ولغتهم، وكان ذلك بسبب تكريس الفكر الصراعي الغربي الذي انتقل عبر الثقافة الغربية ولغتها[٧].

إنّ الشكوى من إهمال الفصحى وعدم العناية بها ليست حديثة؛ بل قديمة؛ إذ وضعت بعض الكتب القديمة، مثل كتاب ابن قتيبة الدينوري (أدب الكاتب) في القرن الثالث الهجري، وفيه يشكو الكاتب بمرارة من الجهل باللغة.. تلاه بعد ذلك كثيرون؛ منهم أبو منصور الأزهري في القرن الرابع الهجري، الذي ألّف كتاب (درة الغواص في أوهام الخواص)، من أجل تصحيح الأخطاء الشائعة بين المثقفين في عصره، وظهرت كتب عديدة بعد ذلك؛ ولكن التحديات التي كانت تواجه الأمة في تلك الحقبة لم تكن على النحو الذي نراه الآن؛ إذ، تعاظمت هذه التحديات من خلال العاميات العديدة المنتشرة، واللغات الأجنبية المنافسة للغة العربية، واستخدام الأجهزة الحديثة في التواصل، وقد ثبت علميا أن اللغة العربية من أوضح اللغات صوتا في أجهزة الحاسوب؛ ولكن التقصير يأتي من العلماء العرب الذين لم يكرّسوا جهدهم في هذا الاتجاه خدمة للغتهم.

إن لغتنا العربية التي مرت بفترات تاريخية، عانت خلالها من الإهمال المتعمد بسبب سيطرة الحكام غير العرب على مُقدّرات الأمة في عصر الدول المتتابعة، ثم واجهت حربا شعواء من الذين حاولوا أن يصادروا هويتها إبّان سيطرة القوميين الطورانيين في أواخر العهد العثماني، وتصدت لأصحاب المشاريع الانفصالية المشبوهة من دعاة الفينيقية والفرعونية، ومن دعاة العامية.

---

(١) بقورة محمد الصديق، عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، أنهار، ٢٠٠٨م.

(٢) هشام عودة، من حوار أجراه مع الدكتور أحمد المديني، جريدة الدستور الأردنية، الملحق الثقافي ١٧/٧/٢٠٠٩م.

(٣) المصدر السابق.

كايد هاشم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية قضية لغة أو مضمون، جريدة الدستور، الملحق الثقافي، الجمعة ٢٤/٧/٢٠٠٩م.

(٤) محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية، وزارة الثقافة، مصر، ٢٠١٠م.

(٥) د. أحمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٢هـ. ص١٥.

هنتنجتون، صدام الحضارات (بالإنجليزية) نيويورك ١٩٩٧م ص٥٩.

(٦) الضبيب (مرجع سابق) ص٤٣

(٧) فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام، ١٩٩٣م.



اللغة العربية بين الأخطاء الشائعة وظاهرة الهجين الأسباب والحلول

■ د. عبدالناصر هلال - جامعة الملك عبدالعزيز

اللغةُ حياة وهي وعاء الفكر، فلا فكر من دون لغة، ولا لغة من دون معنى؛ وهي تراثُ كل أمةٍ والمشكِّلة لحضارتها، هي الهوية الممتدة في باطن التاريخ. واللغة العربية يسيرة طيِّعة، لا عُسْرَ فيها إلا على مَن تعنَّت، والأجيال المعاصرة تملكها كما كان القدماءُ يملكونها. بذل العلماء الأولون جهدا كبيرا في ضبطها ووضع قواعدها، واستنباط القياس فيها؛ فانتشرت المدارس وتعددت المذاهب؛ حتى أصبح اللحن أو الخطأ في اللغة نُطقا وكتابة أمرا خطيرا تهتز له وتنفر منه العامة، ويحاربه المتخصصون، فكانت ساحة القياس هي المهيمنة، لا مجال للخروج عليه؛ فاللحن أو الخطأ في اللغة كان جرما يهرب منه الناس، أما الآن فقد أصبح الخطأ في اللغة لا يكترث له العامة، ولا ينشغل به المتخصص؛ فالغيرة على اللغة تهشمت وتلاشت، ولم تعد كما كانت من قبل!

أصبح الإنسان محاطا بضجيج من الأخطاء اللغوية؛ ففي كل يوم، بل في كل ساعة، يرى ويسمع ويشاهد في وسائل الإعلام وفي الصحف وفي المتاجر والشوارع والإعلانات، وفي المدارس الخطأ تلو الآخر، نُطقا وكتابة في المذياع والتلفاز وفي غيرهما من وسائل الإعلام والإعلان، ولا تُحَرِّكُ ساكنا!

أصبحنا نعيش ونتحاور مع مَن ينصب الفاعلَ ويرفعُ المفعولَ به والحال، ولا يعرف إعراب الصفة والمضاف إليه والأسماء الخمسة، وماذا تفعل حروف الجر وعلام تدخُل. ولا يفرِّق بين همزة الوصْل وهمزة القطع، ولا بين (أل) الشمسية و(أل) القمرية، ولا يعرف قواعد الهمزات ولا التنوين، ويُخطئ في الحركات فيتغيَّر المعنى.

بدأت إرهاصات هذه الظاهرة قديما، وتنبه علماء اللغة لخطورتها، فتصدوا لها لما فيها من جرم على اللغة وعلى المعنى، فيروى عن العالم النحوي أبي الأسود الدؤلي أنه سمع ابنته تقول: (ما أجملُ السماءُ)،

فقال لها (نجومها)، فقالت: لا أسأل، ولكني أتعجب. فقال لها: قولي: (ما أجملَ السماءَ) (بالفتح). وفي أيام الدولة العباسية يُروى عن الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه ثار على رجُل كان جالسا يتلو قول الله تعالى: ﴿وأذانٌ منَ الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أنّ اللهَ بريءٌ من المشركين ورسولُه﴾ نطقها الرجُل «ورسولِه» بكسر اللام وليس بضمها كما نزلت على الرسول (صلّى الله عليه وسلّم)، فالمعنى يتغير بتغير حركة واحدة على حرف واحد.. فما كان من الخليل إلا أن ثار على الرجل قائلاً: ماذا تقولُ يارجُل؟! قُلْ «ورسولُه» بضم اللام، فبرَّرَ الرجلُ خطأه بأنَّ المصحف في ذلك الوقت لم يكنْ به أية وسيلة تقيد القارئ بالنطق السليم؛ ومن هنا كان اهتمام الخلفاء الراشدين بالغاً بضبط اللغة ووضع قواعدها، كما يروى من قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي الأسود الدؤلي: انحُ ما نحوت.

ثم تواصلت جهود علماء اللغة في ضبط القواعد والمخارج والحركات:(الفتحة والكسرة والضمة والسكون)، وذكر (ابن جنّي) في الخصائص أنّ رجُلا لحَن عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: (أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل). وقد كان (ابنُ عمر) (رضي الله عنهما) يضرب ابنه على اللحن في الكلام.

وفي نهايات القرن التاسع عشر تعرضت اللغة العربية للتآمر على قانونها وقواعدها وأصولها، وتسهيلها في الاستخدام، فظهرت دعوة إحلال اللغة اللاتينية محل الخط العربي، ومع مطلع القرن العشرين الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى، وقد تبنّى هذه الدعوة بعض المفكرين العرب آنذاك مثل: سلامة موسى، وبعده لويس عوض، ونفوسة إبراهيم!

ومنذ هذه الدعوات المبكرة وحتى الآن تعاني اللغة العربية من تآمر مقصود وغير مقصود، يكمن في التهاون، واللجوء إلى المهجور، والاعتماد على اللهجة في معاملاتنا اليومية.

أسباب انتشار الأخطاء الشائعة

١- الخوف من تعلّم مبادئ اللغة، والشعور بصعوبة علومها، من نحو وصرف وبلاغة، وأصبح التخصص شماعة نعلق عليها أخطاءنا، فترك الناس الاجتهاد والحفاظ على القواعد والأصول.

٢- المناهج المدرسية، وما تعانيه من غياب الرقابة الصارمة، وبخاصة على منهج اللغة العربية، إضافة إلى سياسة العلاقات الشخصية والمجاملات في اختيار المناهج. أضف إلى ذلك إخراج الكتاب وطباعته، وطريقة عرض المحتوى.

٣- ضعف خريجي أقسام اللغة العربية وآدابها، وضحالة مستواهم الفكري والعلمي، وعدم تأهيلهم تربويا وعلميا بالشكل المناسب لمتطلبات العصر.

٤- طريقة تدريس اللغة العربية في المدارس، إذ تعتمد على التلقين الذي يقضي بدوره على ملكات التفكير والمشاركة والإنتاج.

٥- طريقة تدريس النحو العربي في المدارس يدعو إلى الانصراف عنه، بل النفور منه، إذ يتبع المدرسون تقديم الموضوعات عبر الأمثلة، ثم شرح القاعدة، والقواعد جافة ومنفرة، وتفرض عزلة مع الإحساس بحيوية اللغة ومفرداتها.

٦- كثير من النخبة وأصحاب الرأي يرون أنّ اللغة مجرّد وسيلة للتّعبير كيفما اتّفق، لا داعيَ للحِرْص على نظامها وقواعدها ما دام المقصود يتحقّق بأيّ شكلٍ من أشكال التّعبير. وظهرت مسميات منها: «البلاغة العصريّة»، وسمّاها بعضهم: «اللغة الثالثة»، ما ساعد على ترك الصواب واعتناق الهجين، أو انتشار الخطأ..

٧- تعد وسائل الإعلام الحديثة، المرئية والمسموعة والمقروءة، وشبكات التواصل الاجتماعي، من أكثر العوامل تأثيرا في انتشار ظاهرة الأخطاء اللغوية بمختلف أنواعها؛ حيث تستخدم هذه الوسائل مزيجا من اللغة واللهجة، يمكن تسميته بـ(الفصحية)! توهماً أنها أكثر فاعلية وتأثيرا في فكر المتلقي وشعوره؛ ما خلق تهجين المعجم اللغوي، وتغليب الألفاظ الأجنبيّة على العربيّة، وإلغاء الإعراب تمامًا، سواءً في الإذاعة أو التليفزيون أو السينما.

علاج الظاهرة

علينا أولا أن ندرك أنّ اللحن والخطأ في اللغة أمرٌ له خطورته من الناحية الفكرية والعلمية، وأنه يقلبُ المعنى ويغيِّره إلى النقيض، فلا بد من:

- مراجعة النظام التعليمي العربي من حيث المناهج، وطباعتها، وإخراجها، وموادها، وطرق تدريسها، وإصلاحه في ظل الضوابط العلمية والتربوية الحديثة التي تحافظ على اللغة، وتصنع جيلا لغويا جديدا.
- التخلص من اللغة الهجين والعودة إلى اللغة الفصحى، عبر قواعدها وأنساقها.
- العمل بميثاق شرف إعلامي، لغوي، يبتعد عن الأخطاء الشائعة، ويلتزم بصواب اللغة، كي تُصحح وسائلُ الإعلام هذه الأخطاءَ الصارخة التي تتكرر كل يوم.

نماذج من الأخطاء الشائعة وتصويبها

١- رأيتُ بعض المغرِّدين يستنكر كلمة (جـوزيـت)، ويقول إنّ الصوابَ: (جُزيت).. قلتُ: إنّ كليهما صواب، فـ(جوزيت) من (جازَى) و(جُزيت) من (جَزَى)..

٢- من الأخطاء الشائعة جدًا في اللغة قولهم: أمر رئيسي.. والصّوابُ أن يقال: أمر رئيس. لأنّ «رئيس» صفة.. مثل «كبير» لا نقول: أمر كبيري!

٣- ممّا يقع الوهم فيه التعبير بلفظ

(الرومان) ظنًا أنها جمع رومي، وما هي بذاك. والصّوابُ أنّ جمع رومي: «روم».

٤- ممّا يقع الخطأ فيه. قولُ الناس في دعائهم: (اللهم أرنا فيهم يومًا أسودًا).. والصّوابُ أن يقالَ: (يومًا أسودَ)، فكلمة أسود غير مصروفة.

٥- من التعبيرات الخاطئة التي يستعملها الناسُ كثرة قولهم: حضر فلانٌ الاجتماع على الرغم من كونه مريضًا.. وهذا التعبير لا يصحُّ لغةً.. لأنّ (على الرغم) أو (بالرغم) تستعمل إذا فعلتَ شيئًا وهناك من يكرهه.. والتعبير الصحيح في الجملة: (حضر فلانٌ الاجتماع مع كونه مريضًا).

٦- أرسل لي صديقي رسالة ثُمّ قال: هذه فتوتان عن كذا.. يقصد تثنية كلمة (فتوى)، والصّوابُ في تثنية فتوى أن يقالَ: فتويان.

٧- أرى -والله أعلم- أنّ كلمة (نيّة) تُجمع على (نيّات) قولًا واحدًا.. ولا يجوز جمعها على (نوايا)؛ فهي لا تصح من جهة السماع ولا القياس.

٨- يخطئ الناس في ضبط هذا الحديث (... وأنت تجعل الحَزْنَ إذا شئت سهلاً) فيقولون (الحَزَن)، والصّواب تسكين الزاي ومعناها: كل أمر شاق.

٩- ممّا يشيع من الخطأ أيضًا قولهم: وضعتُ الشيء نُصب عيني؛ بفتح النون.. والصّوابُ أن يقالَ: وضعتُ الشيء نصب عيني (بالتسكين).

١٠- رأيتُ بعض المفردين يكتب (كُفئ) بهمزة على السطر، وآخرين يرسمونها (كُفُؤ).. ورأيتهم ينكرون على بعضهم، والصّوابُ أنّ كليهما صحيح.

١١- يذهبُ الناسُ إلى أنّ معنى كلمة (المأتم) هو: الاجتماع على المصيبة.. والصّوابُ أنّه ليس كذلك.. فالمأتم: النساء يجتمعن في الخير والشرّ.

١٢- هذه الأخطاء لا بدّ لـ «تويتر» أن يرتاحَ منها.. ١- «شيء» وليس «شئ». ٢ «سيئ» وليس «سيء». ٣- «اللهم صلِّ على» وليس «اللهم صلي على».

١٣- من الأخطاء الشائعة قولنا: ذُهِلْت عن الشيء؛ بضمّ الذال وكسر الهاء.. والصّوابُ أن يقالَ: ذَهَلْت عن الشيء أو ذَهِلْت عن الشيء..

١٤- نقول في دعائنا: اللهم فاقْتُلْهُ بنفسه.. والأفصحُ أن يقالَ: اللهم فاشْغَلْهُ بنفسه؛ بالهمزة الموصولة لا المقطوعة وبفتح الغين لا بكسرها.

١٥- في كثير من اللهجات يقولون: عقفت الشيء؛ بمعنى ثنيته.. ولو سَمِعَنا أعرابيٌّ لأفرط في الضحك لأنّ الصوابَ: عطفت الشيء.

١٦- من الخطأ قولك: عمل لقاء أجر، والصحيح = عمل بأجر.

١٧- من الخطأ قولك: سبق وأن قلنا، والصحيح = سبق أن قلنا.

١٨- من الخطأ قولك: خاصة وأن أكثرهم، والصحيح = خاصة أن أكثرهم (من دون واو).

١٩- من الخطأ قولك: يا أبتي، والصحيح = يا أبت.

٢٠- من الخطأ قولك: استأذنت منك، والصحيح = استأذنتك.

٢١- من الخطأ قولك: كان معهم بنادق (جمع بندقية)، والصحيح = بندقيات.

٢٢- من الخطأ قولك: لديه ثلاث أراض (جمع أرض)، والصحيح = لديه ثلاث أرضين.

٢٣- من الخطأ قولك: قدم السواح، والصحيح = قدم السياح.

٢٤- من الخطأ قولك: هو ناكر الجميل، والصحيح = هو منكر الجميل.

٢٥- من الخطأ قولك: تعرفت على أحمد، والصحيح = تعرفت أحمد.

٢٦- من الخطأ قولك: بكى من شدة التأثر، والصحيح = بكى من شدة التأثير.

٢٧- من الخطأ قولك: دق على الباب، والصحيح = دق الباب.

٢٨- من الخطأ قولك: المكان بعيد عنا، والصحيح = المكان بعيد منا.

٢٩- من الخطأ قولك: أكد على كلامه، والصحيح = أكد كلامه.

٣٠- من الخطأ قولك: يتحاشى الوقوع، والصحيح = يتحاشى من الوقوع.

٣١- من الخطأ قولك: عملنا شراكة، والصحيح = عملنا شركة.

٣٢- من الخطأ قولك: تحمم بالماء، والصحيح = استحمَّ بالماء.

٣٣- من الخطأ قولك: البروان والصحيح = الإطار.

٣٤- من الخطأ قولك: دولاب الملابس، والصحيح = خزانة الملابس.

٣٥- من الخطأ قولك: موضوعك قاصر على كذا، والصحيح = موضوعك مقصور على كذا.

٣٦- من الخطأ قولك: قال أثناء حديثه، والصحيح = قال في أثناء حديثه.

٣٧- -من الخطأ قولك: ذكر بأنك شاعر، والصحيح = ذكر أنك شاعر.

٣٨- من الخطأ قولك: حيث أن، والصحيح = حيث إن.

٣٩- من الخطأ قولك: هذا الموضوع عديم الفائدة، والصحيح = هذا الموضوع معدوم الفائدة.

٤٠- من الخطأ قولك: الماس، والصحيح = الألماس.

٤١- من الخطأ قولك: استبيان، والصحيح = استبانة.

٤٢- من الخطأ قولك: نوعيات من الصور، والصحيح = أنواع من الصور.

أن لن نتخلص من قاعدة: خطأ شائع خير من صواب مهجور، يبقى الصواب صوابا والخطأ خطأ، حتى تبقى لغتنا الفصحى لغة حيّة، متحركة، طيّعة، تفي بكل احتياجاتنا الفكرية والنفسية.

التفرقة بين الضاد و الظاء

ليس هناك قاعدة معينة، فالعرب بسليقتهم الفصحى كانوا يفرّقون بينهما عن طريق النطق من دون لحن. وإليكم الكلمات التي تكتب بحرف الظاء، وما عداها يكتب بحرف الضاد كما ذكرها الحريري في منظومته:

أيها السائل عن الضاد والظاء
لكيلا تُضِلَّهُ الألفاظُ

إنّ حِفظَ الظاءات يُغنيكَ فاسمع
ها استماعَ امرئٍ لهُ استيقاظُ

هيَ ظمياءُ والمظالمُ والإظـ
لامُ والظَّلمُ والظُّبى واللحاظُ

والعَظا والظّليمُ والظبيُ والشيْ
ظمُ والظّلُّ واللظى والشواظُ

والتّظنّي واللّفظُ والنّظمُ والتقـ
ريظُ والقيظُ والظّما واللماظُ

والحظا والنّظيرُ والظّئرُ والجا
حِظُ والنّاظرونَ والأيقاظُ

والتّشظّي والظِّلفُ والعظمُ والظّنـ
بوبُ والظّهرُ والشّظا والشِّظاظُ

والأظافيرُ والمظفَّرُ والمحـ
ظورُ والحافظونَ والإحفاظُ

والحَظيراتُ والمَظِنّةُ والظِّنـ
ـةُ والكاظِمونَ والمُغتاظُ

والوَظيفاتُ والمُواظِبُ والكِظّـ
ـةُ والانتِظارُ والإلظاظُ

ووَظيفٌ وظالِعٌ وعظيمٌ
وظهيرٌ والفَظُّ والإغلاظُ

ونَظيفٌ والظَّرْفُ والظّلَفُ الظّا
هِرُ ثُمّ الفَظيعُ والوُعّاظُ

وعُكاظٌ والظَّعْنُ والمَظُّ والحنْ
ظَلُ والقارِظانِ والأوْشاظُ

وظِرابُ الظِّرّانِ والشَّظَفُ البا
هِظُوا لجِعْظَريُّو الجَوّاظُ

والظّرابينُ والحَناظِبُ والعُنْـ
ظُبُ ثُمّ الظّيّانُ والأرْعاظُ

والشّناظِيو الدّلظُو الظّأبُو الظّبْـ
ظابُو العُنظُوانُ والجِنْعاظُ

والشّناظيرُو التّعاظُلُ والعِظْـ
لِمُ والبَظْرُ بعْدُ والإنْعاظُ

هيَ هذي سِوى النّوادِرِ فاحفَظْـ
ها لتَقْفو آثارَكَ الحُفّاظُ

واقضِ في ما صرّفْتَ منها كما تقـ
ضيهِ في أصلِهِ كقَيْظٍ وقاظوا



اللغة العربية وتحديات العصر

■ د. هويدا صالح - جامعة الطائف

■ اللغات المحكيّة هل تمثّل تهديداً للفصحى

■ النص المُقدّس وحماية اللغة العربية

دار الجدل طويلاً حول اللغة العربية، وأقيمت الفعاليات والمؤتمرات لدعوة العرب إلى الحفاظ عليها، وتعالت الأصوات بدق ناقوس الخطر والتحذير من إعلان «وفاة اللغة العربية»، وخطر العاميات واللغات المحكية في البلدان العربية المختلفة عليها.

والمتابع لهذا الملف الشائك يطرح على نفسه هذه الأسئلة: هل العرب فعلاً مهددون بضياع لغتهم رغم ارتباطها بالنص المقدس؟ هل اللغة ترتبط بالهوية الثقافية للشعوب؟ هل العاميات المحلية خطر حقيقي يهدد اللغة الفصحى؟ هل للأفكار الكولونيالية دور في إعلاء شأن العاميات المحلية على حساب الفصحى، وبعد سقوط الأفكار الكولونيالية، وظهور أفكار ما بعد الكولونيالية؟

إن اللغة في أي أمة من الأمم تمثل بنيان وحدتها القومية، ووسيلة للتجانس القومي؛ لأن استخدام لغة واحدة يؤدي إلى وحدة الرأي والشعور، وانعكاس أنماطها على نمط تفكير أصحابها، واشتمالها على تاريخ الأمة، وثقافتها، وأدبها، وتراثها الفكري. فكيف تتحقق كل هذه الأبعاد أو يحافظ عليها في ظل عمليات العولمة الثقافية واللغوية التي تتجاهل التنوعات، وتسعى جاهدة للتقريب بين الثقافات بتغليب النمط الغربي للحياة؟

ثمة بديهية لا تحتاج منا إلى جهد لإثباتها، وهي أن اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ولغة العقيدة الصحيحة، وهي

لغة فكر الأمة، وقد اختارها الله سبحانه لهذا الدين لما فيها من طابع في التعبير والبيان والمرونة والاتساع، بحيث استطاعت أن تحمل الرسالة السماوية، وتوصيلها للناس في أرجاء المعمورة: «مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسُّنّة، وهي بلغة العرب من الصّحابة والتابعين وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلا بدّ من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة»[1].

صارت العربية لغة دين وحضارة وكتب لها القبول والرواج، بحيث بدأ يتنافس في القيام على نشرها، والتأليف بها علماء ليسوا بالضرورة من أصول عربية، بل هم من أمم شتى ولغات شتى دخلوا في الإسلام، وأوقفوا حياتهم على خدمة العربية، وقد بذل علماء الأمة عبر القرون جهوداً جبارة في خدمة هذه اللغة، وتركوا من بعدهم تراثاً هائلاً، يتمثل في آلاف المؤلفات، تخدم القرآن الكريم والسُّنّة النبوية في شتى علومها وفنونها، ومنهم من كان في الأصل عجماً فعرّبه الإسلام حين عرّب لسانه.. فتكلم وكتب وصنف بلغة القرآن من أمثال الحسن البصري، وابن سيرين وعطاء وسعيد بن جبير، وأبي حنيفة والبخاري، ومسلم، وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة، وسيبويه وغيرهم من الأئمة الأعلام، وعباقرة الإسلام.

إن اللغة العربية وعاء ثقافتنا، وعنوان هويتنا، والمحافظة عليها تعدّ محافظة على الذات والوجود. وكان علماء الأمة في صدرها الأول على وعي كامل بأثر اللغة في تكوين الأمة، وخطرها في بناء شخصية المسلم؛ لذا حرصوا حرصاً شديداً على المحافظة على لغة القرآن والسُّنّة: «تكمن الثورة في الدراسات اللغوية في القرن العشرين في الإقرار بأن اللغة ليست مجرد وسيلة لتوصيل الأفكار عن العالم، بل أداة لجعل العالم موجوداً في المقام الأول، ليس الواقع ببساطة «معاشاً» أو «معكوساً» في اللغة، بل هو بالفعل محدَث بواسطة اللغة»[2].

واللغة صورة حيّة لوجود الأمة في أفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها. ودقة التعبير اللغوي دليل على قوة ملكات الأمة ومواهبها، وعمق اللغة دليل على عمق روح الأمة، وميلها إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلل. وإذا ما استعملت الأمة اللغة استعمالا قويا، فأكثرت من المشتقات، وتصرفت في المترادفات، فإن ذلك دليل حيّ على نزعة الحرية لديها وطموحها إلى الاستقلال.

وفي العصور الأولى كادت العربية أن تكون مرادفةً للإسلام؛ فقد سأل أبو جعفر المنصور –يوماً– مولىً لهشام بن عبدالملك (ت ١٢٢هـ) عن هويته؛ فقال المولى: «إن كانت العربية لساناً فقد نطقنا بها، وإن كانت ديناً فقد دخلنا فيه».

وقد فرضت اللغة العربية بشكل عملي على البلاد التي فتحها العرب، حينما وجد غير العربي نفسه مضطرا لتعلم العربية للتعبد بها أولا؛ لأنها لغة النص المقدس، ثم للتعامل مع السلطة التي تحكمه، ولنا فيما حدث في مصر مثلٌ؛ فقد قاوم المصريون – رغم دخولهم الإسلام طواعية، لأنهم وجدوا فيه دينا سمحا حقق لهم العدالة وأنقذهم من ظلم الروم

الذين كانوا يحتلون مصر في عصر دخول العرب إليها - تعلَّمَ اللغة العربية ثلاثمائة عام، وتمسّكوا بلغتهم القبطية التي كانت خليطا ما من اللغات المصرية القديمة واليونانية والرومانية، واعتبروا المحافظة على لغتهم القبطية نوعا من الحفاظ على هويتهم المصرية، لكنهم في النهاية اضطروا إلى تعلم العربية؛ لأنها كانت لغة الولاية الجديدة ولغة دواوينها.

ظلت اللغة العربية في قوة وازدهار طوال حكم الأمويين والعباسيين، ولكن بسقوط بغداد على يد التتار، وضعف الولايات العربية وتفتتها، وتعاقب حكام غير عرب على حكمها وصولا للعثمانيين، انحدر مستوى اللغة العربية، وبخاصة أن الدولة العثمانية حاولت تتريك الدواوين والتعليم، ونشر التركية على حساب العربية، وظلت اللغة العربية تعاني حتى جاء علماء وأدباء نهضوا بها في شتى المجالات، وأحيوها بعد أن أصابها الموات، ومن هؤلاء العلماء: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورفاعة الطهطاوي، ومحمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وغيرهم.

لكن ثمة خطب جديد تربّص باللغة العربية، وهو ابتلاء الوطن العربي بالمستعمرين الأوربيين الذي تقاسموا البلدان العربية فيما بينهم؛ فجاء لهذا الوطن المحتل الإنجليزي والفرنسي والإيطالي، وصارت البلدان العربية مفتتةً إلى أقطار ودويلات، وأدرك الفكر الكولونيالي الاستعماري أن القضاء على هوية العرب، وتمزيقهم، والقضاء على مقاومتهم لهذا الفكر يكمن في القضاء على لغتهم التي تمثل عصب الهوية الثقافية. فحاول أن يبعد الشعوب العربية عن لغتها العربية التي تمثل خصوصيتها الثقافية، فبدأ باتهام اللغة بالقصور والجمود، وعجزها عن مجاراة العلوم الحديثة ومسايرة ركب الحضارة. وللأسف، هناك من خدع ووقع بهذا الفخ عن جهالة أو سوء قصد، في الانتقاص من شأن العربية والقول بصعوبتها وعسر قواعدها وأنها مؤدّية إلى التخلّف.

والأمة الحريصة على لغتها الناهضة بها المتسعة فيها.. هي الأمة التي لديها نزعة المقاومة والغلبة، وأن شعبها هو سيد أمره، يحقق وجوده، وإذا أهمل شعب لغته، وتراخى في استعمالها، وترك اللغة العامية تسيطر عليها، وآثر غيرها عليها.. فهو شعب لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه. وتعددت وسائل المستعمر الأوربي لتنفيذ مخططاته؛ فوجدنا في المغرب العربي محاولات فرنسا في الجزائر مثلا إلى محو هوية الجزائر الثقافية العربية، وفرنسة التعليم لكي تصير الجزائر مجرد ولاية فرنسية، ولن ينسى التاريخ دور مصر في مساعدة الجزائر عسكريا على مقاومة المستعمر، ومساعدتها ثقافيا على مقاومة الفرنسة بإرسال المعلمين المصريين الذين أسهموا في المحافظة على اللغة العربية، ومن ثم الهوية العربية للجزائر.

والأمر كان مختلفا بالنسبة لإنجلترا في مصر، فاستعمارها لها لم يكن استعمارا ثقافيا، صحيح أنها حاولت فرض اللغة الإنجليزية والتعليم بها، لكن مقاومة الشعب المصري المحتمي بالأزهر الشريف، جعل المصريين يرفضون بشكل قاطع كل خطوات الإنجليز إلى تغييب الهوية العربية لمصر، ومن ثم تغييب

اللغة العربية. عندما عمد الإنجليز إلى الدعوة إلى لغة أخرى في مصر، بغية تعميمها على البلاد العربية المستعمرة من قبلهم، تكتب هذه اللغة بحروف لاتينية، لكن الأمر وجد مقاومة شرسة من المفكرين المصريين ضد الادّعاء الملفّق بأفضلية استعمال الحرف اللاتيني في كتابة اللغة العربية، على غرار ما حصل في كتابة اللغة التركية، إذ لا وجه لمقارنة اللغة التركية بلغة القرآن التي هي لغة تسعمائة مليون مسلم. ثم إنّ الاحتجاج بتيسير الحرف اللاتيني في قراءة النصّ العربي مناقض للحقيقة.. لعدم احتواء الحروف اللاتينية على الكثير من أصوات الحروف العربية.

ولما فشلت دعاوى كتابة اللغة بحروف لاتينية تبنّى الاستعمار دعوة أخرى لا تقل عنها خطورة على اللغة العربية، وهي الدعوة إلى استخدام العامية بديلا عن الفصحى، وحشد لها رجالة المدافعين عن الفكرة، وصارت دعاوى المستشرقين فخا جديدا يحاك من أجل النيل من اللغة العربية الفصحى.

وصارت الدعوة إلى العامية مرتبطة بالاستشراق، إذ: «أصبحت من أهداف المستشرقين الذين يريدون ضرورة معارضة اللغة الفصحى لغة القرآن، وتقدم جماعة من الغربيين ما بين مهندسين وقضاة للتأليف بالعامية، وجمع التراث المزيف حتى تنتقل الدعوة من الكلام عن اللهجة إلى ما يطلق عليه لغة عامية في هذه المناطق قبل الإسلام»[3].

إذاً، لغة الأمم المستعمرة تكون الهدف لهؤلاء المستعمرين، ليقينهم أنه لا بقاء لهم بين هذه الأمم إلا بالسيطرة على لغتها، فأضحت لغة الأمم هي الهدف الأول للمستعمرين، فلن يتحول الشعب إلا بتحوّل لغته، فمنشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، فإذا انقطع الشعب من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ لا صورة محققة في وجوده. وذلة الأمة في تركها لغتها، ومن هنا، يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة، فهو - كما يقول مصطفى صادق الرافعي - يحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد، الأول حبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا، والثاني الحكم على ماضيهم بالقتل محوا، ونسيانا، والثالث تقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره.

والغريب أننا وجدنا مَن انخدع بهذه الأفكار، وأعجب بلغة المستعمر، ومن الطبيعي أن ينحازوا إلى أهل اللغة التي أعجبتهم، وشعروا بالدونية والنقص تجاه هويتهم الثقافية التي تمثلها لغتهم العربية، بل وخجلوا من قوميتهم، وتبرؤوا من سلفهم، وانسلخوا من تاريخهم، وزُرعت في نفوسهم الكراهية للغتهم وآدابها، ولقومهم وأشياء قومهم.

واستشرت هذه الدعوات المغرضة استشراء النار في الهشيم، وصار بعضهم يردّد أن العامية هي اللغة الحيّة المشهورة بين الناس، وأن الفصحى لغة ميّتة مهجورة، وأنّ حروفها لا تكفي، ما أدى إلى غربة هؤلاء ليس عن وطنهم وقوميتهم فقط، بل عن تراثهم! فاللغة كما هي وعاء التفكير، كذلك لها قوة السحر الذي يجعل الإنسان يتماهى في وجوده الموجود بالفعل وليس بالقوة. إذاً، مَن يدعو لهجران لغته سوف

يبتعد عن وطنه وهو مقيم فيه. وقد وصل الأمر إلى أن: «ألّف أحد قضاة محكمة الاستئناف في مصر من الإنجليز، وهو (القاضي ولمور)، كتابا أسماه (لغة القاهرة)، ووضع لها فيه قواعد، واقترح اتخاذها لغة للعمل والأدب، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية»[1].

وقد قدم حافظ إبراهيم لديوانه بمقدمة تحدّث فيها عن أهمية الحفاظ على العربية، ويفضح فيها دعاة هدمها، إذ يقول: «وما أحرى أهل بلادنا أن ينشطوا من عقالهم طالبين التحرر من رقّ لغة صعبة المراس قد استنزفت أوقاتهم، وقُوى عقولهم الثمينة، وهي مع ذلك لا توليهم نفعا، بل أصبحت ثقلا يؤخرهم عن الجري في مضمار التمدّن وحاجزا يصدهم عن النجاح. ولي أمل أن أرى الجرائد العربية قد غيّرت لغتها، وبالأخص جريدة الهلال الغراء التي هي في مقدمتها، وهذا أعده أعظم خطوة نحو النجاح، وهو غاية أملي، ومنتهى رجائي»[2].

وتصدى الرافعي لهذه الحملة، وبيّن للناس جميعا في مختلف البلاد العربية والإسلامية أن: «تلك الخدعة لا ينبغي أن تنطلي عليهم، لأن الاستعمار وأذنابه يحاولون هدم اللغة العربية، وتقويض أركانها، وإحداث هوّة سحيقة بين الأمة العربية والقرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين «هو الكاتب الإسلامي العظيم مصطفى صادق الرافعي»، الذي لم يأل جهدا في بيان ما تنطوي عليه هذه الدعوة، ولم يقتصر جهده في ذلك على النثر، بل قال في ذلك شعرا»[3].

وأمّا الدعوة إلى إحلال اللهجات العامية محلّ العربية الفصيحة فهي لا تختلف عن الدعوة إلى اللغات الأجنبية في أنها لا تتوخّى سوى النيل من لغة القرآن، وتفتيت الروابط وقطع العلائق بين أقطار هذه الأمة، واجتثاث الصلة بين حاضرها وماضيها؛ فاللهجات العامية تختلف، لا من قطر لآخر فحسب، بل حتى في أجزاء القطر الواحد، وفي أرجاء المدينة الواحدة في بعض الأحيان.

اللغة العربية و تحديات عصر ما بعد الاستعمار

ولم يأت عقد الستينيات إلا وقد تخلص معظم البلاد العربية من الاستعمار، باستثناء الجزائر التي تأخر رحيل الاستعمار عنها عن بقية الدول العربية. وبرحيله انتبه العرب إلى فكرة أن اللغة العربية التي قاوموها من أجل الحفاظ عليها هي هويتهم الثقافية، ومعادل وجودهم، ووعاء تفكيرهم، لذا بذلت الجهود في شتى المجالات التي تتعامل مع اللغة، والتي تشكل وعي المواطن وانتمائه من أجل النهوض باللغة العربية.

كان لوسائل الإعلام الحديثة من إذاعة مسموعة ومرئية بداية من الستينيات- إذ دخل أول تلفزيون لبلد عربي في مصر في هذه الفترة- أكبر الأثر في نشر اللغة العربية الفصحى، والارتقاء بمستويات اللهجات العامية وتقريبها من مستواها، ما زاد من توثيق الوشائج بين أبناء الأمة؛ إذ صارت لهم لغة واحدة، وقرّبت المسافات بين هذه اللغة واللهجات المحلية، ما ساعد على تقوية لغة التفاهم بين شعوبها. ولم يقتصر الأمر على الوسائل المرئية أو المسموعة، فقد كان للصحف دور في دعم

تداول الفصحى، ما ساعدها على مقاومة اللسان المحكي أو اللغات المحلية.

كذلك بعد تحرر البلاد العربية من هيمنة الاستعمار لاقت حركة النشر التي تتبنى مشاريع التأليف أو الترجمة اهتماما كبيرا، ما ساعد بالضرورة على الاهتمام بالفصحى التي أصبحت من أهمّ الوسائل التي دعمت نشر الثقافة العامة والوعي بضرورة إيجاد إطار ثقافي واحد سمّي بـ«الثقافة العربية»، وكانت الفصحى وسيلته الأولى، ما ساعد على توحيد شعوب هذه الأمة.

إنّ الشعب العربي والشعوب الإسلامية أجمع تتعرّض اليوم إلى استعمار جديد، هو في كثير من جوانبه أبشع وأفظع من الاستعمار الراديكالي القديم، إنه الاستعمار الثقافي الذي تقف خلفه أفكار الصهيونية العالمية التي ترى في قوة العرب واتحادهم، وما تمثله لغتهم من مشترك ثقافي قوي وموحد للأمة، ترى في هذه القوة وهذا التوحّد خطرا على الكيان الصهيوني؛ فنحن أمام غزو ثقافي وبيل، وهجمة استعمارية شرسة تشنّها الصهيونية على كلّ ما هو عربي وكلّ ما هو إسلامي. وليس في يد الصهيونية اليوم سلاح أمضى من تفتيت عرى اللغة العربية، لغة القرآن، وجامعة كلمة العرب والمسلمين وموحّدة فكرهم وثقافتهم؛ فما أحرانا باليقظة وتوحيد الكلمة لدحر هذه الحملة العدوانية الشرّيرة، ودرء هذا الخطر الجاثم.

وليس أقوى من أمة تلتفت إلى العلم ليكون سبيلها للنهوض. ويتساءل بعضهم: لماذا يعد بعضهم أن اللغة العربية ليست لغة صالحة للعلم؟ ويمكن لنا أن ننظر بنظرة موضوعية تجاه هذه القضية، فلا تأخذنا الشوفينية، وعبادة الذات ونشعر بأن العالم يضطهدنا ويتآمر ضدنا طوال الوقت. الحقيقة هناك جزء من هذا الإخفاق الكبير الذي يعانيه الوطن العربي في شتى المجالات، يعود للعرب أنفسهم الذين توقفوا من زمن بعيد عن إنتاج العلم، وسنظل في ذيل الأمم طالما نستمر في استهلاك ما ينتجه العالم من معارف وعلوم، وطالما لا نسهم في مسيرة الإنسانية بإنتاج العلم. اللغة الإنجليزية هي لغة العلم، لأن علماءها ينتجون العلوم ولا يعيشون عالة على المجتمع الإنساني. والعيب ليس في اللغة العربية، كما أن الميزة ليست في اللغة الإنجليزية. أنتجوا العلم وأسهموا في مسيرة الإنسانية بمعارف، تسيّدون لغتكم على بقية اللغات، فاللغة تقوى بقوة أهلها وريادتهم وفرادتهم، وتضعف بضعفهم.

ازدواجية اللغة، ازدواجية الوعي

لعل من معوقات دور العربية في تعزيز الذات الازدواجيةُ اللغوية التي نحياها، والمفارقة العجيبة أننا نتكلم ما لا نتعلم، ونتعلم ما لا نتكلم؛ فالطفل العربي يتحدث العامية، ويفكر بها، لكنه يتعلم العربية. لن نتخلص من هذه الازدواجية اللغوية التي تسبب ازدواجية الوعي والفكر إلا إذا تخلصنا من هذه المشكلة. إن الفصحى هي اللغة المتعلّمة، وثمّ فرق بين ما هو مكتسب ومتعلم؛ ومن هنا، تتخلق الازدواجية التي هي حالة لغوية تتمثل في وجود لهجات محكية إلى جانب مستوى رفيع، تنحرف عنه

بدرجات ومقادير.

لكن ما الذي يقوّي هذه الازدواجية اللغوية ويعزّزها؟

إن أساليب التعليم العربية ونظمه هي التي تتسبب في هذه المشكلة، فالمعلم في قاعة الدرس يتحدث بالعاميّة حين يفرغ من درسه، هذا إن تحدث بها أثناء التدريس! ما يجعل طلابه لا يقدّرون كثيرا الفصحى التي يدرسونها. لذا فالتعليم هو المرحلة الأولى، وبخاصة التعليم الابتدائي.

كذلك يمثل استعمال المفردات الأجنبية في تسمية المحلات والشوارع والشركات تكريسا لهذه الازدواجية، بل والسماح لوجود العمالة الأجنبية في بيوت بعض الدول العربية وشركاتها ومحلاتها تكريس للازدواجية أيضاً، بل ويصل الأمر إلى أن العرب في تلك البلدان يجدون أنفسهم إما مطالبين بالحديث إلى هذه العمالة الأجنبية باللغة الإنجليزية أو بلغة تلك العمالة، فالعربي حين يذهب إلى فندق داخل بلد عربي، ويصرّ عمال وموظفو الفندق أن يتحدث إليهم العربي إما بالإنجليزية أو الهندية مثلا .. فالام يشير هذا الإصرار؟ هل يكون العربي في بلده مضطرا إلى تعلم لغة عمالته الوافد؟ ولا يلزم العربي العمالة الوافدة على تعلم العربية؟!

وأخيرا أستطيع القول بأن

١. لا مصداقية لمقولة أن العربية لا تصلح للغة العلم.

٢. استخدام اللغات الأجنبية المتعددة في مجالات التعليم يمثل عائقا أمام إجادة العربية في بلادها.

٣. تعريب العلوم، كما فعلت سورية في تعريب الرياضيات والفيزياء والطب وغيرها من العلوم، قوّى من اللغة العربية، وعلى الدول العربية أن تحذو حذوها.

٤. الحدّ من التعليم الخاص في بلداننا العربية لأنه يحدث انقسامات في الهوية الثقافية لأبناء المجتمعات العربية.

٥. استخدام الأساتذة والطلاب للغة الفصحى في قاعات الدرس يُعد ركيزة أساسية في تقويتها.

---

(١) ابن خلدون.

(٢) انظر: R. Lewis, In the Age of Mankind, New York, Smithsonian Institution, 1988, p. 30 عن: تيرنس ماكينا: طعام الآلهة (البحث عن شجرة المعرفة الحقيقية)، ترجمة: سمية فلو عبود، د. م.، ثالة للطباعة والنشر، ٢٠٠٥م، ص ٢٢.

(٣) أنور الجندي الفصحى لغة القرآن، ص١٢٦ – ١٢٧.

(٤) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مكتبة مصر ومطبعتها، ١٩٨٠م ص ٣٤٢.

(٥) حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم.

(٦) محمد كامل الرافعي شرح ديوان الرافعي، مكتبة الإيمان بالمنصورة، مصر.



حرف الضاد.. بين الخلط والتغيير

■ غازي خيران الملحم - سوريا

يأتي الضاد في المرتبة الخامسة عشر في منظومة حروف الهجاء العربية، وهو حرف مشهور يحل في الكلمة أصلاً لا بدلاً ولا زائداً حسب آراء الكثيرين من علماء اللغة، وهو للعرب من دون سواهم من الأمم لاعتقادهم أن العربية هي الوحيدة التي تحتوي على هذا الصوت في أبجديتها، ويبدو أن الضاد كان عَصِيّ النطق على أهل البلاد التي فتحت من قبل العرب، وكذلك الحال بالنسبة لقلة من القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية! وهذا يفسر لنا تلك التسمية القديمة: «لغة الضاد».

ويبدو أن هذه اللفظة ترجع إلى القرن الرابع الهجري، فقد شاعت وذاعت حينئذ للتمييز بين العرب وغيرهم من الأعاجم. وكان هذا في بغداد، ثم انتقلت إلى البلاد العربية الأخرى. ومع مرور الأيام، أصبحت من البدهيات المسلّم بها، من غير التفكير في أصلها وفصلها، ومن دون الاهتداء لمعرفة مَن أطلق هذه الصفة على اللغة العربية أول مرة.

ويجزم الفيروزأبادي في مقدمة كتابه «القاموس المحيط» بقوله: إن الضاد حرف العرب خاصة، ولا يمكن لأي لسان أن يضارعهم في لفظه، وأنشد:

الحمد لله منطق البلغاء
بالـلـغـى فـي الـبـوادي

بـاعـث الـنـبـي الـهـادي
مفحماً باللسان الضاد

كـل مـضـادي محمد
خبر من حضر النوادي

وفي العصر الحديث، تعزّز هذا الاعتقاد بالنسبة للناطقين بالعربية، إذ نجد الكثير من شعرائهم يدبج المقطوعات التي تشيد بلغة الضاد وتجلّ أصحابها، ومن هؤلاء الشاعر السوري: فخري البارودي، الذي نظم قصيدة بهذا الموضوع لطالما رددنا مفرداتها ونحن لم نزل في ميعة الصبا وزهوة العمر، إبان المرحلة الابتدائية:

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان

ومـــن نـجـد إلـــى يـمـن
إلـــى مـصـر فـتـطـوان

لـســان الـضـاد يـجـمـعـنـا
بـغـســــان وعــدنـــان

وكان العلامة اللبناني بطرس البستاني يقول: «فصوت الضاد بفخامته ونضارته وغنته، إنما هو أوحى أصوات الحروف الهجائية قاطبة، فتحس معه بمشاعر الشهامة، والمروءة والشمم، ولا أدل على ذلك من أن الأصوات الغنائية التي تعتمد في غنتها على التجويف الأنفي، والتي ينفرد بها حرف الضاد دون سواه من الحروف، إنما هي أشد أصوات الطرب إثارة لمشاعر النخوة والرجولة وتنبيه العواطف النبيلة وإيقاظ الهمم الجليلة».

وحرفٌ هذه حاله، يستحق في نظر العربي أن يحمل لسانه مشقة لفظه، وتوسم العربية بوسمه، وقديما قال المتنبي مفتخراً:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي

وبهم فخر كل من نطق بالضاد
وعـوذ الـجـانـي وغـوث الـطـريـد

والمتنبي لا يقصد هنا بالضاد اللغة العربية بشكل عام، وإنما حرف الضاد بالذات بوصفه فخر لكل عربي، لأن الضاد كما يقول لم ينطق بها أحد لا من قبل ولا من بعد، إلا العرب. ويؤيد هذا الرأي الشيخ ناصيف اليازجي، بقوله: لم يثبت أن الضاد نطق بها غير العرب، وذلك لعدة أسباب أهمها:

- صعوبة نطق حرف الضاد لدى غير العرب، بل وبالنسبة لبعض الفئات العربية كالحضر، وهم سكان المدن والقرى والأرياف.
- خلو جذر اللغات الأخرى من غير العربية، على صوت الضاد.
- عجز الناطقين بغير العربية عن إيجاد الصوت البديل الذي يغنيهم عن صوت الضاد في لغتهم.

وتفيد بعض الدراسات اللغوية أن هذا الاصطلاح لم يكن قديماً قدم اللغة العربية ذاتها، ولم يكن معروفاً تمام المعرفة في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، على الرغم من تداوله المضمر في سياق كلامهم، فهم يمارسونه في السليقة ولا يحسّون به لاعتيادهم عفوياً على نطقه، إلا أن التنبيه إلى قيمته لم تبرز وتتضح إلا عندما تعرّب بعض العجم، وعجزُ لسان هذه الأفواج الجديدة والطارئة على اللغة العربية التلفظ به، وكأن الشاعر كان يقصد هذه الحالة تحديداً، حينما قال:

ضـدان لـمـا اسـتـجـمـعـا حـسـنـا
والـضـد يـظـهـر حـسـنـه الـضـد

وانطلاقا من هنا بدأ علماء اللغة يولون هذا الحرف الاهتمام الذي يستحقه، كحرف متفرّد بخصوصية لفظه وعنوه بالدراسات المستفيضة، التي يحفل بحملها العديد من المجلدات العربية. ولعل أقدم النصوص التي وصلتنا بهذا الصدد، ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أفصح من نطق بالضاد، بيد أني من قريش».

وإذا صح هذا الحديث لاقتضى ذلك أن النطق بالضاد القديمة صفة تميز بها اللسان العربي أيام النبي صلى الله عليه وسلم، ومنذ ذلك الحين أو قبله بقليل أصبح من المعهود

والمقبول أن تحمل اللغة العربية لقباً يطلق عليها هو «لغة الضاد». ذلك أن العجم وثلة من العرب كما أسلفنا في سياق هذا البحث، يخلطون بين الضاد والظاء في النطق، ما حدا بالأصمعي إلى القول: ليس للروم والفرس والترك ضاد. وأنشد غيره:

حرف الضاد له عيون
حارت بوصفه الظنون
عجزت العجم عن نطقه
بغير العربية لا يكون

لغة الضاد أم الظاء؟

لقد شاع كما قدمنا نعت اللسان العربي بأنه لغة الضاد، فهل هذه السمة صحيحة؟ وهل العربية لغة الضاد حقاً وفعلاً؟ أم أن ثمة صوت آخر يزاحم الضاد على هذه المكانة التي تبوأها منذ عرفت العربية طريقها إلى الألسن، أم ماذا؟

أثناء بحثي عن علاقة الضاد ببعض حروف الأبجدية الأخرى، وجدت أن هذه اللغة تعود بجذرها الأول إلى اللغة السامية، التي معظم فروعها اللغوية تشتمل على اثنين وعشرين حرفاً صامتاً ممثلة كتابياً، جمعت بالكلمات التالية:

«أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت»، وبإضافة الروادف الستة التي هي: «ثخذ ضظغ»، تصبح ثمانية وعشرين حرفاً، وهو ما اتفق عليه العرب. ومعناها نسق الحروف العربية ومعاني الأبجدية، ثم أعاد العرب ترتيبها إذ أعجموا بعضها، أي وضعوا فوقها النقاط، وجعلوها على الوجه التالي وهو الترتيب الهجائي، أو الألف بائي المتداول حالياً: «أ ب ت ث... إلخ».

وهذا الترتيب هو المأخوذ به في ترتيب المواد اللغوية في المعاجم العربية، عدا تلك التي تأخذ بوضع المواد اللغوية بحسب مخارج الحروف الأبجدية التي تمثل حروف الهجاء العربية الثمانية والعشرين أو الألف ب ت، واختصرت بمعنى شعري واحد هو:

«أبجد بمعنى أخذ، هوز بمعنى ركب، حطي بمعنى وقف، كلمن بمعنى أصبح متعلماً، سعفص بمعنى أسرع في التعليم، قرشت بمعنى أخذه بالقلب، ثخذ بمعنى حفظ، ضظغ بمعنى أتم».

وعليه تكون اللغة العربية أوفر أخواتها الساميات حظاً من الإرث الصوتي للسامية الأم، والتي عدت حروفها تسعة وعشرون حرفاً.

وغياب الرسم الكتابي لهذه الروادف في الكثير من الساميات، لا يرجع لكونها مفقودة في نظمها الصوتية، وإنما لندرة استعمالها، فلم يحتاجوا إلى وضع رموز كتابية لها، ثم فقدت بالتدريج لعدم استعمالها، وبقيت اللغة العربية محافظة عليها في نظامها الصوتي والكتابي، والظاء واحدة من تلك الروادف التي اشتركت فيها اللغات السامية في الأصل، وتلفظت بها في يوم ما، كما تبين من مقارنة بعضها ببعض، وقد كان موجوداً في لهجات جنوبي الجزيرة العربية وغيرها.

ويعد الفراهيدي اللغوي العربي المشهور من أوائل الذين صرحوا بأن صوت الظاء مختص بالعربية واقتصر عليها، إذ ذكر في مقدمة كتابه «العين» قائلاً: «وليس في شيء من الألسن ظاء غير العربية، وكرر هذا المعنى في أكثر من موضع في الكتاب عينه، بقوله: والظاء عربية لم تعط أحداً من العجم، وسائر الحروف اشتركوا فيها، بما فيها الضاد».

وأجمع البعض من علماء اللغة العربية على أن العرب خصت بحرف الظاء دون سائر الأمم،

ولم يتكلم بها غيرهم، وعلى هذا تكون العربية لغة الظاء لا الضاد.

ومما تقدم يمكن القول: إن نعت العربية بأنها لغة الظاء أولى من نعتها بكونها لغة الضاد، وهناك إشارات متناثرة في هذا المجال تشير بل تكاد تجزم على أن صوت الظاء لا الضاد هو الخاص بالعربية، ما أدى إلى بروز معضلة لغوية خطيرة.. ألا وهي الخلط بين الظاء والضاد أثناء الكتابة أو الكلام.

الخلط بين الضاد و الظاء

وهنا يحق لنا أن نتساءل: ماذا كان موقف العرب أيام ظهور الإسلام من الصوتين الضاد والظاء، وهما اللذان اختصتهما اللغة العربية من دون سائر الساميات بالرمز لهما في أن العرب القدماء كانوا يميزون ضمناً بينهما بوضوح، لكن فيما يبدو هناك فئة قليلة منهم، يخلط أفرادها بين الصوتين، كقولهم «عظت الحرب بني تميم»، بدلاً من عضت، ومن العرب من يعكس فيبدل الظاء ضاداً فيقول الظهر بدلاً من الضهر. ويذكر الأصمعي: «تتبعت لهجات العرب كلها فلم أجد فيها أشكل من الفرق بين الضاد والظاء»، ويروي قصة طريفة بهذا الصدد يقول فيها: قال رجل لعمر رضي الله عنه مستفتياً: «أيظحى بظبي؟» فرد الخليفة: وما عليك لو قلت: أيضحى بظبي؟ قال الرجل: إنها لغتي، قال الخليفة: انقطع العتاب، ولا يضحى بشيء من الوحش».

وهذا الخلط في بعض اللهجات المغمورة إنما كان سببه هذين الصوتين على حسب وصف سيبويه لهما، لاشتراكهما في بعض الصفات الصوتية، أو بعبارة أخرى لإيقاعهما المتشابه في الأذن، فكلا الحرفين يخرجان من اللسان ومخرجاهما متقاربان، فالضاد تخرج من إحدى حافتي اللسان مع أطراف الثنايا العليا، وخروجها مع الجهة اليسرى أسهل وأكثر استعمالاً، ومن اليمنى أصعب وأقل استعمالاً، ومن الجانبين معاً أعز وأعسر، وصفاته الجهر والرخاوة والاستعلاء والإطباق والإصمات والاستطالة.

اما الظاء فتخرج من ظهر طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، وله نفس صفات الضاد ما عدا الاستطالة. فهما أصعب الحروف وأشدها على النطق، وقد قام اللسان العربي بما حباه الله من مرونة بتطويع هذه الأصوات الخشنة وإخضاعها لقانون الخفة واليسر التي تتسم بهما اللغة العربية، بوجه عام.

هذه السرعة العجيبة في اضطراب الألسنة بالنطق بالضاد العربية، وظهور الخلط بينها وبين الظاء في الشرق بصفة خاصة، جاء بعد تغلغل الفرس والأتراك في الوسط العربي، وكلنا نعرف موقف هؤلاء الأقوام من الضاد، إذ نسمعها منهم ظاء عامية، أي تلك التي يلتقي فيها طرف اللسان بأصول الثنايا العليا كما هو الشأن في نطق العامية في كلمة مضبوطة.. يلفظونها مظبوط، وضابط ظابط، وحضرتنا حظرتنا، الخ..

يبدو أن هذا الإشكال اللفظي بين الحرفين قد بدا يسترعي انتباه علماء اللغة، عندما استشعروا تبلبل الألسن في هذين الصوتين الضاد والظاء، فظهرت في كل عصور اللغة رغبة التمييز بينهما من حيث الكتابة لا من حيث النطق، كبادرة أولى ثم تطبيقها ما أمكن على النطق في الثانية.

وإزاء هذه المعضلة اللغوية التي اصطلح على

تسميتها الخلط بين الضاد والظاء ألف بعض اللغويين رسائل للتمييز بينهما، وذكروا فيها الألفاظ التي تأخذ بالظاء، وأخرى التي تعتمد الضاد، وقد أوردوا شروحاً لهذه المفردات، ما قد يفيد القارئ ويحسّن من اعوجاج لسانه إذا ما وجد، ومنها الكتيب الذي وضعه الصاحب بن عباد وسماه «الفرق بين الضاد والظاء»، وجاء في نحو الثمانين من مواد اللغة التي كانت مظنة الخلط بين الضاد والظاء..

كما كتب ابن قتيبة أرجوزة في توضيح ذلك، ومقامة للحريري مكونة من تسعة عشر بيتاً جمع فيها قدراً كبيراً من الألفاظ الظائية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر قوله:

أيها السائل عن الضاد والظاء
لئلا تضله فيهما الألفاظ

إن حفظ الظاءات يغنيك
فاسمع الاستماع والإيقاظ

فإذا حفظت الظاءات بعدها
تقفو أثارك الحفاظ

الفرق بين الضاد و الظاء

لقد اجتهد علماء اللغة العربية في تبيان الفروق بين هذين الحرفين؛ فأوردوا بخصوصهما الأمثلة الكثيرة التي تبين أن وجود أحدهما في كلمة أو جملة ربما عكسها رأسا على عقب وغيّر معناها كلياً، ومن تلك الأمثلة قولهم:

- نظر إليه بعينه ينظر، بالظاء وكذلك ينظر بقلبه، إذا تبدر الشيء، ونظره ينظره بمعنى: انتظره.

- ونضر وجهه، بالضاد ينضر إذا حسن. ونضّرهُ الله أي حسّنه، ونضر الشجر إذا تنعمت أوراقه.

- الظنين بالظاء المتهم بصدقه، أو في دينه أو نسبه أو نحو ذلك من أمور:

فلا ويمين الله ما عن جناية
هجرت، ولكن الظنين ظنينُ

- الضنين بالضاد: البخيل الذي يضن بماله على الناس، أو المقتّر الحريص، قال الشاعر:

ضننت بمالي من فرط حرصي
وقول الناس إني ضنينٌ

أخشى الفقر وشظف عيشٍ
وتعرض مالي للنضب المعينِ

يقال ظل فلان يفعل كذا وكذا بالظاء، إذا فعله نهاراً، وبات يفعل كذا وكذا، إذا فعله ليلاً..

وهذا هو المشهور، وقد استعمل ظل في جميع الأوقات: قال الله تعالى ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ [الشعراء: ٤] وقال تعالى: ﴿فظلتم تفكهون﴾ [الواقعة: ٦٥].

وأما ضل بالضاد فتكون بمعنى تحيّر، وتكون بمعنى أخطأ أو تاه عن طريقه، كقوله تعالى: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ [طه: ٥٢].

ومنه قول طرفه بن العبد،

وكيف تضل القصد والحق واضح
وللحق بين الصالحين سبيل

وتكون ضل أيضاً بمعنى غاب وتلف، يقال ضل الماء في اللبن، وضل الرجل في الأرض. وقال الله عز وجل: ﴿أئذا ضللنا في الأرض﴾ [السجدة: ١٠].

والغيظ بالظاء، صورة الغضب، وقيل الغيظ

لمن لا يقدر على الانتصار، والغضب لمن يقدر على الانتصار، ولهذا وُصف الباري تعالى بالغضب ولم يوصف بالغيظ.

والغيض بالضاد النقصان ومنه قوله تعالى: ﴿وغيض الماء﴾ [هود: ٤٤]. والفعل من واحد منهما غاظه يغيظه، وغاضه يغيضه، واسم فاعلهما غائظ وغائض، وقال البرج بن مسهر الطائي:

إلى الله أشكو من خليل أوده
ثلاثة خلال كلها لي غائض

خاتمة

لقد تعددت البحوث وتشعبت الآراء، حول ماهية الضاد وحقيقة التوأم الظاء، ومدى تأثيرها في نسيج المفردات اللغوية، وبينت وجوه الاختلاف أو التشابه بينهما، من حيث المبنى والمعنى واللفظ.

وربما بدا للوهلة الأولى أن هناك تناقضا بين تلك الأقوال، لا سيما فيما يخص الضاد، لكنها عند التحقيق لا تخرج البتة عن كونها دراسات جادة، بأقلام مجتهدة تواصل السعي لخدمة اللغة العربية- لغة القرآن الكريم، ومحتوي آداب الحديث الشريف، وعلوم الأولين والآخرين، بما في ذلك فعل الضاد، وأسميته الفعل؛ لأن فيه تعرف حقيقة الفصاحة من عدمها لدى الناطقين به؛ فقد أطلق العرب مسمى الجزء وأرادوا به الكل، فقالوا عن العربية: (لغة الضاد). ولم يفعلوا ذلك إلا بعد دراسة مستفيضة وتحرٍ دقيق عن خصائص هذا الحرف الذي حيّر الباحثين قديماً وحديثاً، بل واجتهد المتعلمون الذين حاولوا إتقانه على الكبر، فما أفلحوا كل الفلاح؛ فلا غرابة إذاً أن يعمد العرب قديماً إلى إلحاق أبنائهم بالبادية ليتعلموا الفصاحة من مناهلها؛ لأن مطلبها على الكبر عسير وبالغ المشقة.

إلا أن إشكالية الخلط بين الضاد والظاء، لم تتوقف عند هذين الحرفين فحسب، بل تعدتهما إلى صوتين آخرين هما حرفي الذال والثاء، إذ يلفظ بعضهم الثاء سينا، فيلفظون الثرى سرى، والثوب سوبا، والاختلاف واضح بين المعنيين. ويلفظون الذال دالا أو زاء مثل قولهم زهب أو دهب بدلا من ذهب، وهذا الخلط متفشٍ بكثرة في مجتمعات بلاد الشام.

وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على غنى اللغة العربية بمفرداتها المتنوّعة، القادرة على استيعاب كافة الألسن وجميع العلوم الحديثة منها والقديمة بكل سلاسة ويسر. أليست هي لغة القرآن الكريم؟!

المصادر

- ابن مالك - الاعتماد في نظائر الظاء والضاد - دار البشائر - دمشق ٢٠٠٣م.
- مكي درار - الضاد العربية إلى أين؟ - مجلة القلم - العدد ١ - وهران - ٢٠٠٦م.
- عبدالعزيز مطر - تثقيف اللسان وتلقيح الجنان - ج٢- القاهرة ١٩٦٦م.
- رمضان عبدالتواب - مشكلة الضاد العربية والظاء - مجلة المجمع العلمي العراقي - بغداد - ١٩٧١م.
- أحمد الفراهيدي - مقدمة كتاب العين - مطبعة بولاق - القاهرة - ١٩٤٥م.
- أبو بكر بن حماد - إتحاف العباد في معرفة النطق بالضاد - مطبعة بولاق القاهرة - ١٩٤٠م.



الشعراء الشباب وخيانة اللغة

■ محمد جميل أحمد - السودان

تعيش الثقافة العربية اليوم واقعا مأزوما، بلغ مدىً بعيدا في اغترابه ومآزقه التي تراكمت، وانعكست على خطاب الأجيال الجديدة بصورة جعلت من عدم القدرة على الانتباه لذلك المأزق تعبيرا طبيعيا، تشهد عليه أخطاء اللغة، وركاكة التعابير؛ وغير ذلك من الخطايا.

بيد أن كل تلك التعبيرات الركيكة في الحديث باللغة العربية التي أصبحت اليوم بمثابة حالة عادية جداً؛ غطّت عليها الانعكاسات المضللة لخطاب إعلامي عربي مغترب عن ذاته، جعل من خطاب الحداثة الأداتية وسياقاتها المؤثرة في الوعي الجمعي عبر الكثير من الصور والتمثلات المتماهية مع خطابها؛ أنموذجاً ضاغطا للاحتذاء والتقليد الذي لا يكاد ينجو أحد اليوم من التعرض له.

وإذا جاز لنا أن ندرج تلك العاهة المقلدة في خطاب الأجيال الجديدة حيال احترام اللغة الإنجليزية مثلا، والاكتراث الموسوس بدقتها بما يجعل من الرطانة الإنجليزية في لسان تلك الأجيال الجديدة قيمة مضافة للثقة بالذات، فإن العكس من ذلك تماما أصبح هو حال العربية في كونها في ظن الكثيرين معرة مُعيقة للتواصل مع العصر الحديث!

وعلى الرغم من أن هذا الشعور المرضي في ذاكرة الأجيال العربية الحديثة، لا يكاد يوجد في أي أمة من الأمم المعاصرة حيال لغتها، إلا أن الأخطر من ذلك هو الانطباع السائد لدى كثيرين من الشعراء في التعامل مع اللغة العربية، بوصفها ضرورة تقنية لشكل الكتابة الشعرية ورسمها، بطريقة يمكن للشاعر أن يستغني عنها عبر إيكالها إلى مدقق لغوي مثلا.

لقد أصبح ذلك طبيعيا وبلا غرابة في وعي كثرة وافرة من الشعراء العرب الشباب؛ الأمر الذي يستدعي إعادة سؤال اللغة وعلاقتها بالشاعر والشعر.

فإذا ما أمكننا بقياس بديهي القول: إن اللغة بما هي مادة الشاعر التي يشكل بها عالمه الشعري، ووسيلته التعبيرية المرقومة؛ فإننا بالضرورة سنجد طبيعة تلك العلاقة، من الناحية الشكلية، كطبيعة علاقة الحدّاد مع الحديد مثلا!

فاللغة العربية، بطبيعتها ونحوها وصرفها، وإيقاعاتها الصوتية.. تكاد تغيب تماما عن تمثّل الشعراء الشباب لها، وذلك إحساسا يتوهم منهم، ربما، في أن أنماطها تلك لا علاقة لها بالحداثة المفترضة في كتابتهم، كما لو أنهم يكتبون بلغة أخرى غير العربية!؟

إن اغتراب الشعراء العرب الشباب عن لغتهم العربية، تحت ضغوط الأوهام الحداثوية في التعبير، هو في حقيقته مأزق متصل بالثقافة، وليس بالإبداع. وهذا ما غاب عن كثيرين منهم.

ولعل أبرز علامات ذلك الاغتراب هو اللجوء المجّاني إلى شكل قصيدة النثر، من حيث الحريّة التي تتيحها تلك القصيدة في شكلها المرسوم، من دون أن يدرك هؤلاء أن ذلك لا علاقة له بموضعة اللغة داخل الشعر؛ كونها من أهم تيماته الجمالية والتعبيرية.

فالعجز عن اجتراح صياغة الكتابة الشعرية بنمط الوزن أو حتى التفعيلة، ولو كتجريب مثلا، سيضع الشعراء أمام تحدٍّ لغويٍّ، يتمثل في الحدّ الأدنى من معرفة النحو لسلامة التحريك الذي يقتضيه قول الشعر، أو لضرورة حركة الإعراب الموحّدة في نهاية القافية مثلا.

فهذه الحدود الدنيا والميكانيكية للغة حين تبدو كما لو أنها عقبة في كتابة الشعراء الشباب، تجعلنا ندرك مدى الفقر الذي سيلحق بشعرهم حين يعجزون عن استثمار موسيقى التفاعيل مثلا، وامتداداتها التي تجعل من جسد القصيدة منظومة إيقاعية تأخذ فيها اللغة نطاقا يتجاوز الصورة الميكانيكية والتقنية التي يتوهمها أولئك الشعراء إلى الاندراج في جماليات القصيدة ذاتها (سعدي يوسف، أنموذجا).

هذا فضلا عن إهدار العلاقة التاريخية للشاعر بلغته. فتلك العلاقة التي تكاد تكون مقطوعة في ذهنية الشعراء الشباب المعاصرين وتجاربهم، ربما كانت هي في صورة ما سببا لغياب الهوية العربية في مدوّنة الشعراء الشباب مثلا.

فالهوية الشعرية هنا، لا علاقة لها بما يتوهّمه أولئك الشعراء أيضا من الخضوع أو التمثل لبعض النماذج الشعرية التراثية عبر تقليد ما، وإنما تكمن الهوية الشعرية في استبطان طبيعة اللغة العربية، وتجديد التشكيلات اللغوية بمختلف صيغها في القصيدة عبر توظيف شعري حديث؛ أي في التكوين الإيحائي لروح العربية داخل النمط الشعري، سواءٌ أكان ذلك النمط: عموديا، أم تفعيلةً، أم قصيدة نثر.

لكن ذلك الاستبطان المتصل بهوية اللغة في النص الشعري يضع الشاعر الشاب أمام الاستحقاق الذي ذكرناه آنفا في علاقته باللغة.

وبطبيعة الحال، فإن صيرورة تلك العلاقة بين الشاعر ولغته ينبغي أن تكون متصلة بالمعرفة والحرية كي تولد الإبداع. هكذا سنجد أن التذمر من نحو اللغة وصيغها، والشكوى من صعوبتها لدى الشعراء الشباب (وليس لدى الأفراد العاديين)، هو ضرب من الكسل والعطالة الناتجين عن وعي مشوّش لطبيعة العلاقة العضوية الحميمة بين الشاعر واللغة.

إن الشاعر في الأصل مبدع، تقوم صياغته للشعر عبر تكوين عوالم مختلفة بمعجم شعري لا بدّ أن يكون دالا على فرادته. ومن هنا، فإن معمار القصيدة الذي هو في حقيقته تكوين من اللغة والعالم، أو من الرموز والأشياء، لا بدّ أن يفضي إلى اختيارات لغوية حيال طبيعة المفردات مثلا، أو استخدام صيغ لغوية من دون صيغ أخرى، أو استثمار خاصية لغوية ما في دلالة الاستعارة الشعرية، وغير ذلك من الاستخدامات التي تعطي الشاعر معجمه الخاص، وفرادته الشعرية المتميزة.

ولنضرب مثلا بالشاعر السوداني التيجاني يوسف بشير (أحد أكبر المجددين في الشعر السوداني الحديث)، الذي جسّد في تجربته الشعرية اختيارات لغوية جديدة عبر ضخّ مفردات مهملة من القاموس اللغوي، أعاد إنتاجها كدلالة جمالية خاصة في تعبيره الشعري. لقد كان هذا التجريب البديع للتيجاني يوسف في اختياراته المعجمية للغة قائما على تطبيع جماليّ وسياقيّ عميق، لا تظهر معه الكلمة المعجمية ككلمة شاذة رغم غرابتها، وإنما ككلمة مضيئة، وكما لو أنها الدلالة المركزية في السياق ذاته؛ بحيث يتصل مبناها المضيء بمعناها الدقيق، ليمنح القارئ متعة جمالية متكاملة. فكلمات مثل (الحداثة، الرهام، الأفاريق) وغيرها جاءت في شعره لتشكل فيه فرادة، ولتحيا حياة جديدة داخل التجربة الشعرية.

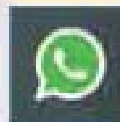
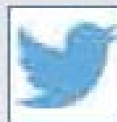
لقد كانت إحدى العادات اللغوية اليومية للشاعر الكبير محمود درويش رحمه الله فتح المعجم اللغوي يوميا بصورة عشوائية، ليتعرف على روح الكلمات التي تقع عليها عينه، وهي عادة تدل على العلاقة القوية للشاعر باللغة.

إن الشعراء هم صانعو مجازات اللغة الكبرى، وهم بناة العالم الرمزي في اللغة بموازاة عالم الواقع، كما أنهم (أمراء الكلام)، كما قال الأصمعي.

إنّ الكلام -بوصفه لغة- لا يتجلى في أصفى صوره وأعمقها وأجملها إلا من خلال الشعر؛ فالشعراء هم المعنيون بتسخين اللغة إلى الحدود التي تجعلها مطيعة لأخيلتهم، ومندمجة في هويتهم الإبداعية أثناء النطق الشعري.

لكل تلك الحيثيات، قد لا نعجب اليوم من عطالة الساحة الشعرية، وندرة الإبداع العميق في الكتابة الشعرية لشعراء اليوم، فيما هم يجعلون من اللغة محض توظيف تقنيّ يقوم به الآخرون نيابة عنهم؟!





العربية في شبكات التواصل الاجتماعي

■ صالح بن محمد المطيري - السعودية

تُرى لو كان يعيش في عصرنا عَلَمٌ قديم كامرئ القيس بن حجر الكندي، أو عمرو بن بحر الجاحظ، أو أحمد بن الحسين المتنبي، فكيف لأيٍّ منهم أن يتواصل مع جمهوره العريض في هذه الأيام؟ بالتأكيد لن يجد الجاحظ العصري مناصاً من أن يستخدم إحدى وسائل التواصل العصرية، أو حتى جميعها، مثل الـ(فيسبوك)، و(تويتر)، والـ(واتس أب)، للتواصل مع قرائه وجمهوره على الدوام؛ وستجده أيضاً حريصاً على أن يرسل لنا نصوصه طازجة من لوحة المفاتيح ولربما شفعها ببعض ما تلتقطه واعيته اللماحة (ولربما كاميرته أيضاً) من صور ساخرة لبخلاء العصر، ولقلاعمقته ومتكلميه، وللعوام والسوقة، بل وللحيوان وأنواعه وأحواله، ولأتحفنا على الفور بشيءٍ من قوة الملاحظة ودقتها التي تميز بها الجاحظ من بين كتّاب العربية على الإطلاق.

لقد أصبحت وسائل الاتصال العصرية تلك هي التي تصنع حدث التواصل بين الناس، وهي التي تربط بينهم على اختلاف المشارب، وهي القناة التي تُبثّ عبرها الأفكار، وتُنشر الدعوات والاهتمامات والتفضيلات والاقتراحات والتساؤلات؛ لقد أصبحت حقاً شبكات التواصل هذه فضاءً مفتوحاً للحوار، تسبح فيه الأفكار والرؤى بين جميع أطياف المجتمع؛ بل لقد أضحت (مطبخاً) كبيراً لإعداد الحملات الفكرية للترويج لصالح فكرة معينة أو ضدها، فهاهنا تختمر الأفكار، وتستحصد، وتبلغ أقصى قواها، وهي في أثناء ذلك تسبح في فضاء الإنترنت، وتنتقل من قارئ إلى قارئ، ومن مشاهد إلى مشاهد، ومن سامع إلى سامع، فربما خرجت هذه الأفكار - بصرف النظر عن نوعها- إلى حيّز الفعل، فأصبحت حدثاً حقيقياً تتناقله الأخبار ويتحدث عنه المراسلون، وتزدحم به الشوارع!

ونظراً لما تنطوي عليه الشبكات الاجتماعية من قوة في التأثير، وسرعة في الوصول، وكثافة في الانتشار؛ فلا ضير أن نقول إنّها أصبحت لغة العصر، وقد اكتسحت هذه اللغة التقنية

الجديدة جميع لغات العالم ولغاتها في سجلها، وأثرت في استعمالها وربما نظامها تأثيرا بيّنا، من هنا، تبرز أمامنا الحاجةُ ماسّةً للنظر في واقع اللغة العربية في هذه الشبكات الاجتماعية مثل تويتر، والـ(فيسبوك)، ووسائل الجوال مثل (الواتس أب) والرسائل النصية، ولا ننسى أيضاً مواقع الدردشة على الإنترنت التي سبقت هذه الشبكات بزمن.

لقد كانت بداية هذه الشبكات الاجتماعية في العالم العربي تقريبا منذ العام ٢٠٠٧م، ومنذ ذلك الحين أصبح كثير من الناس يسجلون في هذه الشبكات ويتواصلون ويتناقشون ويتحاورون؛ ثم انتبه ذوو الشأن من الشخصيات، فأسسوا لهم حسابات يتواصلون عبرها مع جمهورهم، ويبثون أفكارهم ورؤاهم في كل شأن يرونه مهماً، ثم يرقبون كيف يتفاعل الناس تجاه ما يقولون، ويرون كل ما يثيرون من تساؤلات وملاحظات وانتقادات أو تحفظات، وبهذا، أصبح الجميع يستخدم الشبكات الاجتماعية قناةً للحوار والتواصل بالاتجاهين، لأن المرء يطرح الفكرة، أو لنقل يرسل (التغريدة) في تويتر مثلا، ثم يتلقى حيالها العشرات وربما الآلاف من الردود والتغريدات من متابعيه، وربما ظلت الفكرة تدور في أروقة تويتر والفيس بوك المتشابكة كالمتاهة أياما وليالي، بل وربما شهورا ما وجدت لها تنشيطا أو إعادة تغريد من هذا المستخدم أو ذاك، وحسبك أن تعلم -عزيزي القارئ- أن مستخدمي الشبكات الاجتماعية في العالم العربي فقط قد أربوا على السبعين مليوناً من كلا الجنسين[1].

إزاء هذا (الزخم) الهائل من محتوى الشبكات الاجتماعية وقوة تأثيرها، ربما توجّس المهتمون باللغة خيفةً من وضع اللغة العربية في هذه الشبكات، وقد أشرت سلفا أن اللغات جميعا تتأثر بوسائل التواصل الحديثة، وأن العربية ليست بِدْعا من اللغات في هذا الصدد، ومن المعروف في كل لغة أن ثمة فريقاً من الغيورين أو المحافظين، وهؤلاء عادة ما ينظرون بريبة ووجل إلى كل وسيلة حديثة (تبتذل) اللغة وتنزل بها عن المستوى أو (النموذج) الفصيح الذي يرتضونه، والحق يقال إن اللغة كائنٌ حي كما يقول العلماء، والكائن الحي يتأثر بمعطيات البيئة، ويتأثر بالوسائل التي تظهر أو تنجم في بيئته؛ إذاً، فتأثير وسائل الاتصال الحديثة في العربية هو أمر متوقع، لكن يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار أن فعل التأثير ليس بالضرورة أن يكون دوما تأثيرا سلبيا ينقض من بنيان العربية ويدكّ حصونها، إذ ربما يكون أيضا تأثيرا إيجابيا يؤتي ثمارا جيدة ويزيد من قوة النموذج الأمثل ويشد من أزره، (وأعني هنا العربية الفصحى) التي يلتئم حولها الجميع.

ولعلنا نبدأ بالجوانب الإيجابية لهذه الشبكات الاجتماعية على اللغة العربية، طبعا يتنوع محتوى هذه الشبكات -كما ألمحت- بين مادة مقروءة (نص)، ومادة مسموعة، وأخرى مرئية، والتي غالبا ما تكون صورة أو مقطع فيديو، لكن لعل النمط السائد في التغريدات والحوارات والنقاشات هو النص، أي المادة المقروءة، إن انتشار النصوص -أي المادة المقروءة- في هذه الشبكات قد زاد بلا شك من رصيد القراءة لدى الناس، وشجّع إلى حد ما في ترسيخ هذه الملكة لدى الكثيرين، وبخاصة أولئك النفر ممن يعد من حسنات الدهر لو قرأوا شيئاً، لأنهم يعتمدون دائما على المشاهدة أو

الاستماع في تلقّي المعلومة، وقلّما يلتفتون إلى القراءة؛ كما أن هذه الشبكات في ذات الوقت عزّزت من دوافع الكتابة لدى المستخدمين، لأن الردود والتفريدات لا بد أن تكون مكتوبة (أي في هيئة نص)، والنص بطبيعة الحال لا بد أن يكون مفهوما، أي جُملا مفيدة مترابطة معنويا وبمستوى لغوي يفهمه المتلقي، كل هذه الاعتبارات ترد في حسبان الكثيرين عندما يكتبون ردودهم، وكل هذه الشبكات تتيح للمستخدم مراجعة الرد وتنقيحه، كما يمكن حذفه عند الحاجة. إنّ فعل «المراجعة» في حد ذاته هو ممارسة «واعية للغة»؛ إذاً، بهذه الطريقة استفدنا من هذه الشبكات في تنمية مهارتين رئيستين من مهارات اللغة، ألا وهي ملكة القراءة، وملكة الكتابة.

ويرتبط بهذا فائدة للشبكات الاجتماعية قد لمسها بعضنا ولا ريب، ألا وهي التقليل من الأمّية الثقافية بين المستخدمين، والأمر الذي لا شك فيه أن جمهور الطلاب العرب قلّما يقرأون كتابا غير مقرراتهم المدرسية، بل ليتهم يقرأون مقرراتهم هذه قراءة واعية حقا؛ فنتج عن محدودية القراءة هذه نوعا مخيفا من الأمية الثقافية بين الشباب، فقد تجد شابا خرّيجا يخطئ في عدد الخلفاء الراشدين، أو لا يدري متى احتلت فلسطين، بل تجد مَن يجهل أهم أعلام حضارته من القادة والعلماء الأركان، كالذين تسمى بهم المدارس والقاعات والأماكن العامة والميادين، ولو استعرضت إحصاءات القراءة في العالم العربي لرأيت ما يندى له الجبين، إذ وُجد أن عشرين شخصا من العرب يقرأون ما مجموعه كتابا واحدا في السنة، في حين أن المواطن الألماني مثلا يقرأ لوحده سبعة كتب في السنة؛ كما وجدت الإحصاءات أنه يصدر في الوطن العربي كتابٌ لكل (٢٥٠) ألف شخص، بينما يصدر في أوروبا كتابٌ لكل خمسة عشر ألف شخص[٢]، فجاءت هذه الشبكات الحديثة -والحق يقال- لتردم شيئا من الفجوة، وتأخذ بيد المواطن من أمة (اقرأ) فتعيده إلى حوزة القراءة من جديد.

ولكن لن نسرف في المثالية والخيال هنا، لأن القارئ في الإنترنت تعترضه كثير من الملهيات المتشعبة التي تأخذه من وادٍ إلى واد، ومن صعيد إلى صعيد، وهذه التشعّبات تجعلنا نعود إلى الأصل فنقول إن كل الصيد في جوف الفراء -وأعني هنا الكتاب-. ولكن لعل في هذه الشبكات قدرا جيدا من القراءة مثلا لحوارات ونقاشات تتعلق بالثقافة العامة، أو بالتاريخ، أو بعلوم الدين، أو تلك التي تحيل المستخدم إلى مقالات مثيرة للجدل، أو مداخلات فكرية جديرة بالاطلاع، أو طروحات متنوعة تجذب القارئ المهتم بالشأن العام. كل ذلك المحتوى الثقافي يأتي غالبا -وليس دائما- في هيئة نص مقروء، كما يغلب أن تكون لغتُه العربيةَ الفصحى بالطبع، لأن النقاشات الفكرية التي تتسم بالجدية والمقالات الصحفية تكتب عادة بالفصحى، إن في هذا التداول بين المستخدمين للتفريدات الفكرية والمقالات والنقاشات لتعزيز للفصحى بلا ريب.

تلك كانت بعض المميزات التي انتفعت بها العربية من خلال الشبكات الاجتماعية على الإنترنت، ولكن نجد لزاما هنا أن ننظر في الجهة الأخرى أيضا، فنتناول الآثار السلبية التي تعاني منها العربية في الإنترنت عموما، وفي هذه الشبكات الاجتماعية بوجه خاص،

ومعها أيضا شبكات رسائل الجوال؛ فثمة جمهرة من المشكلات التي تئنّ منها العربية وتظهر جليةً لكل غيور، ولعلي أجمل بعضا منها هنا، فمن ذلك:

١- مزاحمة اللغات الأجنبية للعربية:

وعلى رأس هذه اللغات تأتي طبعا اللغة الإنجليزية، إذ وجدوا في بعض الإحصاءات أن نحو نصف المستخدمين لمواقع التواصل الاجتماعي في الوطن العربي يستخدمون الإنجليزية، وهي حقا إحصائية مهولة إذا أخذت حرفيا، لكن لعل المتفائل يقول إن هؤلاء يستخدمون الإنجليزية إلى جوار العربية، وهذا على أي حال وضع أهون خطرا من سابقه، ولا شك أن سيطرة الإنجليزية على فضاء الإنترنت هي جزء من الهيمنة اللغوية، إذ الإنجليزية هي الذراع الطولى المسيطر على لغة التجارة والصناعة والتعليم والإعلام والصحافة والإنترنت.

وكان أن نشأت - من جرّاء هذه المزاحمة الإنجليزية - بين المستخدمين، وبخاصة من الشباب العربي المتعلم في مواقع الدردشة، لغةٌ هجين، يسميها بعضهم (العربيزي)، وهي لغة تقع في المنزلة بين المنزلتين، فلا هي إنجليزية صرف ولا هي عربية صرف، وإنما هي مزيج غريب منهما! وقد أصبحت هذه اللغة محطّ إشكال ودرس بين الجهات المعنية بمستقبل العربية، مثل مركز الملك عبدالله الدولي للغة العربية، «وتُنطق هذه اللغة مثل العربية، إلا أن الحروف المستخدمة في كتابتها هي الحروف والأرقام اللاتينية بطريقة تشبه الشيفرة، وتكتب عادة باللهجة الدارجة وليس باللغة العربية الفصحى، ويضاف لهذه الطريقة الكثير من الكلمات البسيطة والاختصارات المتعارف عليها في الإنجليزية، كما يستخدمها البعض في الكتابة عبر مواقع التواصل الاجتماعي أو رسائل الجوال»[٢].

فأنت ترى أي خطر تشكّله مزاحمة اللغات الأخرى للعربية بين أبنائها، إلى درجة أن نتج عنها مثل تلك الطرق السخيفة في كتابة العربية الدارجة بالأحرف اللاتينية، ومعلوم أن الأحرف اللاتينية قاصرة قصورا واضحا لكل ذي عينين عن تمثيل أصوات العربية وغيرها من اللغات السامية، وبخاصة في الأصوات الحلقية واللهوية كالهمزة والحاء والخاء والعين والغين والقاف، ولا ننسَ الصاد والضاد والظاء، فضلا عن قصورها في تمثيل الحركات القصيرة والحركات الطويلة، وقد وقع كثير من المستشرقين في أخطاء فادحة في كتابة الأسماء العربية بسبب اعتمادهم الأحرف اللاتينية في رسمها، فالبلخي يمكن أن يقرأ في كتب المستشرقين (البلكي) لعدم وجود صوت الخاء لديهم، كما أن ترميز الحروف العربية في أوروبا (أي رسمها باللاتيني) كان يختلف من مطبعة إلى مطبعة، ومن مستشرق إلى آخر. وكل ذلك يؤيد عدم كفاية الرموز والحروف الأجنبية في تمثيل العربية، «إذ إن نظام الكتابة العربية ليست وظيفته مقصورة على تمثيل المنطوق، بل تتعدى هذه الحدود وتعمل عملها في البنية الصرفية-النحوية للغة، وأن نظام الكتابة العربية-على ما فيه من هنات يسيرة- يفوق غيره من نظم لغات أخرى، وهو لحسن الحظ متوافق مع المبدأ الصوتي المشهور: رمزٌ واحد لصوتٍ واحد»[١]، بمعنى أن حرف الفاء مثلا له رمز واحد في العربية (ف) ولا يمكن أن يأتي في

شكل آخر، بينما صوت الفاء في الإنجليزية مثلا يمكن أن يأتي على عدة رموز (f ,ph, ough) وكذا صوت الكاف يأتي في صور عدة (k, c, ch)، ناهيك عن الأحرف التي تكتب ولا تنطق وما أكثرها! وهي بقايا من النطق القديم للكلمة في القرون السالفة، إذ تطوّر نطقُ الكلمة بينما بقي الرسم على حاله، وكل هذه المشكلات الكتابية في الإنجليزية واللغات الأوروبية تُثبت لنا حقا مدى محافظة القوم على نظامهم الكتابي على علاّته، لأن النظام الكتابي -وإن كان في أصله مجرد تمثيل للغة- إلا أنه يظل ركنا ركينا في المنظومة الثقافية لأي لغة.

كما لا ننسى الإشارة إلى استعمال فئات كثيرة من الشباب العربي لعبارات إنجليزية أو فرنسية في رسائلهم العربية، وهي منتشرة بينهم انتشار النار في الهشيم، فتجد الرسالة خليطا عجيبا من هذه وتلك، وتذكّرنا هذه الحال الغريبة المستعجمة والمختلطة بقول أبي العلاء:

أيـن امـرؤ القيـس والعـذارى
إذ مـال مـن تحتـه الغبيـطُ

استنبـط العُـرْبُ في الموامي
بـعـدك واستعـرب النبيـطُ

كـأن نـشـبـاك مـاءُ حـوضٍ
آخـــرُه آجِـــنٌ خبيـطُ

وهكذا، لا يعتّم القارئ المبحر في هذه الشبكات أن يجد بقعا آجنة تختلط فيها أمشاج غريبة من اللغات واللهجات والرطانات، والله المستعان.

٢- **مزاحمة العاميّة للفصحى**، وهذه مشكلة عويصة تعاني منها العربية في الإعلام عامة، وفي وسائل الاتصال الحديثة بشكل خاص، ونحن ابتداءً لا نجادل في وجود العامية إلى جوار الفصحى؛ لأن من طبيعة كل لغة أن يكون لها مستوى عامي (أو دارج) إلى جوار المستوى (الرسمي) الفصيح، ولكن وجه الإشكال هنا أن الكتابة بالعاميّة في وسائل التواصل الحديثة تكرّس من نفوذ العامية وتعزّزه، وتقلّص نفوذ الفصحى. إنّ الوضع الطبيعي للعامية أن يظل سلطانها في المجال الكتابي محدودا دون سلطان الفصحى بكثير، أليست الفصحى هي وسيلة التواصل بين كل العرب على اختلاف أوطانهم ولهجاتهم وعامياتهم؟ إذاً، فلا بد أن تعلو دائما على كل العاميات.

ومن مظاهر مزاحمة العامية للفصحى تغلغلها في رسائل الجوال، ووجه الخطورة هنا -كما تقول إحدى الباحثات- «أننا نقلنا اللهجة العامية المحكية من حيّز المنطوق إلى حيّز المكتوب في رسائل الجوال. ولا تزال العربية الفصحى بخيرٍ ما لم ننقل لغاتنا العامية من مجال (المحكي = المنطوق) إلى مجال (المكتوب)، وهذا ما تفعله رسائل الجوال»[٥].

طبعا لعل موضوع هذه الرسائل النصية يشجّع في هذا الشيوع، ففي رسائل الجوال بين الأهل والأصدقاء تسود العامية بلا شك، وبخاصّة في موضوعات البيت والأسرة والأمور الشخصية بين المعارف والأصدقاء. وفي الحق إنّ رسائل الجوال في أصلها ذات طبيعة برقية، أعني من ناحية الاختصار والقصر، فتجد

أحدهم عندنا إذا أراد أن يقول لأخيه مثلاً: سأذهب بعد العصر إلى السوق فهل تذهب معي؟ تجده يكتب بالعامية:

- بروح العصر للسوق، تخاويني؟ فيردّ هذا: مقدر أخاويك، مرتبط، على فكرة وش سويت ف موضوع الشايب؟ (أي الوالد)!!

ذلك مثال بسيط من آلاف الرسائل التي تدور في المحيط العائلي في المملكة، وفي سياق مشابه، سجلت الباحثة فاطمة الزعبي بعض النماذج من رسائل الجوال العائلية في بلاد الشام في سوريا، وذُكرت منها هذه الأمثلة كما وردت في سجلها:

١- أنابيدتخاليوزحنامهونلأنوامخادونبالشامش ويدك.

٢-سلامالجامعةرنشهادةالتاسعالأصليةرصور تينمصدقات.

٣-كيفكمبتصلعليكونسايقاوبلمحكمةتشوفيما فيوليشماعمبتمسح؟[٧]

هذا وقد يحقّ للغيورين إبداء تخوفهم من شيوع العامية في رسائل الجوال كما تتخوّف هذه الباحثة، لكنّ بعض الشر أهون من بعض كما يقال، فلعلّ الأمر يكون محتملاً مادام لم يبرح مجاله في سياق البيت والأسرة والأصدقاء، فنحن- إلا من رحم ربك- نتكلم في بيتنا ومع أصدقائنا بالعامية، وما رسائل الجوال في حقيقتها إلا نقلاً لرسالة منطوقة بالعامية، أليس من الطبيعي، إذاً، أن تنقل الرسالة على هيئتها حسب المستوى اللغوي الذي صيغت فيه؟ إننا نتخاطب في محيطنا الشخصي بالعامية، بينما نتخاطب على الصعيد الرسمي باللغة الفصحى؛ فمن هنا، يختلف مستوى الخطاب حسب طبيعة المتلقي. ولنا أن نتأمل مثلاً حال البنت التي تريد من والدها ألا ينسى شراء ما تريده، فكيف ستكتب يا تُرى؟ هل ستقول بكل وقار: «آليتُ عليك يا والدي إلا أحضرت معك الهدية»، بلا ريب ستتخيل أنها في مسلسل تاريخي هنا، أم أنها ستكتب مباشرة: «بالله عليك يا بابا لاتنس تجيب لي هدية». إنّ هذا الطرح ليس تسويغاً للأمر ولا تهويناً من شأنه، وإنما في حقيقته وضع الأمر في حجمه الطبيعي، وأنه سيظل محتملاً ما دام أنه محصور في خطاب البيت والأسرة والأصدقاء.

٣- تراجع الكتابة والخط، وهذه آخر مسألة نتوقف عندها في التأثيرات السلبية لشبكات التواصل الحديثة والاعتماد على ثمار التقنية الحديثة، إذ إنّ كثافة استخدام الأجهزة في الكتابة وفي التواصل مع الآخرين قد سببت تراجعاً ملحوظاً في مهارة الكتابة اليدوية، أعني الخط، ففي السابق كان المرسل يكتب رسالته أو خطابه باليد، وكذلك يكتب الطالب واجباته وبحوثه باليد. أما الآن فلا تسل عن الوضع الذي وصلنا إليه؛ إذ كلّ شيء يتمّ عبر لوحة المفاتيح، فأصبحت لوحة المفاتيح هي القلم بعد أن كلّ القلم ونضب معينه من قلة الاستخدام، وهذه الحال أنتجت لنا جيلاً تتعجب من رداءة خطوطهم وكتاباتهم، فيأتيك الطالب ليدخل الجامعة.. فتنظر فإذا هو يكتب في خطّ قد اعتورته المحن والخطوب من الالتواءات والتعرّجات، فلا تدري أهو طالب في الجامعة أم أنه لم يبرح الإعدادية بعد؟! إنّه لخطب جلل من

الناحية التعليمية، لأن طبيعة الخط تعكس في العادة المستوى التعليمي للطالب، وما أُتينا من هذه الناحية إلا بسبب قلة الكتابة وعدم تركيز المعلمين على كتابة طلابهم، والاكتفاء بتقديم واجباتهم وبحوثهم مطبوعة بالحاسوب. من أجل ذلك علينا أن نعيد دولة القلم، ونُرْجعه إلى عرش الكتابة، وألا ننتظر حتى يُسحب البساط من تحته بالكلية، ولعل النصاب الأكبر من هذا العبء يقع على المؤسسات التعليمية من مدارس ومعاهد وجامعات، لقد أصبح القلم حقاً يشكو ويجأر لمّا أزحناه عن سدة الكتابة، وكأني بالشاعر أبي ماضي ينظر إلى حال القلم الحبيس في يوم الناس هذا، عندما قال:

ماذا جنيتَ عليهم أيها القلمُ
والله ما فيك إلاّ النّصحُ والحِكَمُ

إنّي لَيحزنني أن يسجنوك وهم
لولاك في الأرض لم تثبت لهم قدمُ

خُلقتَ حرّاً كموج البحر مندفعاً
فما القيودُ وما الأصفادُ واللُّجمُ؟

إن يحبسوا الطائرَ المحكيَّ في قفص
فليس يُحبس منه الصوتُ والنّغمُ

تلك هي أهم المعضلات التي تنوء بها العربية الفصحى اليوم في فضاء الإنترنت، ذلك الفضاء الذي تهيمن عليه شبكات الدردشة والتواصل الاجتماعي، وتستحوذ على جمهوره الرسائل الفورية من المغردين والمغردات، ولكن -رغم ذلك- ليطمئن القراء، فما تزال العربية بخير والحمد لله، وما تزال دولتها قائمةً قويةً في الإعلام العربي، والمؤسسات الحكومية، والنظام التعليمي، وهي ماضيةٌ إن شاء الله في علوّها على الرغم مما يزاحمها من لغات ومن عاميات ومن لهجات! إنها حقاً صخرة الوادي التي تثبت أمام التيار المتلاطم من حولها، ألم يقل المتنبي ذات مرة:

أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمتْ
وإذا نطقتُ فإنني الجوزاءُ

تلك هي الفصحى، وستبقى هذه الفصحى سيدة المشهد اللغوي العربي ما بقي هناك عربي، وهي ستبقى ما بقي القرآن، قال تعالى: (إنّا نحن نزلنا الذّكر وإنّا له لحافظون) صدق الله العظيم.

وختاما، نسأل الله أن يلهمنا العون والسداد في الحفاظ على هذه العربية، لغة القرآن، تلك اللغة العزيزة التي «سكنت في كل نفس وتمشت في دماها»، كما كنا نردد حبها منذ أيام المدرسة، ويا لها من أيام!

---

(١) موقع العربية نت الإخباري: http://www.alarabiya.net/ar/technology/2013/08/20/D

(٢) الإحصاءات مقتبسة من: عبدالله خلف المساف، الصلة بالكتاب ودعوة للقراءة، ص ١٢، أبحاث المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية، دبي - مايو ٢٠١٢، alarabiyah.org.

(٣) صحيفة الاقتصادية، عدد الثلاثاء ٢٤ ذو الحجة ١٤٣٤ هـ: «العربيزي».. تهدد «العربية» في شبكات التواصل

(٤) كمال بشر، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٢١٥

(٥) فاطمة الزعبي، أثر اللهجات العامية ولغة الجوال على الفصحى والعامية، ص ٨، أبحاث المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية، دبي - مايو ٢٠١٢م alarabiah.org

(٦) المرجع نفسه.



لغةُ الطفلِ
بين البيت والمدرسةِ

■ مرسي طاهر أبوصوف - الجوف

اهتم العلماء العرب والغربيون قديماً باكتساب اللغة وتوليدها عند الطفل بوجه عام وكان لعلماء العربية إشعاعات ثَرة على الفكر اللغوي، حتى لا نبالغ إذا قلنا إن القدماء أتوا بكل شيء وإن في تراثهم ما يغنينا عن الاطلاع على الثقافات اللغوية المعاصرة، وعرف عن اللغويين الأوائل أمثال الخليل بن أحمد إلمامهم بعلم المنطق والرياضيات، ما أضفى على منهجيتهم في تناول الموضوع دقة وموضوعية، وصولاً إلى المشاركة في تأسيس علم قائم بذاته سمي بعلم اللغة، مشتملاً على العديد من الدراسات والنظريات التي تناولها علماء قدامى ومحدثون عرب وغربيون وكانت من بين أهم النظريات قضية اكتساب اللغة عند الأطفال؛ فظهرت نظرية تشومسكي أو ما يطلق عليها «النظرية الفطرية» أو «تحليل المعلومات» والتي تنظر للغة على أنها عبارة عن ملكة أو مهارة مفتوحة النهايات وهذه النظرية تقوم على ثلاثة أسس رئيسة:

الأساس الأول

إن كل طفل في هذا العالم يستطيع بما حباه الله من قدرة فطرية أن يكوّن مجموعة من الافتراضات متزايدة في التعقيد، كما أن لديه جهازاً عقلياً خاصاً يميز بالفطرة الأمور العامة التي تحكم أنظمة اللغات، أي أنه يتمكن من معرفة ما هو داخل في لغته، وما هو خارج عنها.

الأساس الثاني

يقتصر عمل الطفل في مراحل توليده المبكرة للغة على تحديد الإطار العام للغته وتمييزه من بين سائر الأنظمة اللغوية، أو ما يطلق عليه اللغة الكلية.

الأساس الثالث

يتمثل في أن كل طفل يستطيع بصورة طبيعية أن يميز بين بنيتين مختلفين للغة هما: «البنية العميقة» Deep Structure و«البنية السطحية» Surface Structure، كما أنه يلمّ بالقواعد التي تحوِّل البنية العميقة المخزونة ذهنياً إلى تجسيد أدنى، أي تركيب سطحي «Performance»، وهذا يساعد الطفل على تكوين

فرضيات عقلية، أو ذهنية، يستخلصها من الكلام الذي يسمعه، والذي يتألف عادة، من خليط غير مفهوم من الأصوات، ويبدأ بتعديل هذه الفرضيات تدريجيا.

وقد استفاد تشومسكي من أفكار فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر أمثال «ديكارت» الذي رأى أن للإنسان قدرات فريدة لا يمكن تفسيرها، وأظهر هذه القدرات وأعظمها في نظره هي اللغة الإنسانية التي لا تحدها أي ارتباطات أو قوالب تعبيرية ثابتة، نتيجة لمؤثرات خارجية أو حالات فسيولوجية؛ ومن ثم فهي صورة للعقل البشري بوصفه أداة عامة صالحة لكي تلائم كل الحوادث والاحتمالات، ومن ثم أضاف تشومسكي على نظريته ما أسماه بـ«نظرية الإبداع والابتكار».

وعلى جانب الفكر اللغوي العربي في هذا السياق يرى كثير من اللغويين المحدثين أن علماء العربية القدامى قد ألمحوا لكثير من المسائل اللغوية التي اشتملتها آراء تشومسكي، فيما يخص توليد اللغة؛ وبخاصة فيما يتعلق بالتمييز بين البنيتين العميقة والسطحية من ناحية، والفرق بين القدرة والأداء من ناحية أخرى؛ فنجد ابن خلدون في مقدمته يقول: «يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيُلقّنُها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقّنُها كذلك، ثم لا يزال سماعُهُم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلمٍ، واستعمالُهُ يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكةً وصفةً راسخةً، ويكون كأحدهم، هكذا تصيّرت الألسُنُ واللغات من جيل إلى جيل، وتعلّمها العَجَمُ والأطفال».

ويمكن تلخيص عملية اكتساب وتوليد الطفل للغة عند ابن خلدون على النحو الآتي:

أولاً: يسمع الطفل مجموعة متجددة من تراكيب اللغة.

ثانياً: يحاول أن يتكلم على نحو إبداعي.

ثالثاً: يمارس هذا التكلم.

رابعاً: تتكرر عملية الممارسة والتكرار، فيؤدي ذلك بالتالي إلى ملكة اكتساب اللغة وتوليد أنماطها المختلفة.

وهكذا، يتضح لنا كيفية مقدرة الطفل على توليد لغة بيئته التي يترعرع فيها بالاستناد إلى مقدراته الفطرية، وأن ابن خلدون قد مهّد الطريق أمام المفاهيم اللغوية التي أكدتها الدراسات اللغوية النفسية الحديثة.

وعلى الرغم من ذلك أثبتت الأبحاث العلمية أن الأسرة هي المكان الأمثل لتربية الطفل وتكوينه لغوياً، ففي أحضان البيت.. يكتسب الطفل أولى خبراته الصوتية من خلال البكاء والصراخ والمناغاة، فالطفل يبدأ بالمحاكاة ثم بالتكلم، ثم بعد ذلك يستطيع فهم معنى بعض الكلمات، ثم بعد ذلك يستطيع وصف الأشياء، وتصنيفها بحسب اللون، واستعمال بعض الكلمات مثل ناعم، وخشن، وينطق نسبة كبيرة من كلماته نطقاً صحيحاً؛ ويدرك مفهوم المكان بدقة، فيعرف القريب والبعيد فيقول: هنا، هناك، هذه، قريب، بعيد، ويدرك مفهوم الزمن، وقد تقترن معرفة وقت النهار لديه بطعام الإفطار، ومعرفة وقت الليل بالنوم، أما خياله فيتصف بالغزارة والمبالغة والابتكار وعدم التقيد بالواقع المحسوس؛ ومن ثَمّ فإن استعمال المحادثة في الحياة العامة أو حكاية القصص بكافة أنواعها، والإكثار من تلاوة القرآن الكريم، وسماع الأناشيد وتكرارها كل



ذلك له دور فعال في اكتساب الطفل للغة في المواقف الحياتية المختلفة.

كما أن هناك إجماعا على اعتبار الأم المعلمة الأولى للغة الطفل، سواء من ناحية الزمن أو من ناحية الأهمية؛ فبعضهم يرجع مرحلة اكتساب اللغة عند الطفل إلى المرحلة الجنينية، حينما يتفاعل مع لغة الأم ومع نغمات صوتها؛ فالطفل قبل أن يكون مرسل لغة.. فهو متلقي لغة، فالأم سرعان ما تدخل في حوار مع مولودها الجديد، ذلك الحوار من نوع خاص ينتقل بعد ذلك إلى حوار بالحركات مع الكلام، فالأم تراقب سلوك طفلها للتأكد من عدم وجود قصور في أحد الأجهزة، ومنها الأجهزة المسئولة عن اللغة.. وهي أجهزة الصوت والسمع؛ ومن هنا، تحوز الأم قصب السبق في التربية اللغوية للطفل، ولكنها لا تحتكر هذا الدور.. إذ سرعان ما ينضم إليها الأب، والأجداد، وأقارب آخرون، والمجتمع المحيط.

وعلى العكس من ذلك، ففي كثير من الأحيان، نجد الأطفال الرضع الذين تربّوا في دور الحضانة عندما يناغون، نادراً ما يضحكون، ولهم وجه غير معبّر تقريباً؛ لأن العلاقات الأولى بين أشكال اللغة لم تلق تشجيعاً من قبل المربي أو مَن يقوم بدور الأم، كما نلاحظ تكوّن اللغة لدى الطفل من فم العاملات الأجنبيات، والتي تعطيه اللغة مشوّهة وفقيرة وناقصة، ما يؤثر سلباً على نموه اللغوي. ومن هنا، يبرز دور الوالدين في تلقين الطفل وتعليمه والتكلم إليه، كما أن وجود أطفال آخرين مع الطفل في الأسرة يسهل نمو سلوكه اللغوي، كذلك فالوالدان والأجداد وغيرهم من الأشخاص يعلّمون الطفل اللغة بكفاءة أكثر من التليفزيون.. الذي يساء استخدامه الآن في كثير من البيوت، فأحداثه وصوره تكون أسرع من اللازم؛ فلا يستطيع الصغير متابعتها وفهمها، وكذلك عدم ترابط برامجه.. فأصبح من السهل جداً الانتقال من قناة لأخرى. كما يلاحظ أن البرامج التليفزيونية تفرض اتصالاً

من جانب واحد إلى حد أن عدداً من الحالات بين أطفال شمالي أمريكا – كما يعلق بعض الخبراء – ولكونهم متروكين تماماً للتليفزيون كمربٍ لهم، يفهمون الإنجليزية تماماً، ولكنهم لا يستطيعون التحدث بها، وقد يكون من المفيد في سن الخمس أو الست سنوات مشاهدة بعض البرامج التليفزيونية القصيرة المخصصة للأطفال، بشرط أن يقوم الكبار بالشرح الدقيق والتعليق عليها أثناء العرض أو بعده.

أسس التربية اللغوية ووسائلها داخل الأسرة

- من الضروري أن تتكلم الأم باستمرار وبود ولطف مع صغيرها، ويا حبذا لو أسمعته بالطريقة الملائمة وفي الوقت المناسب أصواتاً مختلفة، ومن الأفضل أن تصحب ذلك بابتسامة ونظرة تجذب انتباه الطفل، ومن الأفضل كذلك أن تقود الأم صغيرها عن طريق الكلمة إلى إدراك الظواهر السمعية والصوتية المختلفة والتمييز بينها.

- ولا نغفل هنا دور اللُّعب التي لها صوت إيقاعي، والأصوات والنغمات المتباينة في أغاني الأطفال، وأدوات الطعام، والعبارات ذات النبرة المختلفة، في زيادة قدرة الطفل السمعية، بل إن الطفل الأصم في الشهور الأولى من حياته يسلي نفسه بإصدار أصوات غير محددة، ولكنه شيئاً فشيئاً يتخلى عن ذلك لأنه يفتقد الحافز الذي يكمن في إدراكه المباشر للأصوات التي يصدرها، وكذلك لا يلقى تشجيعاً بالكلام ممن هم مثله! وعلى العكس تماماً، فإن الطفل يستمتع بسماع نفسه وسماع الكبار الذين يقلدون مناغاته ويشجعونه على الكلام، ومن ثم فهو يمضي في المناغاة محاولاً أن يقلد الأصوات البسيطة وبعض المقاطع، وكذلك بعض الأصوات الصادرة عن البيئة حوله.

- بإمكان أفراد العائلة أن يساعدوا وينمّوا ملكات الطفل اللفظية بتشجيعه على تقليد أصوات الحيوانات المعروفة لديه، وعلى إصدار الأصوات المألوفة عنده، وكذلك مساعدته على التعبير عن الأشياء الرئيسة التي يلاحظها، وذلك عن طريق الكلمة. مثل التعبير عن سقوط شيء بكلمة (بم)، وكالتعبير عن ضرب الأشياء باليد أو بالعصا أو نحو ذلك بكلمة (بم بم)، والتعبير عن الجهد المبذول للنهوض (أوبا)، ومن المهم كذلك والماتع أيضاً التعليق اللفظي الذي يقوم به الوالدان وبقية أفراد العائلة حول الخبرات التي يكتسبها الطفل، بأن يكون مشاهداً لها، ويكون طرفاً فيها: «الشربة جاهزة الآن»، «أمسك أنفك بالمنديل»، «خذ العروسة اللعبة»، «البس حذاءك لأننا سنخرج». وبسماع الطفل لترجمة الألفاظ والمفردات اللغوية للأشياء التي يعيش بينها.. فإنه يكتشف بهذا الشكل العلاقة الموجودة بين الكلمة والحقيقة، ويتعلم كيف يميز بين الأشياء المختلفة والتمييز بين دلالات الكلمات على أساس نغمتها، ويتم تشجيع الطفل ودفعه إلى تمييز أجزاء جسمه وملابسه، وكذلك التعرف على محتويات المنزل، ويوضح هذا الكلام أحد الخبراء في هذا المجال بقوله: تكلموا مع أطفالكم بصوت مرتفع عن كل الأشياء التي ترونها أو تفعلونها، علموهم أن كل نشاط وكل شيء له مسمى، وإذا حاولتم أن تكلموهم بتمهل ووضوح فإن الفائدة التي يحصل عليها الطفل ستكون أكثر نفعاً، وما

هو مثال يبين أن الشيء الذي تفعلونه كل يوم يمكن أن يكون فرصة جيدة لمخاطبة الطفل وإثراء لغته؛ فمثلاً عند إعادة ترتيب حجرة ما، اشرحوا له بوضوح كل ما تفعلونه، وتأكدوا أن الطفل يهتم بما تقولون.. فإذا ما تحدثتم إلى الطفل، فإنه سيهتم -بلا شك- بكم وبكلماتكم، فرددوا عبارات كهذه: (انظر يا صغيري، إنني أضع قطعة الخشب في الصندوق)، وإذا رغب الطفل في مساعدتكم في العمل يكون أفضل، وفي هذه الحالة يمكنكم أن تكلموه عما يفعله بمثل قولنا له: (أنت الآن تجمع الكتب)، وسيجد الطفل سعادة في ذلك، وسيبدأ في التجاوب والتعليق، فيحاول أن يصف الموقف بعبارات موجزة خالية من أدوات التعريف وحروف الجر، ومن المناسب هنا أن يكرر الوالد أو فرد العائلة العبارة مع إكمالها أو تصحيحها، فمثلاً عندما ينطق الطفل الكلمات بصورة خاطئة مثل(مكسول) بدلاً من (مكسور)، أو (أشلب) بدلاً من(أشرب)، عندئذ من الضروري أن يبادر الكبار بالتصحيح، وغالباً ما يكون التصويب وتصحيح الكلمة مؤدياً بالطفل إلى تعديل وتحسين لغته.

- إن أغاني الأطفال التقليدية والأناشيد القصيرة والأغاني التي يصحبها لحن، لا تساعد فقط على تقوية حبه للكلمة المنغّمة، ولكن تساعد كذلك وبصورة تدريجية على تصحيح عيوب النطق عنده، وعلى تخفيف حدّة ظاهرة التلعثم لديه.

- مساعدة الطفل على تمييز الأشياء والمسميات وزيادة ثروته اللغوية وتسهيل استخدامه للألفاظ بصورة ملائمة، ولخلق



ظروف مواتية للحوار، يكون من الأفضل اللجوء إلى الصور والرسومات؛ فإن الصور تخلق في الطفل وتوقظ فيه خبراته المباشرة وتوسّع أفقه؛ كما أنها توقظ في الطفل ملكة التعليق على الأشياء، وتساعده على القراءة، وينصح بأن تكون وسيلة الحكاية في فترة الطفولة الثانية، ونظراً لأن الحكاية تتطلب استعداداً وقدرة لدى الكبار، علاوة على المهارة الروائية في الإلقاء، أصبح الاتجاه القوي اليوم هو اللجوء إلى الاسطوانات والكتب المصورة المصاحبة لها.

- كل هذه الوسائل صالحة من الناحية التربوية، شريطة ألا تكون بديلاً عن الكلمة والحوار مع الطفل داخل الأسرة، والتي تهدف إلى تنمية لغة الطفل. وهنا يتضح دور الأجداد في حياة الأطفال؛ إذ أنهم محدثون بارعون، يتميزون بالخبرة والإلمام باللغة(العامية والفصحى).

- يمثل الاستماع إلى القرآن الكريم وتلاوته من أهم الوسائل التي تنمّي الطفل لغوياً، ويمثل الحرص من جانب الوالدين على ذلك القدوة التي يتمثل بها الطفل، ويحاول أن يقلدها ويكتسب ما تقوم به.

أسس التربية اللغوية ووسائلها في المدرسة

- إذا كانت الأسرة تحتفظ بالصدارة في مجال تربية الطفل اللغوية، فإنه يتعين على مدرسة الروضة أن تجعل من نفسها امتدادا طبيعياً لدور الأسرة، ومن الأفضل أن يكون ما يسمعه الطفل ويتكلمه في الروضة مرتبطاً بألعابه الفردية أو الجماعية، والأنشطة التي يؤديها، وكذلك بحياته العملية.. ليكون هناك مماثلة بين ما كان عليه في أسرته وما هو عليه في الروضة.
- ينبغي أن يُنظر بحب وود إلى طريقة كلام الطفل، وتحترم طريقته للتعبير وإن كانت مضحكة وبدائية؛ كذلك ينبغي النزول إلى مستوى اهتماماته الشخصية، ووضع تفاوت نموه اللغوي موضع الاعتبار.
- تتيح المدرسة مجالاً واسعاً من الخبرات المتنوّعة والمتعددة للطفل، فتضع بين يديه صوراً من النشاطات التي تغرس فيه الحافز الاجتماعي، كما تعطيه جرعة ثقافية عن طريق المناظر المصورة، علاوة على ذلك تقدم وسائل تعليمية فعّالة تساعد على نضجهم اللغوي.
- توافر تنوّع وزيادة الخبرات والكفاءات التعليمية، وكذلك الوسائل التعليمية المتطورة والاستخدام المنظم والمدروس للطرق التعليمية الملائمة لتربية لغوية سليمة.
- تبادل الخبرات والأفكار النافعة للنمو الذهني من خلال المحادثة مع المعلمين وأقرانهم، والتي تعمل على إثراء قاموس الطفل اللغوي، وتضع بين يديه نماذج لغوية من شأنها أن تعجّل نضجه حرفياً ودلالياً، كما أنها تعمل على نمو الطفل الاجتماعي، إذ تُطلعه على لذة الحياة داخل الجماعة وتدربه على انتظار دوره في الحديث بأدب وصبر.
- دور المعلم أو المعلمة محوري في تطوير القدرات اللغوية لدى كل تلميذ.. من خلال بناء علاقة ثقة واحترام عن طريق الحوار والمحادثة التي تراعي الفروق الفردية للطلاب، وإثراء مفرداتهم اللغوية وتكوين جمل وعبارات بطريقة صحيحة تراعي تطبيق قواعد الصرف، وكذلك استثمار كافة الأنشطة التعليمية والمسرحية والإذاعية في تكوين بنية لغوية سليمة.

بعد هذا العرض، يتضح لنا أن القدرات اللغوية واكتسابها هي في الأساس قدرات فطرية، وضعها الله سبحانه وتعالى في الطفل، ومرتبطة بحاسة السمع لديه، وتتطور معه وفق مجموعة من المتغيرات والبيئة المحيطة به، وبخاصة البيت والمدرسة؛ كما لا يمكن أن نُغفل دور الآباء والأمهات في تقويم أداء أبنائهم وصقل مقدرتهم اللغوية؛ يساعدهم على ذلك تعاون مثمر بينهم وبين المعلمين في استكمال وبناء المنظومة اللغوية الصحيحة للطفل، كما أن على وزارات التربية والتعليم والإعلام والصحة والخدمة الاجتماعية العمل سوياً على وضع برامج للطفل العربي، تظهر قدرته على اكتساب اللغة والتعلم كماً وكيفاً، مع الأخذ في الاعتبار نسب الذكاء عند الأطفال والواقع الثقافي والحضاري في الوطن العربي.



معلّمون راسخون في الذاكرة

■ عبدالله السفر - السعودية

للمعلّم دورٌ كبير في تحبيب اللغة العربية عند طلابه، وكي يحقّق هذا الدور يُتوقّع منه أن يكون متمكّناً من لغته ومن طرق التوصيل الملائمة للمرحلة العمريّة والدراسيّة.

جميعنا مرّ عليه، أثناء سنوات الدراسة في مراحلها المتعدّدة، حشدٌ من معلّمي اللغة العربية الذين يتفاوتون في المستوى والأداء والتأثير، وذلك تبعاً لما ينطوون عليه من مقدرة علمية وكيفيّة خاصة قادرة على نسج العلاقة مع الطلاب؛ تؤسّس للتلقي المناسب بعيداً عن النفور من المعلّم ومادّته.

..ولحسن حظي، فقد تيسّرَ لي عبر محطّات الدراسة معلّمون أكفاء ما أزال أحفظُ لهم جميلهم بكثيرٍ من الشكر والعرفان والتقدير. ما أذكرُه جيّداً، وما لن أنساه ليس المقرّر الدراسي المعلوم والمطلوب تدريسه لنا، لكن تلك الإضافات والاستطالات والشوارد النحوية والقصصية والشعرية التي تسري بالنسبة لي مسرَى اللذة، قبل أن تكون تحصيلاً أشمل ونوافذَ أوسعَ مشرعةً على «لغتنا الجميلة». وكم هي الإشارات التي بثّوها عن أعلام اللغة العربية وكتبهم؛ فكانت مرشداً ومناراً وملجأً لا غنى عنه في مسيرتي المهنيّة والأدبيّة.

في المرحلة الابتدائية بمدرسة الجشة بالأحساء، وفي الصفين الخامس والسادس، كان مدرسنا الأردني الفلسطيني «سالم الزعاترة» الذي تعوّدنا منه في مستهلّ العام الدراسي أن يخصّص حصّة، أسمّيها الآن بعد العمر والتجربة، تحفيزيّة تستدعي بنظرة شاملة السنة السابقة تختبرنا وتؤكّد معلوماتنا وتعمل على تثبيتها، ومعها كان درسه الأثير عن الرجولة في الحياة وعن المستقبل وعن الاهتمام الذي ينبغي أن نوليه للمواد الدراسيّة، وبخاصة اللغة العربية التي لن تكون مقررا ونمضي عنه مثل سائر المواد الأخرى، لكنها حصيلة من التراكم يلزم ترسيخها لأننا نحتاجُها، وما سوف يأتي من مقررات

اللغة في المراحل القادمة ينبني عليها. كان الأستاذ «سالم الزعاترة» من طراز معلمي تلك الفترة التي تقعُ في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي؛ مُشرَباً بالجديّة والصرامة، لئلا أقول القسوة. لا يتهاون في درسه ولا يؤجّل العقاب بمرارته، وفي الوقت نفسه لا يبخل بالتشجيع «صفقوا له يا أولاد»، «عفارم»، وسواها من كلمات التشجيع أو التربيت على الكتف بقوّةٍ عندما يستحسن الإجابة أو إنجاز الواجب بصورة صحيحة «ونظيفة». من صور التشجيع التي تظلّ محفورة في الذاكرة أنّه كان يستدعي طالباً متميّزاً من الصف الخامس إلى الصف السادس ليحلّ مسألة تعثّر فيها طلاب ذلك الفصل، وغالباً ما تكون في الإعراب. أيّ أجنحةٍ يشْرها لنا «سالم الزعاترة»، أردّد اسمهُ الآن بإعزازٍ لا حدّ له. فقد كان الأول الذي أوقفني على النبع، وزيّنَ لي الاغتراف منه بمحبّةٍ وثقة.

في المرحلة المتوسطة، أوائل السبعينيات التي شهدت عودة العلاقات المصرية السعودية بعد وفاة جمال عبدالناصر وتسلّم أنور السادات سدّة الرئاسة في ذلك العقد، انهمرَ المعلمون المصريون على حقل التعليم بإسهامٍ لا يُنسَى، ويختلف تقديره من شخصٍ إلى آخر، ومن هؤلاء معلمي «شهدي» الذي فات على الذاكرة الاحتفاظ باسم عائلته، غير أنها يانعة وتندى بجميل فضله؛ معلماً للغة العربية في الصفين الثاني والثالث متوسط بمدرسة الجفر بالأحساء التي اكتشفنا معه أن مادّة التعبير ليست نافلة وليست خفيفة في ميزان التقدير. فقد كان في هذه المادة شديد الحرص على سلامة اللغة، ويستلّ من الدرس المكتوب في الدفتر بعض القواعد التي درسناها، ويعلّمنا طريقة الاستعمال الصحيحة في أداءٍ مذهل.. مذهل.. نعم، كان الأستاذ «شهدي» مذهلاً في إيصال المعلومة وترسيخها؛ استخداماً وتذوّقاً. لا يكفّ عن ربط درسهُ بالأمثال، وللطرافة لم تكن من اللغة العربية، بل من «العاميّة المصريّة». أذكرُ منها «إن ذِبلت الوردة تبقى ريحتها فيها» وكان يعني أثرَ التصريف وعوامل الإعراب التي تغيّر في شكل الكلمة، لكنّ ثمّة ما ينبئ عن المحذوف وينوب بالإخبار عنه وأنه لم يذهب تماماً. جعلَ الأستاذ «شهدي» طلابه يتذوّقون الكلمة ويتسابقون في استظهار حصيلتهم في درس التعبير، وإلى الآن بعد أكثر من أربعين عاماً أحتفظ بدفتر مذكرات أزرق للعام ١٩٧٣م، حصلتُ عليه غبَّ زيارة للخفجي «المحايدة»، وفيه كنتُ أكتب موضوعات التعبير قبل تسويدها في دفتر المدرسة، ومنها موضوع عن «حرب أكتوبر ١٩٧٣م رمضان ١٩٩٣هـ» الذي نالَ استحسان الأستاذ «شهدي» (ومعي كان في الاستحسان، المهندس العزيز: صالح الصندوق) وطلبَ أن أقرأهُ أمام الطلاب، وهو يقاطع بكلمات التشجيع، ولا يتخلّى في الوقت نفسِه عن تذكيرنا بالقواعد وبما يفرّ منّا من هناتٍ إملائيّة. إن الدرس الكبير الذي

قدَّمهُ لي معلمي «شهدي» كيف توصل مادتك الدراسية؟ وكيف تحبِّب الطلاب فيها بطريقة عمادها التمكّن من المادة وأسلوب الطرفة والابتسامة.. ويظلّ من السخرية تشعّ في سماء الفصل وتغنيه عن استخدام العصا.

في المرحلة الثانوية وما بعدها من التعليم الجامعي، مرَّ أكثر من معلم للغة العربية مثل الأستاذ أحمد عبدالغفار (أصبح دكتوراً فيما بعد) في المرحلة الثانوية بمدرسة الملك خالد بمدينة الهفوف؛ حاضرة الإحساء.. والدكتور محمد بن محمد بن بالكلية المتوسطة في الدمام، أذكرُ هذين المعلمَين بتقدير بالغ، رغم أنّ أثر القدوة ليس بحاله الذي كان عليه في مرحلتيّ الابتدائية والمتوسطة؛ أستعيدُهما لما كانا عليه من مستوى علميّ باهر، ودقّة بالغة، ومهارةٍ عالية في استظهار المرويّات اللغوية والشواهد المتناثرة في بطون الكتب؛ يلمّان بها ويبسطانها أمام الطلاب شأن ساحرٍ في رشاقة وخفّةٍ وجمال.

.. هناك معلم لم أجلس أمامه في مدرسة، ولا تلقيتُ منه عن كتاب، غير أنّي في هذا المقام من الذاكرة والألفة لا يغيب عنّي اسمُ المعلّق الرياضي الفلسطيني أكرم صالح (١٩٢٩ - ١٩٨٦م) الذي تعلّقتُ بسماعه وشريكه في التعليق موسى بشوتي، لكنّ لأكرم نبرةً ومذاقاً يجعلني ملتصقاً بالمذياع، أتابع أنصاف الأشواط أو أرباعها (المقطوعة بالنشرات الإخبارية من إذاعة البي بي سي) ومنتبهاً لأدائه السلس والمتدفّق باللغة العربية الفصحى، والمطعّمة بين آونةٍ وأخرى بعاميّة فلسطينية يلذُّ وقعُها في الأذن. ومما أدين به لهذا الراحل الكبير أنّي عرفت من خلاله أسلوب التعجّب الذي وقتها لم أتعلمه في المدرسة بعد.

على وقع هذا التذكّر بشعلة الحنين المتّقدة، وتزداد اتّقاداً كلما التفتُّ وكلما ابتعدت العينُ إلى الداخل في غائر الأيام الأولى، والأثر العميق الطالع منها والباقي يصمد في مرتقى العمر ويعبر.. على هذا الوقع، لا أستطيع أن أكون محايداً في تقييم معلمي اللغة العربية في الوقت الحاضر، وأخشى أن أكون مغالياً في تظهير الوجه السلبي والنقيض؛ لهذا أفضّل الإمساك مبرّراً لنفسي بهذه الحكمة الذهبية!!!:

«عندما يجهز الطالب؛ يظهر المعلم».





السخرية السوداء في «ألوان العار» لألبير قصيري

■ هشام بنشاوي*

يرسم الكاتب المصري الفرنكفوني ألبير قصيري (القاهرة ١٩١٣م- باريس ٢٠٠٨م) في روايته الأخيرة: «ألوان العار» - الصادرة بلغة موليير عام ١٩٩٩م والتي صدرت في ترجمتين عربيتين (القاهرة ٢٠١١م، دمشق ٢٠١٢م)- لوحة بانورامية ساخرة مدهشة للقاهرة السبعينية.

تبدأ الرواية بوصف الحشود البشرية، التي أصابتها البطالة بالسكينة، والمتسكعة تحت الشمس الذهبية في شوارع القاهرة التي أضحت أشبه ببيت للنمل؛ بسبب النازحين القادمين من كل المحافظات والمشبعين بأوهام حمقاء عن ازدهار العاصمة، والمباني آيلة السقوط.. إزاء هذا المشهد القاهري المثير للرثاء، يتعجب أسامة كيف يعيش أهالي هذه المدينة وسط أبواق السيارات والغبار والقمامة والوحل دون إبداء ولو أدنى بادرة عدوانية أو إشارة احتجاج؟! فمجرد شعورهم بأنهم لا زالوا أحياء قد أعدم فيهم الرغبة في أن يأخذوا أي شيء آخر في اعتبارهم» ص٧.

ورغم تدهور المدينة، فلا شيء ينال من طلاقتهم ومرحهم، وهذا الموقف الكريم والمترّفع بإباء يثير دهشته؛ لأنه يعبر عن عجز المواطنين عن إدراك المأساة. وتأمّل هذه الفوضى من فوق الجسر يثير سعادة أسامة، اللص أنيق المظهر، الذي يرتاد الأماكن الفخمة؛ إذ يسترخي أساتذته في النصب (اللصوص الكبار)، ويسرقهم في أمان تام، من دون أن يطمح أن يكون صاحب حساب مصرفي؛ لأن هذا ذروة الفعل المشين في نظره. وسرقاته استرداد هزيل للمبالغ الطائلة، التي يكتنزها هؤلاء

المجرمون، الذين ضربوا عرض الحائط بؤس الشعب.

يرتاد أسامة مبنى «نادي الأعيان»، والذي تشي لافتته بأنه لا يقبل الرعاع من بين أعضائه، ويعد السارد أسامة لصا تافها؛ لأن شغله الشاغل هو الجانب الطريف والغامض للمغامرة، لكن مفهومه الساخر للسرقة يجعله في معزل عن الموقف المتشائم والقلق للسارق العادي.

وهو ينتظر طريدته الموعودة، تقتحم عزلته «سفيرة»، المراهقة الفقيرة، التي تطمح أن يكون ارتباطها به نهاية لمعاناتها، حتى لو كان لصا، ويندم لأنه كشف لها عن مهنته بدافع من يقينه بأن ذلك الإسرار سيصرفها عنه؛ لكن ذلك أعلى من شأنه في نظرها، وهي التي تولدت لديها قناعة، من خلال نماذج بائقة الثراء تحظى بشعبية كبيرة في الصحف، أن مهنة السارق مرادفة للمركز الاجتماعي المرموق.

بعد مغادرتها، ينتشل حافظة نقود رجل وهو يتجه نحو سيارته، ويعثر على رسالة قطيعة من شقيق وزير الأشغال العامة المتورط مع مقاول البناء، بسبب مصرع خمسين شخصا في حادث انهيار عمارات صاحب المحفظة، بعد وقت قصير من افتتاحها في احتفال فخم من طرف وفد حكومي. ويفكر أسامة في بيع الرسالة لإحدى الصحف، لكن سرعان ما يتراجع عن الفكرة بسبب تواطؤ رؤساء التحرير مع النظام الفاسد.

يزور أسامة والده الضرير الشيخ معاذ في حي السيدة زينب، والذي فَقَدَ بصره بسبب ضربة عصا شرطي في ثورة ١٩٥٢م، فأهملته السلطة ولم تعوضه بأي شكل، وتفرّد الابن الوحيد وتسوّل ليؤمن لقمة عيشه وأبيه. وكانت تجربة قاسية بالنسبة إليه، لأن جسده معافى، وكان يغار من أصحاب العاهات، الذين يمارسون بفخر هذه المهنة الملكية، وفكّر في لحظة يأس أن يقطع يده أو قدمه، لكي ينال إعجاب المُحسنين الذين تجذبهم الجروح الغائرة والأجساد النحيلة.

في غياب الخادمة التي ترعاه، يجد أسامة أباه، جالسا كعادته أمام النافذة المفتوحة مشرئبا بعنقه نحو ضوضاء الشارع في تلذذ، ويخبره الأب بأنه كان «منهمكا في التفكير في مآثر الثورة. لديّ الانطباع بأن هناك مزيدا من الحركة والنشاط في الحي. أسمع الناس يضحكون ويتنادون فكهين كما لو كانت الدنيا قد أصبحت شيئا رائعا بالنسبة إليهم، ص٢٨. ويتحاشى الابن الحديث عن مآثر ثورة لا وجود لها إلا في خيال أبيه الضرير، الذي يرفض مغادرة البيت الآيل للسقوط رغم إلحاحات ابنه المتكررة. ويذهب لمقابلة معلمه نمر، الذي يتهمه بخيانته وخيانة كل أعضاء الحرفة، ويانتكر لطبقته بسبب مظهره الأنيق. «لا شيء أكثر انعداما للأخلاق من السرقة بدون مخاطر! فالخطر هو ما يفرّق



بيننا وبين المصرفيين وأقرانهم الذين يمارسون السرقة القانونية تحت رعاية الحكومة. أنا لم أرسّخ شيئاً في ذهنك؛ لتصبح لص سينما يتمثل همه الأكبر في عدم إثارة نفور جمهوره، ص ٥٢».

يستفسر معلمه في أمر الرسالة، فينصحه بزميله الصحافي المغضوب عليه، والذي سجن بسبب هجاء رئيس دولة مجاورة، كرم الله «رسول السخرية الذي يقطن أحد المدافن»، السعيد بعيشه وسط الأموات، تاركاً خلفه كل ألوان العار المتفشية في المجتمع. ويخطط الصحافي لمقابلة مقاول البناء سليمان بصحبة أسامة ومعلمه، فيحضر إلى أحد المقاهي الشعبية، لاسترجاع الرسالة، وتبدأ جلسة استجواب له، إذ يدعي كرم الله أن المعلم نمر عالم اجتماع، وأسامة أمير من بقايا العائلة المالكة، ويستدرجه إلى البوح بأفكاره الشيطانية وفلسفته في العمارة المؤقتة: «كنت أقول، إذاً، إن بعض العمارات يجب أن تختفي لتترك مكانها للبنايات الجديدة، ص ١٠٨»، ويرى أنهم ليسوا في زمن الفراعنة



ويبني البناء لفترات محدودة، وإلا وقعت الكارثة وانهارت سوق العقارات إلى الأبد، «إذا بنيت عمارات بغرض الدوام سوف يأتي اليوم الذي لا تجد فيه أراضٍ شاغرة تشيد عليها غيرها.

انظر إلى الأهرامات. لن يجول بخاطر أي إنسان في هذا البلد فكرة بناء ولو هرم واحد! فالمكان مشغول منذ أربعة آلاف عام، ص ١٠٦-١٠٧».

ولا يستعيد سليمان الرسالة، لأن أسامة جعلها تعويذة تحميه من المخاطر، ويشير إلى قلادة تتدلى من عنقه، وينفجر سليمان غاضباً:

- «قل لي يا أمير، ألست لصاً؟

انتصب أسامة واقفاً وانحنى بشكل رسمي متحدثاً بصوت متواضع ومتغنج:

- لص صغير للغاية مقارنة بمعاليك!

انفجر نمر ضاحكاً وقد أطلق ضحكة لا تضاهيها ما عداها من الضحكات، ضحكة ثورية، ضحكة من اكتشف لتوه الوجه البغيض والهزلي لأقوياء هذا العالم، ص ١١١».

تبدو رواية ألبير قصيري كأنها نسخة فرنسية من أجواء نجيب محفوظ، ولكن بنبرة إيقاعية أكثر سخرية في هجاء أنماط العبودية المستترة، فهو حالة متفرّدة مثل كتاباته؛ عاش وحيداً ومعزولاً وكسولاً في أحد فنادق باريس، يكتب باللغة الفرنسية عن مقاهي وحواري القاهرة وهوامشها البشرية، التي لم تفارق مخيلته ولا إبداعه، ولم يسع إلى الحصول على الجنسية الفرنسية، إذ كان يؤكد أنه ليس في حاجة لأن يعيش في مصر ولا للكتابة بالعربية، لأن مصر في داخله، وهي ذاكرته.

* كاتب من المغرب.

الدّلالات الأنثربولوجية عند شعراء الجوف
دراسة في المضامين الاجتماعيّة والثقافيّة

■ د. إبراهيم الدّهون*

صدر عن مؤسسة عبدالرحمن السّديري كتاب بعنوان: (الدّلالات الأنثروبولوجية عند شعراء من الجوف) للباحث عماد الخطيب، وجاء الكتاب في (٢٠٩) صفحات من القطع المتوسط.

توثق الدّراسة لتجربة الشّعر النبطي في منطقة الجوف، من خلال الرحلة مع عشرين شاعراً من أبناء المنطقة.

والقارئ للكتاب يلمس أنّ الباحث قد جعل كتابه في ثلاثة فصول، وممهد ومقدمة، وخاتمة. كما يلحظ أنّ الخطيب يعلن في مقدمة الدّراسة الدافع وراء تأليف الكتاب.

وبناء على ما سبق، فقد عرض الخطيب في الممهد تفريقاً بين الشّعر النبطي والشّعر الشّعبي. إذ يرى أنّ الشّعر الشّعبي هو ما يعود للشعب، وهم عامّة الناس أمّا النبطي فيرجع للأنباط، والنبطي يوحّد لهجات عدة تحت لفظة: (نبطي).

كما يؤكد على أنّ الشعر الشعبي أو النبطي عربي الألفاظ والعبارات والتراكيب والصّور، وإن تخلّى عن بعض الظواهر أو المظاهر التي تعرف بها اللّغة العربية الفصحى. ويعلن الخطيب أنّ الشّعر النبطي مرّ بثلاث مراحل، هي:

١- المرحلة الهلالية التي تنسب إلى بني هلال، وسُمّي ما أنشده بالبيت الهلالي والقصيدة الهلالية، وهو البحر المعروف بالطويل.

٢- المرحلة المتداركة، واستخدم فيها البحر المتدارك والرجز.

٣- المرحلة الثالثة، وارتبط هذا الشعر ونمطه بالغناء، في أغلب مواقع وجود العرب؛ لقابليته للغناء.

ويثبت الخطيب أنّ تدوين هذا الشعر تمّ في القرن الثالث عشر الهجري، وأنّ أول من دوّنه هو خالد الفرج في كتابه: (ديوان النبط) عام ١٩٥٢م.

ويؤكد الخطيب أنّ كثيراً من الدّراسات عن هذا الشعر أشارت إلى أنّه يُعدّ الابن الشرعي للشعر الفصيح، كما يضيف أنّ معظم الشعراء النبطيين يعتمدون رأي الأخفش الأوسط في مسألة القافية، وهي الكلمة الأخيرة في أبيات الشعر.

ويقف الخطيب عند الشعر الحواري؛ أو ما يسمّى بالشعر القصيد، وهو فن جماعي يتكون من شاعرين، وصفّين من الرجال؛ يقوم الشاعر الأول بإلقاء البيت الأول بلحنه، فإذا انتهى يُثنّيه أحد الصّفين بغناء الشطر الثّاني من البيت، ثمّ يردّ الصّف الآخر بالشطر الأول، وهكذا، يتداول الصّفان الشطرين حتى يوقفهما بالبيت الثاني.

وينهي الخطيب مهاده بالأهداف المرجوة من دراسته الشعر النبطي الجوفي بالآتي:

١- الأنثروبولوجيا الجوفيّة وسيلة لفهم ماضي الجوفيين، وأثر ذلك على شعرهم.

٢- البحث في الصّلات الاجتماعيّة التي يدعمها المفهوم الأنثروبولوجي من خلال الاتكاء على مقولة: (هل من وظائف الشّاعر أن يصور مجتمعه).

وجاء الفصل الأول بعنوان: (الجوف والأنثروبولوجيا موضوعاً إنسانياً)، ويخلص الخطيب فيه إلى أنّ الشعر النبطي مثقل بالقيم الإنسانيّة ذات الجناحين الذكوري والأنثوي.

فقد أكثر الشّعراء الجوفيون من الموضوعات



الذكوريّة في الشعر النبطي، وتفننوا في تجسيدها، وتمركزها حول موضوع: (الرجل) وحديثها عن الكرامة وكبريائه، فضلاً عن مستويات حياته: الاقتصاديّة والتّعليميّة والثقافيّة.

وتباينت صورة الرجل عند الجوفيين بين القدوة والقائد المرغوب فيه، وصورة الرجل المذموم، غير المرغوب فيه، نحو: النفّاش، والمحتال، والخبيث.

ويعقد الخطيب مقارنة بين المرغوب فيه، والمرغوب عنه، فالأول أحبّ الرجال، ويشرف قدوله، ويلتزم الصّدق، أمّا الثّاني، فهو ناكر المعروف، شين العرق، يرتدي ذل القناع.

ويعرّج الخطيب على الحالة الاقتصاديّة للجوفيين من خلال الشعر الجوفي، فتطرق الشّعراء الجوفيون إلى صور التربية عند أبناء الجوف؛ بحثاً عن الرقي في الشهادة، باحثين عن العيش الكريم.

واشتمل الفصل الأول الحديث عن صورة المرأة، فطمحوا إلى الرمز الحلم، والتي يحلم بها كل رجل، كما عبّروا عنها بصور عديدة، منها المرأة، والأم، والابنة.

ونقرأ في هذا المجال غزلاً يفيض بظاهر المعاني المتداولة، ولا يخرج عن مضامين ما تنزل به الشعراء العرب القدماء، كقول الشاعر:

ريمية طالعت له زول
هذيك حكياه واشباهه

أغنيك وارجيك أنا يا حول
يا قرة العين وامناهه

ولم يقف الشعراء الجوفيون عند صور المرأة السابقة، بل نلحظ استحضار صور المرأة المجهولة، والمرأة المتلونة، صاحبة الحلية، والمرأة المتحضّرة.

ويعنون المؤلف فصله الثاني من الكتاب بالأنثروبولوجيا مضموناً فكرياً، متطرقاً إلى العادات والمواطنة، والعشيرة والولاء والوحدة.

إذ اهتمّ الشعراء الجوفيون بالعادات والتقاليد، حاثين الشباب والمجتمع على التمسك بعادات العرب؛ ومن أهمّها منهج الدّين، وسلوكيات أفراد المجتمع السمحة.

فمدح الشعراء الجوفيون عادات ملوكهم وأمرائهم، وربطوا تلك العادات بتاريخهم المحفوظ، كقول الشاعر عبد الهادي النصيري:

عاداتكم يا مبر ضرب النباشين
للخير بذاله وبالشر فتاك

تاريخكم محفوظ بين الدواوين
امترجم للشرق ولغرب الأتراك

ويذكر المؤلف أنّ من أكثر العادات ظهوراً عند الشعراء الجوفيين عادة الترحيب بالضيف وما يرافق ذلك من حبّ القهوة من الدلال، وعادات الكرم العربي الأصيل، وحماية الجار، والعرض والشرف، والصّفح عن الجاهل.

أمّا المواطنة عند الجوفيين فقد تعددت صورها وأشكالها، نحو: الحنين إلى مسقط الرأس، والانتماء والذكريات والاعتزاز بالوطن، فالمواطنة تقتضي الفخر بالولاء والفخر بالعشيرة.

وتناول الشعراء الجوفيون في شعرهم مفهوم الوحدة، ونبذ الفرقة، إذ وعى الشاعر الجوفي أهمية الوحدة الوطنيّة بين العرب، إضافة إلى الوحدة بين قبائل الجوف، وفي هذا يقول الشاعر خالد الحميد:

شبابنا عاع الوطن يستحنكم
أنتم أمكنا في حقوقٍ غدي بها

وانتقل المؤلف في الفصل الثالث إلى الثقافة الإبداعيّة المشكّلة لحمولات الشعراء الجوفيين ومعارفهم، فعرّج على لغتهم، وصور التناص في شعرهم، والصّور والأخيلة المنتجة لشعرهم. كما عالج فكرة التّضاد، وقال عنها: إنّ التّضاد يمثّل العمود الفقري للفكر الأنثروبولوجي، وهو أسلوب لتوصيل الصّورة والمعنى.

ومن هنا، ولجت دراسة الخطيب إلى المفاهيم الإبداعيّة، مثل: المعجم اللغوي، وسمات التكرار الإبداعي للنص الشعري عندهم، إذ نلمس نوع التكرار أسلوباً أنثروبولوجياً؛ فمنه ما جاء في بيت واحد، ومنه ما جاء في بيتين، ومنه ما جاء في أكثر من نص.

واتماماً للدّراسة الإبداعيّة عند الشعراء الجوفيين، فقد وقف الخطيب عند التناص بأشكاله المتعددة في شعر الجوفيين، نحو: التّناص الدينيّ، والأدبيّ، والتّاريخي، والفلكلوري.

فاتخذ من التناص الديني عند الجوفيين طريقتين: الأولى التّناص مع قصص وأحداث القرآن الكريم، والثانية التّناص مع رموز وشخصيات دينيّة لها أحداث مشهورة.

بينما التّناص الأدبيّ، يشير إلى أنّ الشعراء

الجوفيين استثمروا انتماءهم لتاريخ أدبيّ ضخم، واستدعوا من ذاكرتهم الحيّة أشهر معاني أبيات شعرائنا الكبار، أو ألفاظها ومن ذلك قول الشاعر خلف العيسى:

الجهاد الوسيلة اشعلو ناره
يا حياة سعيدة يا عمر فاني

وهو تناص لقول الشاعر الفلسطيني عبدالرحيم محمود:

فإما حياة تسر الصديق
وإما ممات يغيظ العدا

ويتكرر الأمر مع التناص الأدبيّ، إذ تناص الجوفيون مع ثمود، وعاد، فهذا خالد الحميد يقول:

المواقف به بياض وسوادي
والمراجل من بغاها عمدها

.... إلى قوله:

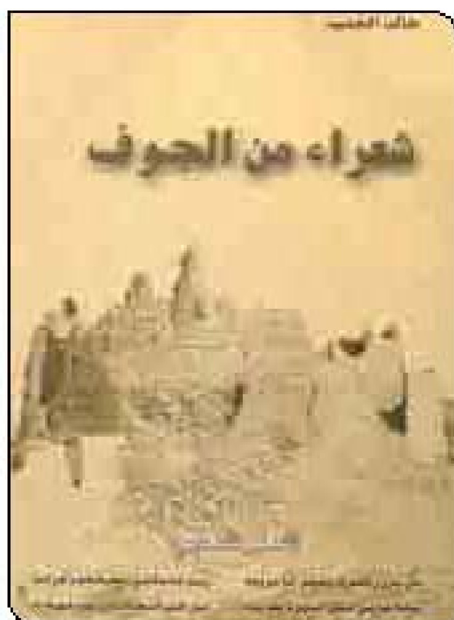
وارثينه من ثمود وعادي
من جدود تفعل الخير يدها

وقد تناصّت قوة رجال عرب اليوم مع رجال عرب الأمس، ثمود وعاد، ولا غرو على دين أجداده يسير.

وارتبط التّناص برابط مع استدعاء الشخصيات التّراثيّة التي استدعاها الشعراء الجوفيون من زاوية واحدة، وهي زاوية الحديث عن الشخصية، وليس الحديث من خلال الشخصية.

ولم يقتصر تناص الجوفيين مع السّابق فحسب، بل نلحظ أنّ للجانب الفلكلوري أثراً جلياً في شعرهم؛ فقصة: (حمار مدالله) كانت من أشهر القصص الواردة في أشعارهم؛ إذ تصدى أحد شعراء الجوف لتلك القصة، فقال:

يا أم العيون المظاليكي
وش جاك دون خلق الله



الناس تركب تنابيكي
وانت على حمار مد الله

ولعلّ الخطيب لم يغفل جانب الخيال والصّورة في شعر الجوفيين، وذكر أنماطها البيانيّة والبديعيّة والكنائيّة؛ ويدلل على ذلك بقول عيد الخمطي، عندما لدغته عقرب وهربت، ولكنّه بحث عنها ووجدها وقتلها، فقال:

يا كثرهم يا قلهم لا بغيتهم
مثل القبيس إلى تمزق طار

فشبّه كثرة الأصدقاء عدداً، وقلة وجودهم إلى جانبه وقت الحاجة لهم بالغيم الذي لا ماء فيه(القبيس)؛ فهم يطيرون وقت حاجتهم من حولك، كما تطير الغيوم الفارغة.

ويصرّح الخطيب عن أثر الصّورة الكنائية، في شعر الجوفيين، ويمثّل على ذلك بكناية: (صقر الجزيرة) كناية عن صفة الشّجاعة للملك عبدالعزيز يرحمه الله، ومن ذكرها الشّاعر خالد الحميد، فقال:

وحّده صقر الجزيرة بالكفاح
واستتب الأمن بأطراف الرّماح

وكذلك نقرأ من أشهر الكنايات أيضاً (وادي الكفاح) نسبة لموصوف الجوف.

أما الصّورة الجناسيّة فنلحظ أنّ المؤلف يقول: «يكثر تشكّل الجناس عند الشّعراء الجوفيين، فقد ورد الجناس عندهم بأنماط عالية الورود في الشّعر العربي القديم عند العرب، ومنه قول الشّاعر خالد البلهيد، يرثي والدته:

هزّ الخبر قلبي من أقصى رواسيه
وشبّت على وسط الضماير حريقه

ويختم الخطيب بقوله: إنّ هناك صوراً ورموزاً وموسيقى بديعة كثيرة في شعر الجوفيين، استثمروها من المحيط والبيئة المحيطة.

وأخيراً: توصل المؤلف من هذه الدّراسة إلى جملة من النتائج، تمثّلت بالآتي:

١- انتشار قصائد الحكمة، والوصايا في أشعار الجوفيين.

٢- بروز صور الموالاة في شعرهم وقصائدهم.

٣- غلب شعر المديح وشعر الوصايا على باقي الموضوعات؛ كالغزل والرثاء وغيرهما.

٤- اتكاء شعراء الجوف على أساليب الشّعر العربي القديم، وقدّموا صوراً وكنايات وجناسات قريبة للقارئ، روحاً ومعنى.

وأنهى الدّارس - الخطيب - مؤلّفه بملحقين: الأوّل كان مقابلة شخصية مع الشّاعر خالد الحميد، أما الثاني فقد احتوى على فهرس فنيّ للصّوّر الأنثروبولوجية التي وردت في الدّراسة.

وأثبت في نهاية الكتاب قائمة بالمصادر والمراجع التي عاد إليها في دراسته الفنيّة.

ونقف قبل أن نختم هذه القراءة عند نظرات ليس غرضها مصادرة حق الآخرين في الكتابة أو التحليل، بقدر ما يكون هدفها أولويات الإبداع والجمال للدراسة، فضلاً عن شمولها وخروجها إلى مصاف التكامليّة، ويمكن إجمال تلك النّظرات فيما يأتي:

١- يقول الباحث في المقدمة: إنّه قسّم الدّراسة إلى أربعة فصول، ولم نرَ إلا ثلاثة فصول.

٢- تجاهل الباحث - أحياناً- التّوثيق العلمي، على نحو ما نلحظ في صفحة (٢٤) إذ يقول: «ولقد سمّاه العلامة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) بالشّعر الشّعبي»، فكان الأجدر به أن يُرجع هذا الكلام إلى صاحبه من خلال ذكر المصدر، وهذا يتكرر في مواطن عديدة في الكتاب، انظر: صفحة (٢٧) عندما يقول: «فالشّعر كما يقول سعد خلي: حكمة وقول وإحساس».

٣- لو تأملنا في الفصل الثّالث (شعراء الجوف الأنثروبولوجية ثقافة إبداعيّة) ووقفنا عند دراسته للتناص في شعر الجوفيين، لرأينا أنّه أخفق إلى درجة أنّ همّه كان موجهاً إلى ذكر اسم التّناص دون أن يشير إلى الهدف المقصود من التناص أو الوظيفة الدلاليّة أو حتى نوعه الدقيق نحو التناص المباشر أو غير المباشر، أو التلميح إلى الدور الحقيقي الذي أضافه التناص للنص الشعري الجديد.

وخلاصة القول: يُعدّ هذا التّأليف -حقيقة- إضافة أدبية قيّمة للمكتبة السّعوديّة في مجال الدّراسات النّقديّة للشّعر النبطي السّعودي.

---

* كاتب من الأردن.

صورٌ من ذاكرةٍ على جدار أخرس

■ مياده إبراهيم قداح*

يكفي..

إذا لم يكن للوقت ساعة مخصّصة للفرح، اختر ساعة الغسق.. مثل عينين أرّقهما النّعاس؛ فغدا الحلم هو الوسيلة.. افعل كيمامة التقت به ذات يوم على كرسي لمنبر كان، وكان ما كان.. اسمع معي: بعد منتصف الليل بساعتين، من كلِّ ليلة، تمسك طرف الخيط بيدٍ من حرير، لقلبٍ كان يشبه طائرة ورقية، تترك له حرية الحركة ليطير، يبتعد أحياناً ويدنو أحياناً أخرى، ملوّحاً لها مثل ظل فارٍّ من ظله!

كطائر الفينيق، هاجر صاحب القلب الكبير في ليلة من ليالي الرحيل خلف جبال الألب، حتى لم يبق معها من أثره إلا بقايا خيط، ظل معلّقاً بإصبعها. كانت تنظر له وتقول: هذا الخيط ما هو إلا علامة ارتباط، أرادها القدر أن تبقى معي، يقيناً سيأتي.. صدقوني.

كانت تضم إصبعها بين دفتي صدرها وتنام، تتحدث للعابرين في حياتها.. إنه يأتيها كلّ ليلة، وحين تشرق الشّمس يرحل من جديد، فتنهض لعملها كوردة بعد ذبول.

في ليلة من الليالي، نهضت من على حافة الانتظار الذي طال، جلست بالقرب من جدار غرفتها، حيث راحت تتراءى لها صور على الجدار بأشكال مختلفة، تغدو وتجيء، تهمس أحياناً، أو تصرخ، وتصمت أحياناً أخرى.

كانت تأمل أن يتفجر من الجدار نبع ماءٍ، فتدهن منه أطراف أناملها لتتحول إلى طائر يلحق به أينما حل من دون أن يهبط. ولما كانت

الخطوط مشوّشة الملامح؛ نهضت مسرعة، أحضرت قلماً وريشة، راحت ترسم من دون أن تكل أو تمل. وحين تسربت الشمس إلى الغرفة كانت الصورة على الجدار الأول قد اكتملت.. وكانت صورته بهيئة ملاك، صورة لا تشبه إلاه. أغمضت عينيها وعلى ثغرها ابتسامة، ومثل طفل نامت. عند الثانية ظهراً من اليوم نفسه استيقظت لتجد نفسها أمام فراغ فوضوي قاتل، بيد أنَّ ما رسمته كان ما يزال يلوح على الجدار، أو ربّما يلوح في فراغ. مارست طقوس يومها بشكل اعتيادي، منتظرة فرحاً قد يأتيها ليلاً، فهي تكِدُّ في ساعات النهار كما لو كانت في حرب ضروس، كلما تصرمت ساعة انزاح همٌّ يجثم على صدرها حتى تغيب الشمس فتغلق بابها منتظرة الثانية ليلاً.

كان كلّ شيء مختلفاً ذلك اليوم، والوقت مرَّ سريعاً، أمسكت ريشتها من جديد، وبدأت ترسم على الجهة الثانية من جدار الغرفة ما يوحي لها من خطوط تلتقي تارة.. وتتقاطع تارة أخرى، حتى اختلط الأمر عليها؛ فما كانت تجد بداية من نهاية..!

راحت تصلّي أمامه علَّ من يستجيب، لكن الصمم أصابها وأصاب كلّ ما حولها، فانفجرت ببكاءٍ لم تعتده من قبل، وإذ بيد تخترق الجدار لترسم نهراً وأشجاراً، شمساً وقمراً، راح يضحك لها، وهي صارت تضحك معه، تحادثه، يحادثها، ويغيبان معاً، حتى تلوِّح الشمس بابتسامتها على أطراف تلة؛ فيأوي كلّ منهما إلى سريره، فينامان كنوم الملائكة أو الشياطين لا فرق بينهما، وما يزال الخيط معقوداً في إصبعها. ربّما عقدته الريح.. وربّما هي من عقده في لحظة من لحظات اللاوعي، ما نزال لا ندري. حين أحضرت عدتها في الليلة الثالثة مقرّرة رسم بداية لطريق واضح على الجدار الثالث؛ جفت الألوان، وقامت ترسم لوحتها بلون واحد، إلا أنه بانَ بلونه وشكله الحقيقيين «رمادي» لا أبيض لونه ولا أسود، مكفهر الوجه؛ كخريفٍ قلق ومقلق، على حد سواء.

أصابها هلع، ارتجفت.. كان يلّوح لها مودعاً من على أطراف غيمة خريفية اللون، كمارد خرج للتو من عنق زجاجة، بيدين تعانقان السماء، وقدمين تلامسان الأرض، ثمّ.. راح يتلاشى شيئاً فشيئاً. هاجت وماجت، صارت تتمدد وتتقلص كزبد البحر، لكن.. من دون فائدة ترجى.

كسرت قلمها، نتّفت ريشتها نتفاً، وبدأت تشهق ببكاء وعويل مريرين.. وكمغمية عليها غفت بالقرب من ذاك الجدار.

اللوحة الرابعة انتهت. والشمس أشرقت من جديد.

وحين استيقظت، كانت جدران الغرفة ما تزال تبكي على فراق ذكريات عامين، انصرما كومضة من عمر الزمان.

لكن الرجل المسؤول عن عملية طلاء الغرفة كان قد بدأ عمله كما طلبت منه أمها.

---

* قاصة من سوريا.

غيبوبة

■ عبد الرحمن الدرعان*

يقولون: إنك تفتح عينيك الرائبتين بدمعهما حتى بعد أن لوّحت لك بيدها، وأسدلت الحجاب على وجهها باليد الأخرى واختفت؛ وأنك كنت تغمغم: كيف أتيت؟ ومَن الذي أرشدك إلى أنني الآن في حالة احتضار؟! وأنك في أحيان أخرى تَفِزُّ من سباتك على نحو مباغت، وتجدّف على أناس غائبين، وتستدعي أسماء معينة تبدو لأشخاص مهمين، وحين تسأم من صمت المتحلقين حولك، تطلب السجائر بلغة الإشارة، وإذ يرديك اليأس تتوسّل الممرضات بصوت واهن:

«إذا لم تستطيعوا أن تحيوني، فاذبحوني لئلا أشارك في تشييع جثماني».

وحاولت أن تنزل عن ظهر السرير أكثر من مرة، غير أن الأربطة خذلت كل محاولاتك، وأنك آنئذ ثقبت هدوء الغرفة بنأمة مدبّبة وصغيرة.. أسندت رأسك إلى صداها، ودخلت في نفق الغيبوبة.

وفي الحلم، كان اسمها يتكرر كثيراً، شيء من أسرارك العاطفية يعتبره بعضهم فضائح، بدأ المرافق يطلع عليها.

---

* قاص من السعودية.

قصص قصيرة جدا

■ شيمة الشمري*

كان يا مكان

في البلدة الصغيرة، في العالم الكبير.. الحاكم نائم، واللصوص الكبار يُسرق لهم ! واللصوص الصغار يمرحون.. على ضياء ينبعث من تلك الأعين الحمراء التي يأكلها الظلام !

غيبوبة

لم تستقر الرصاصة في رأسي تماما، وعندما استقرت..

لم أعد أسمع.. لم أعد أرى.. لم أعد أتكلم.. لم أعد إليهم ؛ لكنني عدت !

موناليزا

تجلس متأملة ملامحهم.. وحركاتهم..

في عينيها حزن وغموض.. وعلى شفتيها ابتسامة مغتصبة...

كأنها تتأهب لعمل جنوني.. ربما تقفز خارج أسوار اللوحة !

ما يفعلون

يتسللون إلى أحلامنا، ويئدونها..

وعندما نحاول أن نحيا مجددا..

نحن لسنا على قيد الحلم !

هل حقا ؟

عندما أموت حتما سأكون مبتسمة..

الحياة والحزن وحتى الفرح،

لم أختر أيا منها.. لذا لن أشغل بتوديعها..!

لا مبالاة

وسط الأحداث أفقد أذني ولساني، وأبقى بعين واحدة وقلب.. منهما ينهمر نهران بلونين.. يأتون على مرأى من وجعي، ويغرفون من كل نهر حتى تمتلئ كؤوسهم؛ فيقهقهون ويشربون نخب عجزي !

---

* قاصة من السعودية.

قصة قصيرة:

زوبعة في قعر الفنجان



■ عمار الجنيدي*

- وأنت، هل تؤمن بهذه الخزعبلات؟

قال حازم، مستأنفاً حديثاً انقطع أغلبه، بعد أن اجتازت سيارتهما الصغيرة شارعاً ضيقاً يؤدي إلى القرية، إذ عقدا العزم على الذهاب إلى أم يحيى، لكي تقرأ لهما الطالع.

وتمهّل زياد قليلاً قبل أن يجاوب: إنها ليست كما تدّعي، لقد قرأت لي الطالع غير مرّة، وما خابت نبوءاتها أبداً. أنت لا تعرف أن قراءة الطالع تعتمد على العلم والكثير من الفراسة، لمعرفة الرسومات والأحرف المتكوّنة في قعر الفنجان، وعلى أطرافه وحوافه، لم تخب نبوءاتها مرّة واحدة، فقد كشفت لي الكثير من رتوش مستقبلي، قالت لي ستنجب زوجتك طفلاً ذكراً وستكون لك مع أحد أصدقائك مصلحة عمل تدرّ عليكما أموالاً ومكانة اجتماعية، وقالت أشياء أخرى كثيرة، وكما ترى يا صديقي فقد صدقت جميع نبوءاتها! أو على الأقل أغلبها، فكيف تقول عنها خزعبلات؟

ضحك حازم بصوت ينمّ عن امتلاء الضحكة وقال: إنها لا تعدو عن كونها خرافات تتكئ على الأكاذيب وتستند على الخداع، وبالتحديد خداع المغفّلين أمثالك، إنك تسيء إلى الحقيقة وتهين العلم عندما تقول أن هذه الخرافات التي تسميها قراءة الطالع تعتمد على العلم، أيّ علم هذا الذي يكشف مستقبلك من خلال رسومات عشوائية تكونت في قعر فنجان أنت أجهزت على ما فيه من قهوة، هذه الرسومات والتشكيلات العشوائية التي ليس لها نهاية ولا حتى بداية.

كانا صديقين في البداية، جمعتهما ظروف العمل في مصنع واحد، وبعد أن توثّقت عرى الصداقة بينهما كوّنا شركة مقاولات صغيره بحجم الأموال التي جمعاها خلال السنوات الطويلة من العمل الشاق المضني، وأخذ النجاح يحالفهما منذ المشروع الأول.

كانت المشاريع الصغيرة محط أنظارهما في بداية المشوار، لكن الطموحات بالحصول على مشاريع أكبر تناسب حجم النجاح الذي حظيت به الشركة، أخذت تتوسع وتنمو مع مرور الزمن

زاهدين بنصيبيهما من المشاريع الصغيرة، بعد أن ظفرت الشركة بالحظوة والاحترام، لكن التخوّف من أول مشروع ضخم سيواجهانه جعل حازم يتأرجح بين تردد وإحجام، فانتهز زياد الفرصة وخبّره عن قصة أم بدوي التي تقرأ الفنجان وتكشف خفايا المستقبل من خلال الرسومات والأشكال المتبقية في الفنجان مبدياً رغبته في الذهاب إليها، ومعرفة ما ستؤول إليه الأمور.

كانت السيارة تناضل من أجل الصعود إلى القرية، ويبذل حازم قصارى جهده بالابتعاد قدر الممكن عن الحجارة والصخور التي تزدحم بها الطريق حرصاً منه على السيارة القديمة.

نظر حازم إلى الساعة الإلكترونية المثبتة على لوحة القيادة وقال:

- ألا ترى أنه من العبث بوقتنا الثمين أن نجلس مع تلك العرّافة ونبدده بالاستماع إلى بدعها، مدعية أنها تقرأ حظوظنا؟

قال زياد مدافعاً عن أم بدوي: إنها ماهرة جداً في قراءة الخافي من أمور المستقبل، وتتقن ببراعة تحليل الرموز والأشكال، وأنا أعرف ذلك بحكم تجاربي معها.

تثاءب حازم بهدوء وقال مبدياً عدم ارتياحه للفكرة: ومع إيماني المطلق بأن قراءة الفنجان ما هي إلا محض خرافة واستغلال لجهل الناس وبساطتهم، إلا أنني سأسايرك هذه المرّة، وسنرى ما تحذفه علينا تلك العرافة من خيالها الرحب في ابتداع الخرافات على أنها حظوظ.

قال زياد بلهجة المحتج: ولماذا تحاملك عليها وقد أثبتت التجارب الكثيرة أنها متمرسة في هذا العمل؟ إن لها عينان ثاقبتان تجوسان نبضات الرموز والأرقام، دعك من هذا التخوّف. ها قد وصلنا.

ترجّلا من السيارة. نظر الناس إليهما، أعجبوا بالمهابة والوقار اللذين يتحليان بهما. بُحّ صوت الجرس وهو يزعق على أهل البيت. وأخيراً جاء الفرج:

- أهلاً، أهلاً عم زياد. تفضّلا.

قالها طفل أشعث؛ عيناه تدوران في محجريها، كعيني لصّ متمرّس في اللصوصية، وقد بدا واضحاً جداً أنه لم يغتسل منذ أيام.

- هل أمك في البيت يا بدوي؟

- نعم إنها هنا.

تفضل حازم وزياد بالدخول بعد أن دفع حازم بدينار إلى بدوي، وقفز هذا الأخير فرحاً وطار إلى الدكان صافقاً الباب خلفه.

استقبلتهما أم بدوي بالترحاب والتهاليل وجلسا بمحاذاة شاب في مقتبل شبابه.

- «معدلك فوق السبعين إن شاء الله».

تهلل وجه الشاب فرحاً، وشكرها كثيراً وأنقدها بضعة دنانير لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة. أمسكت الدنانير ودستها في جيب دشداشها الطويل وهي تقول:

- «الهدية الكبيرة يوم النتائج»..

- غداً ستظهر النتائج يا أم بدوي، ادع لنا.

وشيّعته إلى الباب وهي تدعو له بالنجاحات.

أحضرت أم بدوي القهوة لضيفيها، ولم يترك لها زياد مجالاً للثرثرة فبدأ حديثه قائلاً: هذا الأستاذ حازم، شريكي، سنذهب اليوم للاشتراك في مناقصة كبيرة، ولكن قبل أن

نذهب نريد التأكد: هل سيرسو العطاء علينا أو ربما لا يكون لنا في الطيّبات نصيب.

- اشربا القهوة إذاً.

وشربا حتى الرشفة الأخيرة. وقلبت الفنجان الأول كما هو متّبع وعلى الطريقة السائدة. نظرت في الطلاسم. جال بصرها في قعر الفنجان. تدحرج الفنجان ككرة في يدها، ثم قالت: الخير من عند الله يا سيد حازم، وأنا أرى زوبعة في فنجانك، وهنا أيضا حمامة بيضاء، أنظر إليها.

نظر حازم إذ أشارت فأبصر من بين الطلاسم شيئاً ما يشبه الحمامة إلى حد بعيد. هزّ رأسه علامة أنه رأى ما أشارت إليه، وتابعت قولها: وهنا أيضا مظروف كبير تقبض عليه يد بقوة، لعلها يدك يا سيد حازم.

وهنا تحسّس حازم يده وتناثرت علامات الرضا والاقتناع على وجهه.

تناولت أم بدوي فنجان زياد وفعلت به الأعاجيب: أخذت تشقلبه وتبعده عن مستوى بصرها. تقربه ثم تشقلبه ولسانها يلهج بالبسملات والتحميدات، ثم لعقت إبهامها وداست به قعر الفنجان وقالت: خبر هام سيصلك قريباً أو رسالة.

صمتت برهة ثم أضافت: مبلغ من النقود في طريقه إليك.

نظرت إليه بطرف عينيها لترى وقع كلماتها، فرأت علامات الرضا والسرور من خلال ابتسامة عريضة تكوّنت على وجهه الصغير، وأردفت وكأنها لتؤكّد: طبعاً لن تنس أم بدوي عندما تملك النقود.

ضحك حازم ضحكته المعهودة، بينما قام زياد ودفع إليها يده الممسكة بعشرين دينارا، كذلك فعل حازم ووعدها بالمثل عندما يحصلا على المناقصة.

عبر ممر ضيّق وغير معبّد كانت السيارة ترفس الأتربة وهي تدخل إلى القرية في صبيحة اليوم التالي، وكان حازم يتميّز من الغيظ والغضب، والنفور واضح على تصرّفاته وهو يكظم غيظه بحدّه.

وقبل أن يقف بسيارته أمام منزل أم بدوي أطلّ برأسه من نافذة السيارة فرأى الشاب الذي قرأتْ بالأمس أم بدوي طالعه.

ناداه حازم، وقبل أن يتفوّه بكلمة واحدة بادره الشاب بالقول:

- أهلا. لقد رأيتك بالأمس مع رجل آخر عند أم بدوي، ترى أي ريح أتت بك إلى هذا المكان المقفر؟!

- إنه مقفر حقا. ففي هذا المنزل استوطنت امرأة خبيث. أريد أن أسترد منها الأربعين ديناراً التي استولت عليها بالأمس منّي ومن شريكي.

- لماذا؟

- لماذا!! لأنها قالت لنا أن المناقصة سترسو علينا، وفي الواقع فازت بها شركة منافسة. كانت تتحدث عن زوبعة في فنجاني وعن حمامة وأشياء أخرى ونحن نسمع لها كالأبلهين. ولكن أنت، أتريد منها شيئاً في هذا الصباح الباكر؟

- نعم. أريد أن أسترد الأربعة دنانير التي أعطيتها بالأمس.

- لماذا؟

- لماذا! لأنني رسبت!!!

* قاص من الأردن.

نقشٌ على القلب

■ سليمان عبدالعزيز العتيق*

أنَقْشٌ على القلب.. هذا الأسى؟
وحَفْرٌ بتجويفةِ الروح..
هذا الحنينْ؟
أفي كل يومٍ تنادمُك العبَرَاتُ..
وتُلهمُك الخَطَرَاتُ..
لتكتبَ ذكراكَ
للراحلينْ؟
يُذكّرُك الشجرُ الذي في البراري
وتُشْجيكَ الحمائمُ فوق الغصونْ
ويجرحُك الليلُ في خدرهِ
وفي زحمةِ السوقِ
والعابرين
ووحدَكَ، تقتاتُ حزنَ الأماسي
تُجرّعُ كاسات وجد دفين
أنَقْشٌ على القلبِ.. هذا الأسى؟
وحَفْرٌ بتجويفة الروحِ..
هذا الهُيامْ؟
وحشدٌ من الشوق مرّتْ به
طيوفٌ عليكَ.. تديرُ السلامْ
تُجافيْكَ بالليل طعمَ الكرى
تُحرّضُ عينيكَ ألّا تنامْ
تُساقيكَ.. والكأسُ بعد العشياتِ
تلافيفُ عشقٍ وطعمُ نَوى
ورجعُ جَوى
لتَنْزِفَ آهات شعر حزينْ
أقلبُكَ يلتذُ طعمَ الضَنَى؟
وتُسكرُهُ خفقاتُ الأنينْ
وتجمعُه الذكرياتُ الغَوالي
وتنثرُه وحشةُ
الغائبين
ويسفحُ دمعكَ هذا الهوى..
وصوتُ غنائكَ:
هل تذكرينَ؟
أما ترعوي أما تستحي،
أما يخجلُك الشيبُ
عبرَ السنين؟

---

* شاعر من السعودية.

وأخيراً وليس آخراً

■ موسى بن عبدالله البلدري*

حبيبي!
جئتنا أهلاً!
فاترعْ كأسنا
وصلاً!
أحقاً
أنتَ في القربِ؟!
و صارت مهجتي جذلى!
لقد أفعمتُ نفسي
بالهناء الحلوِ
يا أحلى
فمن دهرٍ
و نفسي ترتجي إحساسك الأغلى
أيا حلوُ إذا ما شئتُ شيئاً لا تقلْ: كلاّ!
فإنّ الليلة الحسناء إن تنعمْ
تكنْ أحلى
و منذُ الآن
أبصرتُ عذاب الصرمِ
قدْ ولّى
و منذُ الآن
أبصرتُ جميل السعْد
قدْ حلاّ
و منذُ الآن
أبصرتُ بأنّ الحسْن قد جلاّ
و منذُ الآن.. أبصرتُ
عطاء الحبِّ قدْ

هلاّ
و قد أثمرَ إحساناً
و قُدماً
صنتُه.. فغلا
و قُدماً كان في قلبي حبيسَ الصوْن
لا يبلى
و أسقيه غناء الآه
في صغره نبْلا
إلى أنْ
كبُرَ الحبُّ
بماء الصبْرِ مبتلاّ
نداه الأملُ الفذُّ
و لو غيري
إذن..
ملاّ
إلى أنْ يرعمَ الحُبُّ
وراح الحُبُّ
للأعلى
و مدّ الفرْعَ فرحانَ
و قدْ أصبح لي ظِلاّ
و قدْ أرّجَ
أشواقي ورودا
تزيدي الفلاّ
و ها نحنُ حبيبي نقطف الأثمارَ لا
مهْلاً..!

* شاعر من السعودية.



لا شيء في غمراتها

■ أحمد الخطيب*

خِلسةً أقبِضُ الأشياءَ وهيَ تَغُطُّ في
أحلامِها
دونَ أنْ تدري بأنّي لا أذودُ عن الغيومِ
شرارةَ الإيقاعِ
خلسةً أهوي إلى وادِ المساءِ
أُريقُ هذي الأرضَ عن جنبي
وأسطعُ بالذي ما رنّني
لجريرتي وبقاعي
خلسةً لا أسترِدُّ تلصّصي وشراعي
لكنّني
في قاعِ هذا الوادِ
أقرأُ حيرتي وضياعي
أنا صُرّةُ الحدْسِ الذي علّمتُهُ أنْ
يهتدي برؤى أبي
وركنتُهُ في آخرِ المعنى
لأشطبَ هامشي ومتاعي
هو هكذا
صبّارتانِ على جدارٍ هالكٍ،
وقصيدةٌ فتحَ الحنينُ على يديها، واختفتْ
فمكثتُ أشربُها
على مَهَلٍ
ولي أشباهُها،
والنايُ حتوُ النايِ يبري صورتي
ويراعي
لا شيءَ يُغضبني أنا الصوفيُّ
مزلاجي وقوعُ النهرِ في بحرٍ هلاميٍّ
لأركبَ ما أرى من صورةِ الينبوعِ
هذا السيلُ يشبهُ
- هل تَرينَ - تقوُّسَ الأسماءِ وهي
تحطُّ في غمراتِها
وتصدُّ عن بابي قناعي؟
لا شيءَ
في غمراتِها
غيرُ الأقاعي!!

---

* شاعر من الأردن.



نهر قديم

■ جمال الموساوي*

نهر قديم يتبعني،
لست
صاحب فلك،
ولا
بطلاً من الأساطير،
فقط
ثمة ما يتساقط من علٍ
لا هو منٌ
ولا هو سلوى،
نهر قديم يتبعني
وصفير،
كأنني خارج النسق المفترض،
أو كأنني الهارب الفعليّ
من جزيرة البنفسج
لكنني لست صاحب فلك
ولا يد لي في كل ما يحدث،
فكرة في أعلى السلّم
في شرفة،
في سحابة،
مطري،
عجلتُ إليك
كان براقاً ما
كان،
واحتشدتُ في اللغة
وحيداً مثل جملة اعتراضية،
«أحبك كثيراً،
لنعد إلى الديار»
آخر كلمات البطل في فيلم الليلة،

قلب متوتر
ونهر قديم يتبعني
ثمة شامة على وجه الماء
مفقودة،
ووقع أقدام بأثر قليل،
الورد في أقصى الخطوة
بينما تشرد واحة في الصحراء التي
تهب في لهاث التعب،
إلى الصخرة،
لما أصاب القلبَ نصبٌ
أوت فتنة الوقت،
لم يكن
ثمة ما يدلني..
لم يكن ثمة عبد صالح
يعلمني مما يعلمُ،
لكنني على هدى
أو على الأرجح، مددت يداً
في لُجج الضلال
وكأنني انكشفتُ،
يهرب العاشق من زلة القلب،
نهر قديم يتبعني
بينما أختلس الخطوة فالخطوة
ثمة حياة أسفل الهاوية
بكعب عالٍ،
وأنا ألفت الخسارة:
قلب متوترٌ
وغيمةٌ متنقلةٌ
من غبارٍ.

---

* شاعر من المغرب.



حوار مع الفنانة التشكيلية

تغريد الجدعاني

الفنانة تغريد الجدعاني، توثّق لنفسها حضورا متميزا، في فضاء الفن التشكيلي، وهي تؤمن أن الفن مرآة لحياة الفنان؛ لذا، فإن التجريب يليق بـ«قلقها» الفني التجريبي.. وبسؤالي عن تجربتها المعنونة بخواطر، قالت: «تبلورت تجربة «خواطر» الفنية التشكيلية في صور العلاقة الجمالية والخيالية بين انفعالات الخطوط في الفراغ وإسقاطات المعنى النفسي والفكري للشخصية، في مجموعة خاصة من اللوحات الفنية التي تشكلت بروح الحبر الأسود، على مساحات الورق البيضاء، في نظم متناسق تمثل قصائد تشكيلية، تضمنت المحتوى النفسي والفكري للتجربة الإنسانية التي عشتها في فترات زمنية متعاقبة؛ لتعيد صياغة الواقع بكل جمالياته ومفارقاته الزمنية والمكانية».

الفنانة تغريد لها مشاركات في المعارض المحلية والدولية، كما حصدت الكثير من الجوائز ومنها جائزة اقتناء لمكتب الأمير عبدالعزيز بن نواف بن عبدالعزيز آل سعود، وجائزة اقتناء لوكالة وزارة الثقافة والإعلام للشؤون الثقافية (المعرض الرابع للفنانات التشكيليات) لوحة (رؤية) اقتناء من سمو الأميرة نوف بنت مقرن بن عبدالعزيز آل سعود. وهي تشغل منصب محاضرة بدرجة دكتوراه بكلية التصاميم والفنون بجامعة الملك عبدالعزيز.. هذه إضاءة قد تقودنا لعالمها، وكبوابة لهذا الحوار..

■ حاورها عمر بوقاسم - السعودية

القراءات النقدية، الفنانة الدكتورة تغريد الجدعاني، ماذا تقول في هذا الاتجاه؟

■ اعتقد أن الفن هو نتاج حراك اجتماعي فكري إنساني، يتفاعل مع التغيرات والتطورات التي تؤثر وتتأثر به عبر التاريخ، والمجتمعات الإنسانية في الفترة الحالية تواجه ركودا وجمودا، وتكاد تكون الحركات الفكرية والاجتماعية في حالة نكوص إلى فترات زمنية سابقة، تستند عليها وتستقي منها فكرها ونتاجها، في ظل الفقر الكلي الذي يعيشه عالمنا اليوم، لتحقيق الاستمرارية ولو في حالة ضعف بدلا من الموت والتوقف تماماً! ولكن مثل هذه الانتكاسات غالباً ما تتزامن مع بدايات ثورية قوية تنضج في العمق ببطء، وسرعان ما سيتغير حال الفن التشكيلي خلال السنوات القادمة، وتنطلق حركات جديدة تعيد للفن الحيوية والقوة لإنتاج الجديد والمختلف.

بين ألواني وريشتي ومساحات اللوحة الحرة، أجدني أملك إمكانية صياغة فكري بالطريقة التي تناسبني، وأشكل بفني واقع الآخر!

سوف تشهد الساحة الفنية العربية والعالمية نقلة حديثة ستغير معايير الفن، وتضع مفاهيم جديدة للفنان والمنتج الفني

أصبح الحضور الفني التشكيلي السعودي يتجاوز الحضور العربي في كثير من المحافل الفنية العالمية، لما له من تميز وخصوصية

مهتمة حالياً بعمل شراكات فنية بهدف تطوير الساحة التشكيلية وإعادة صياغتها فكرياً وثقافياً للارتقاء بالفنان التشكيلي

«الفن».. يتأثر ويؤثر

● «الفن التشكيلي عاجز عن أن يأتي بجديده» مضمون هذه العبارة تكرر في عدد من

الساحة ما يميزها الروح الشابة الفنية!

● لديك الكثير من المشاركات المتميزة في المعارض المحلية، قصدتُ من الإشارة لهذه المشاركات اقترابك من الساحة الفنية، ما تقييمك لساحة الفن التشكيلي





السعودية مقارنة بالساحات العربية؟

■ الساحة السعودية تشكل أرضاً خصبة متجددة ومتنوِّعة، تواكب التطورات في الساحات الفنية التشكيلية على المستويين العربي والدولي، تميزها الروح الشابة الفنية علماً وفناً، والتي قادت حركة الفن التشكيلي السعودي لتخترق به الساحات الفنية في العالم بجرأة وفرادة، جعلت الفنان السعودي جزءاً من الرؤية العالمية المعاصرة بثقافته وفنه وأصالته. وأصبحت اللوحة التشكيلية السعودية تحتل مكانتها إلى جانب أشهر اللوحات للفنانين العالميين في صالات أوروبا وأمريكا وآسيا، وبذلك أصبح الحضور الفني التشكيلي السعودي يتجاوز الحضور العربي في كثير من المحافل الفنية العالمية، لما له من تميز وخصوصية جعلته يتجاوز مرحلة المقارنة العربية، إلى تحقيق الهوية الفنية الخاصة التي جمعت الأصالة العربية ذات الطابع الخاص، والمعاصرة الغربية المتجددة.

نضجت مع تطوري الشخصي

● لكل فنان موعد وطقس خاص مع ريشته وألوانه، أي علاقة الفنان بلوحته. الفنانة



تغريد، ماذا تبوح لنا تحت مظلة هذه التفاصيل؟

■ علاقتي بالفن نضجت مع تطوري الشخصي عبر سنوات ترافقت فيها ممارسة الفن مع تجارب شخصية متنوعة ومتعددة، وتمرحلت في عدة انتقالات شكّلت كل مرحلة الوعي الفني الذي تصوّره لوحاتي بألوانها وعناصرها وفراغها الناطق، إذ إن شخصيتي الفنية تجد مكانها في مساحات الفكر والعمق الذاتي. هناك أحقق الإحساس

بالحرية والجمال، وأتجاوز المحدود إلى اللامحدود ، وبين ألواني وريشتي ومساحات اللوحة الحرّة أجدني أملك إمكانية صياغة فكري بالطريقة التي تناسبني، وأشكّل بفني واقع الآخر الذي يبحث عني في لوحاتي.

- برأيك هل الإعلام يقوم بدوره تجاه الفن التشكيلي بالشكل الذي يثقف العين وإكسابها الأدوات لقراءة الأعمال التشكيلية؟

■ يؤدي الإعلام السعودي حالياً مبادرات عديدة لتغطية المجال الفني التشكيلي، من خلال البرامج الثقافية التي تقدم للفنانين السعوديين والمعارض التشكيلية، بصورة أعتقد أنها تسهم في تثقيف المجتمع حول الفن ودوره في خدمة المجتمع والارتقاء بالذوق العام والتطور الحضاري والإنساني. وهناك برامج تستضيف نخبة من النقاد الفنيين السعوديين والعالميين الذين لهم باع في مجال النقد الفني واتجاهاته المختلفة.



مواقع التواصل في المرتبة الأولى..

- ما المواقع التي تهتمين بزيارتها على الشبكة العنكبوتية؟

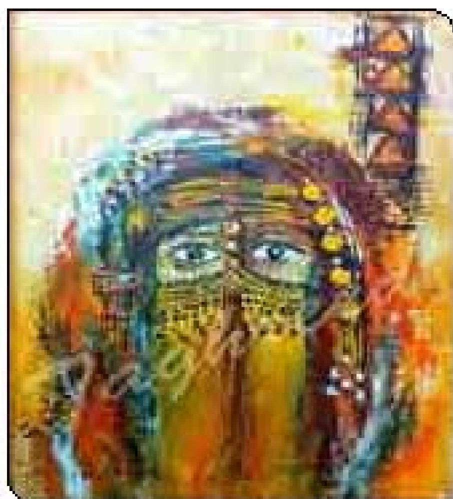
■ بالطبع تحتل مواقع التواصل الالكتروني المرتبة الأولى في أولويات زياراتي للشبكة العنكبوتيه (الفيس بوك، التويتر)، إذ أن نشاطي الشخصي متركز غالباً في نشر محتويات ثقافية وفنية وعلمية في مجالات متنوعة تسهم في خدمة الفكر وتطوير الفرد وتنمية الإمكانات لجميع فئات المجتمع، وبخاصة الشباب، إضافة إلى التواصل والإطلاع على المواقع العالمية المهتمة بالفن التشكيلي والمواقع الثقافية بشكل عام.. سواء العربية أم العالمية.

«خواطر».. تشكلت بروح الحبر الأسود..!

- من خلال تجربتك المتميزة المتميزة والمعنونة بـ«خواطر» وأنا أتصفح رسومات هذه التجربة، وكذلك من خلال تعليقك السريع على هذه التجربة، شعرت على أنك تراهنين بما تحويه هذه التجربة من عمق، على عدة مستويات؛ سواء على مستوى الأفكار أم الأسلوب، ما أبعاد هذه التجربة؟

■ تبلورت تجربة «خواطر» الفنية التشكيلية









معيار الحكم على أصالة الفنان وفنه، يتوقف على مستوى تقييم الجوائز والقائمين على الإعداد للمسابقات والمعارض التشكيلية!

«خواطر».. لوحات فنية تشكلت بروح الحبر الأسود على مساحات الورق البيضاء وتمثل قصائد تشكيلية تضمنت المحتوى النفسي والفكري للتجربة الإنسانية التي عشتها

الساحة التشكيلية السعودية ما تزال قاصرة ونخبوية وربما غير عادلة في حق الفنان التشكيلي وإنتاجه الفني

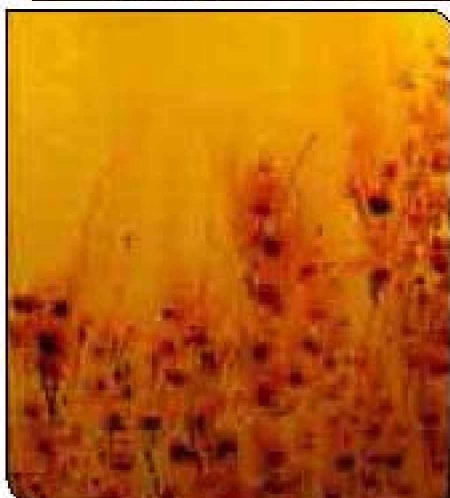
في صور العلاقة الجمالية والخيالية بين انفعالات الخطوط في الفراغ وإسقاطات المعنى النفسي والفكري للشخصية، في مجموعة خاصة من اللوحات الفنية التي تشكّلت بروح الحبر الأسود على مساحات الورق البيضاء، في نظم متناسق، تمثّل في قصائد تشكيلية تضمنت المحتوى النفسي والفكري للتجربة الإنسانية التي عشتها في فترات زمنية متعاقبة، لتعيد صياغة الواقع بكل جمالياته ومفارقاته الزمنية والمكانية، وحددت تقنيات العمل الفني بطريقة خرجت عن المألوف في الطرح الفني التشكيلي السائد في الساحة التشكيلية السعودية؛ لتُحدِّدَ مساراً فنياً خاصاً يعكس هويةً فنيةً تشكيليةً ذات تميز يجعل لها وجوداً مختلفاً وطابعاً مؤثراً.

ثقافة الاقتناء ما تزال قاصرة ونخبوية!

- **هل كمية اقتناء اللوحات للفنان وحصد الجوائز دليل أو معيار لنجاحه؟**







- يتوقف معيار الحكم على أصالة الفنان وفنه على مستوى تقييم الجوائز والقائمين على الإعداد للمسابقات والمعارض التشكيلية، كذلك اقتناء اللوحات الفنية يتأثر بطريقة التسويق التي يقدم بها الفنان في الساحة الفنية والفرص التي تتاح بصرف النظر عن جودة المنتج الفني وأفضليته. إذ أن ثقافة الاقتناء في الساحة التشكيلية السعودية ما تزال قاصرة ونخبوية، وربما غير عادلة في حق الفنان التشكيلي وإنتاجه الفني.

مكتبتي متنوعة..!

- وهل لنا أن نتعرف على ما تحتويه مكتبتك؟

- بحكم التنوع في المجالات العلمية والثقافية والاهتمامات الشخصية، إضافة إلى مجال الدراسة والأبحاث العلمية، فإن مكتبتي تضم مجموعة من الكتب في مجالات الفن التشكيلي، وعلوم الإسكان والعمارة والتصميم الداخلي، وعلوم تطوير الذات وتنمية الإنسان وتحليل الشخصية، وعلوم الإدارة والتخطيط، والعلوم الإنسانية بصفة عامة والأدب والشعر.

الفن التشكيلي المعاصر يرافق التغيرات..!

- في ظل التغيرات التي يشهدها العالم العربي سياسياً واقتصادياً، هل برأيك سينعكس أثر هذه التغيرات على الإبداع الفني والخطاب الإبداعي بصفة عامة؟

- بما أن الفن هو الحياة وانعكاس جميل لكل تصوراتها المختلفة، ومرآة للمجتمعات الإنسانية وتاريخها عبر العصور، فإن الفن التشكيلي المعاصر يرافق رحلة التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ينمو معها ويقوى بقوتها ويضعف بضعفها، وسوف تشهد الساحة الفنية العربية والعالمية نقلة حديثة ستغير معايير الفن، وتضع مفاهيم جديدة للفنان والمنتج الفني، قد تختلف كليا عما كان



عليه الفن في الفترات الماضية، لصياغة عالم جديد بفكر جديد.

تنمية الشخصية وتطوير الذات

● ما الفضاء الآخر الذي تحضرين فيه غير فضاء الفن التشكيلي؟

■ منذ فترة اتخذت توجهاتي مساراً جديداً ركزت فيه على الاهتمام بعلوم تنمية الشخصية وتطوير الذات، وتحسين المجتمع، من خلال إعداد برامج تطويرية تحفيزية، وتقديم مجموعة من الدورات التدريبية المتنوعة في مجالات اكتشاف الذات الإنسانية وتحسين تكيّفها مع الحياة، إضافة إلى برامج في التخطيط وإدارة الموارد الأسرية والفردية. وأسعى بإذن الله إلى ربط برامج التطوير الذاتي بالفن التشكيلي وتطوير الساحة التشكيلية وتنميتها فكرياً وثقافياً.

جمعية لتنمية الوعي..!

● وماذا عن خطواتك الجديدة؟

■ خطواتي الجديدة تهدف إلى تأسيس جمعية لتنمية الوعي الفكري في المجتمع، كما أنني مهتمة حالياً بعمل شراكات فنية تهدف لتطوير الساحة التشكيلية وإعادة صياغتها فكرياً وثقافياً للارتقاء بالفنان التشكيلي وإنتاجه ليواكب التطور العالمي.





حوار مع الناقد والأكاديمي المصري

د. مصطفى الضبع

يظل واحداً من أهم النقاد على الساحة المصرية والعربية، ممن ارتبطت باسمهم سجلات الإبداع النقدي ومساجلات الدراسات الأدبية والبلاغية؛ وهو رغم انشغالاته الأكاديمية كمحاضر وأستاذ للأدب العربي في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ورئيس لقسم البلاغة والنقد والأدب المقارن بكلية دار العلوم بجامعة الفيوم في مصر، إلا أنه فريد متميز فيما يقدمه لمهنة النقد من جهد حثيث متواصل، يتطلع من خلاله لترسيخ كيان نقدي متكامل على المستوى العربي. سيرته الوظيفية لا تخلو من مناصب الرفعة والسمو، كما لا تخلو سيرته الإبداعية من جوائز التكريم والاعتراف بالفضل. إنه الأستاذ الدكتور مصطفى الضبع، الذي يرى في مهنة النقد فرصة مشرعة الآفاق لكل مَن يرغب مخلصاً في إعادة هيكلة الوعي العربي وصياغته، وفق معطيات الذوق الرفيع والتذوق الراقي البديع. «الجوبة» التقته بالقاهرة وحاورته في شئون الثقافة والنقد والأدب.

■ حاوره: محسن حسن - القاهرة

● **بداية، ما سر تراجع الحركة النقدية في العالم العربي، قياساً بحركة الطباعة والنشر؟**

■ لدينا مجموعة من العوامل يأتي في مقدمتها التعليم وما يتسم به من جمود، رغم ما يتاح من إمكانات؛ فيوم أن كان في مصر خمس جامعات فقط، شهدنا حركة نقدية كبرى في مصر والساحة العربية، أما اليوم ففي مصر والعالم العربي مئات الجامعات الحكومية والخاصة، ومع ذلك تتسم مساحة النقد بالتضاؤل والضعف.

- يحلم بمشروع نقدي يعيد تشكيل خارطة الأدب العربي على أسس علمية ويقول: الأدب السعودي على الطريق الصحيح، وروائيو الخليج إضافة كبيرة للسرد العربي.
- النخبة مسؤولة عن تغييب الجماهير، وأزمة القارىء العربي في هواة التغريب باسم الحداثة.
- يخطيء الكتّاب حين يقّصرون أدوراهم في التنوير على مجرد الطبع والنشر.
- لدينا أساتذة في النقد، لكن لدينا أيضاً جامعات لم تقدم ناقداً واحداً منذ نشأتها.
- في مصر نقاد أسهموا في ظهور دخلاء على مهنة الأدب، ودعاة النقد أساءوا للمشهد النقدي والإبداعي.
- النقد المؤسسي لا يخدم الإبداع، ورقابة الناقد الفرد هي الأولى بالاهتمام والرعاية.
- انبهارنا بمحفوظ الكاتب شغلنا عن الاستغراق في محفوظ التجربة والإنسان.

ثم يأتي تراجع التربية، وغياب القراءة بوصفها الوسيلة الأهم في تنشئة المواهب وتنمية الذائقة منذ الصغر، لتتسع عوامل القصور؛ هذا إضافة إلى افتقاد منظوماتنا الإعلامية بعامة وصحافتنا الأدبية بخاصة، إلى مشروع نقدي ينتج نقّادا، ويجمع بين الأجيال.

● على ذكر النقد، هل من اقتراح عملي ما لاستنهاض الحضور النقدي ومعالجة الأخطاء؟

■ نعم بالتأكيد، فأنا أقترح أن تقوم إحدى الدوريات العربية بتبنّي مشروع نقدي يقوم على استكتاب عدد من النقاد من أجيال مختلفة، يعمل على إعادة تشكيل الخارطة الإبداعية، والكشف عن المناطق غير المأهولة؛ وللعلم المشروع خِططه حاضرة وجاهزة لمن يريد العمل.

● لكن ماذا عن عوامل القصور المعلوماتي على المستوى النقدي؟

■ في الحقيقة تضاف هذه العوامل إلى سابقتها مما ذكرت؛ فهناك غياب شديد لقواعد البيانات؛ إذ لا يجد الباحث في النقد وغيره أي قاعدة بيانات أو ببليوجرافيا، تمده بالمواد الأولية للبحث العلمي، وبخاصة ما يتعلق بقوائم المبدعين وأعمالهم. ومما يصعب الأمور أكثر وأكثر أن الكتاب أنفسهم يقصرون في حق أعمالهم، ويعتقدون أن مجرد نشرها يعني انتهاء دورهم. وحتى دور النشر.. هي الأخرى لا تهتم بخدمة ما بعد النشر، مكتفية بالحصول على حقوقها المادية من الكاتب قبل النشر، ومن ثم لا يعنيها وصول الكتاب للقارئ بعد النشر، ولا تقديم العمل بما يليق به نقديا من عقد ندوات أو نشر مراجعات.

● كيف تقيّم أمانة النقد والناقد عربياً؟

■ على المستوى العربي تتباين العملية النقدية في مستواها بين الضعف والقوة، بين الأمانة وما دونها؛ فمشكلتنا النقدية تكمن

في افتقادنا - عربياً - لأمرين أراهما أساسين في حياتنا: الأول غياب المشروع النقدي القادر على القيام بدوره تجاه الإبداع، والثاني افتقادنا للوعي النقدي الذي يعمل على توسيع مفهوم النقد، لينجز مراجعة شاملة على كل أمور الحياة، وما أحوج ثقافتنا وتاريخنا إلى المراجعة والتحليل والاستكشاف؛ فالشعوب لا تتقدم إلا بمراجعة دائمة عبر عملية نقد ذاتي تستثمر وعي النقد بالكثير من الأمور.

● هل أنت راضٍ عن المخرجات النقدية حالياً؟

■ بالطبع لست راضيا؛ فالتعليم ما قبل الجامعي ثم الجامعي ثم وسائل الإعلام جميعها تشاركت في قتل الذائقة لدى المتعلمين، ورغم هذا الكم الهائل من الجامعات، ومن كليات الآداب، ومن أقسام اللغة العربية وأقسام الآداب المختلفة، إلا أنه توجد لدينا جامعات لم تقدم ناقدا واحدا منذ نشأتها؛ نعم لدينا أساتذة في النقد، ولكن ليس لدينا نقاد من خريجي المؤسسة الأكاديمية بالقدر الذي يليق بتاريخنا الأكاديمي أو بعدد جامعاتنا، وقد كان من المفترض أن تتكفل كل جامعة بتقديم ناقد واحد كل خمس سنوات، ولكن لم يحدث.. فقط نملك المميزات ولا نستثمرها!

● في رأيك هل أسهم النقاد المصريون في ظهور دخلاء على مهنة الأدب؟

■ بالتأكيد؛ فقد كان للشللية والادّعاء الدور الأكبر في وجود كثير من الدخلاء، الشللية تدفع فواتيرها على حساب الأدب؛ ما يعني صعود أعمال ليست جديرة بمستوى وضعت فيه؛ والادّعاء هنا هو ادّعاء بعضهم للعمل النقدي.. والذين ادّعوا العمل بالنقد وهم يفتقدون الموهبة أولا، وأي مقومات تؤهلهم للقيام بالنقد ثانيا وفي مقدمتها الذائقة، هؤلاء كان لهم الدور الأخطر في إقرار أعمال تفتقد القيمة، وتقر أخطاء دور النشر التي نشرت أعمالا لا قيمة لها.

● من وجهة نظرك، ما المعايير النقدية التي تحدد الخط الفاصل بين تجاوز المبدع وانضباطه؟

■ الذائقة أولا والثقافة النقدية ثانيا، والتعامل مع النقد بوصفه علما، ومع الفن بوصفه عملية جمالية في المقام الأول، ثم تأتي عملية الخبرة التي لا تتحقق إلا بالممارسة عبر قراءة التراث العربي والتراث الإنساني وقراءة الأدب العالمي، فكل هذا يشكل خبرة الناقد ووعيه بالنصوص في قمتها الفنية. وأحيانا يقابلني أمران أراهما شكلا من أشكال الاستحالة، لا تجدهما إلا في أكاديمياتنا العربية: باحث يشتغل في الرواية، فتكون أول رواية يقرأها في حياته هي الرواية التي سيشتغل عليها في البحث الأكاديمي. ثم أستاذ يعمل بالنقد لم يقرب الأدب العالمي، وآخر يدرس المسرح ولم يحضر عرضا مسرحيا في حياته!!

● في رأيك أيهما أكثر إثراء للإبداع: رقابة الناقد الفرد، أم رقابة المؤسسات الرسمية؟

■ رقابة الناقد الفرد أقوى، وبخاصة الناقد صاحب المشروع؛ أما المؤسسة، فهي تعمل على التنظير لا التطبيق، وهي فقط تقدم عوامل التثقيف للناقد، بينما لا تخدم الإبداع خدمة الناقد له؛ كما أن المؤسسة في ممارستها للرقابة تستهدف بقاء الشعوب في طي الجهل لا التنوير، خلافا لهدف الناقد التنويري، عملا بمقولة «الكاتب ضمير المجتمع المتيقظ»، أو الذي يجب أن يكون كذلك دائما.

● **كيف تؤثر سيطرة نموذج أدبي ما على باقي أجناس الأدب في رأيك؟**

■ يتدخل في ذلك عاملان: الثقافة العربية عامة في اعتقادها بفكرة الشخص الواحد، إذ ترفع راية الكاتب الواحد طوال الوقت، ووسائل الإعلام التي ترسّخ للنموذج الواحد، ما يؤدي إلى تسليط الأضواء على منطقة واحدة طوال الوقت.. وتغفل بقية الجوانب ذات التأثير. ومثلاً وجود نجيب محفوظ في مصر لا يعني انفراده بالرواية العربية، صحيح أن نجيب محفوظ هو النموذج الأعظم، لكنه ليس النموذج الوحيد، وهو نفسه سمح لبراعم حوله أن تنمو، ولم يمنع عنها ضوء الشمس مثلما يحدث الآن من بعض محتكري الأدب.

● **ما تفسيرك للبون الشاسع بين الأدب وبين الجماهير رغم حضور النخبة؟**

■ النخبة حاضرة دون خطة، حضورها عشوائي، كثيرة لتصدر المشهد إعلاميا فقط، وقليله لصالح العمل العام، وقد ارتكبت النخبة في تاريخنا الطويل كثيرا من المغالطات وابتعدت عن الجمهور، وهي إن تقدمت خطوة للجمهور.. تتقدمها نحو الكبار وليس نحو الشباب في الجامعات والطلاب في المدارس، لقد انغلقت النخبة على نفسها، وراحت تشكو غياب جمهور هي مسؤولة عن غيابه قبل أي عامل آخر. لَكَم تمنيت لو استثمر اتحاد الكتاب جمهور الأدباء والنقاد في إحداث تنوير عبر عدد من الندوات يقومون بها في أقرب مدرسة لمقر إقامة كل منهم.

● **كيف نفك الإشكالية القائمة بين التعاليم الدينية وآفاق النصوص الإبداعية والفنية؟**

■ بإعادة الاعتبار للقراءة الأدبية، وإعلاء قيمة الفن، وأن نتخلص من ادّعاء الخلاف بين الدين والجمال أو الدين والفن، الذين يكتفون (مدّعين) فَهْمَ الدين من دون معرفة الأدب، فشلوا في فَهْمِ الحياة حين رسّخوا في الأذهان أن الإبداع يخالف الدين.

● **في رأيك لماذا لم تظهر نوبل أخرى عربية بعد نجيب محفوظ؟**

■ نجيب محفوظ نموذج لم نستثمره تماما، تجربة الكاتب لها شقان: مشروعه المكتوب الذي بين أيدينا، وحياته وأسلوبه في هذه الحياة؛ والشق الثاني لم نكتشفه لانبهارنا بمحفوظ الكاتب على حساب محفوظ التجربة الإنسانية، محفوظ الإنسان قدم

نموذج الرجل الأعظم في إدارة الوقت في القرن العشرين، وفي صرامة التعامل مع الزمن، وهو ما خدم محفوظ الكاتب. محفوظ أخلص للرواية دون غيرها، فلم يشغل نفسه بالسفر والارتحال (راجع مرات سفره خارج مصر تجدها نادرة، وراجع حال حصوله على نوبل لم يسافر لاستلام الجائزة)، لأنه لم يشغل نفسه بغير ما وطّن نفسه على الإخلاص له، ولم يشغل نفسه بالجوائز حال الكتابة (راجع حالة كتّاب الآن، يكتبون للجوائز، ويكتبون وفي أنفسهم شيء من الجوائز). نعم اللحظة التاريخية مختلفة، ولكن تجربة محفوظ في هذا الجانب صالحة لإثارة الدهشة والعمل بها طوال الوقت، ثم يأتي نجيب محفوظ القارئ.

● **على ذكر نجيب محفوظ القاريء.. كيف تصنف الكتّاب وفقاً لعلاقتهم بالقراءة؟**

■ أصنفهم كالتالي: طبقة مَن يقرأ أكثر مما يكتب، فتكون أعماله في المقدمة، وهي طبقة نجيب ومن سار على هذا الدرب، وطبقة مَن يقرأ بالتساوي مع ما يكتب، وهؤلاء أعمالهم مذبذبة المستوى، وطبقة مَن يكتب أكثر مما يقرأ، وهو حال كثير من الكتّاب الآن، أعمالهم قد تثير ضجة ولكنها لا تدوم. لقد تعلّم محفوظ في زمن غير الزمن، وهيأ لنفسه ظروفا كانت كفيلة وكافية لأن تصنع منه النموذج الذي يصعب تكراره (ولكن لا يستحيل بالطبع).

● **ما الذي تفوّق فيه نجيب محفوظ، من وجهة نظرك، ونحتاج لاستحضاره الآن؟**

■ أولا: الفن وليس شيئا غير الفن. يستطيع المبدع أن يقول كل شيء من دون أن يجور على المبادئ أو القيم الاجتماعية.. وهذا ما فعله نجيب محفوظ؛ ثانيا: الكتابة انطلاقا من المعرفة، بمعنى أن يكتب المبدع فيما يعرف (حتى على مستوى الموضوعات لم يكتب نجيب محفوظ عن القرية مثلا) محافظا على خصوصيته، مصداقا لمقولة: كلما اشتدَّ حرص الكاتب على المحلية انفتح أمامه الطريق إلى العالمية، ويمكنك مراجعة الإجابة على السؤال السابق لتضيف كل العوامل السابقة، تأكيدا على منجز نجيب محفوظ.

● **ماذا أضاف تيار الحداثة للأدب العربي، وماذا سلب منه؟**

■ أضاف رؤى جديدة للنص العربي، وفتح الأفاق النقدية الجديدة، ولكنه لم يسلب متعمدا، وإنما طرائق التعامل مع الحداثة أو طرائق تشغيلها وآليات تفعيل بعض النقاد والمشتغلين بالنقد لها.. تسبّب في ابتعاد الكثيرين عن النص الأدبي؛ فقد وجد القارئ نفسه في مأزق، يقرأ النص الأدبي، فيتواصل معه، ويقرأ ما يكتب عنه فيجد نقدا مغرقا في الغموض؛ يضاف إلى ذلك أن بعض المبدعين فهموا أن الحداثة تعني التغريب والغموض، فأشبعونا منهما ما أساء لمشروعهم الإبداعي، جملة وتفصيلا.

● **بأي عين تنظر لموقع الأدب العربي على خريطة الأدب العالمي؟**

■ بعين التأمل للنماذج ذات التأثير، التي أسهم بها الأدب العربي في سياق الأدب العالمي قديما، النموذج الأعلى «ألف ليلة وليلة»، وحديثا نموذج نجيب محفوظ، والتأمل هنا.. أننا لم نتخذ خطوة إيجابية لاستثمار ما حققه الأدب العربي على المستوى العالمي، وهو دور الترجمة إلى اللغات الحيّة؛ فلن يقدم أدبنا سوى مشروع عربي خالص يهدف إلى مشاركة أكثر فاعلية مما هو عليه الآن، فليس دورنا الترجمة من الغرب، ولكن تقديم أنفسنا بأنفسنا للعالم كله.. ولدينا ما يليق بنا أن نقدّمه.

● **كيف تقيم التطورات القائمة في الأدب السعودي؟**

■ تطورات على الطريق الصحيح على مستويي الكم والكيف، في البداية ومنذ سنوات طويلة ارتبطت بمقالات عبدالله الجفري قبل أن تتاح لي قراءة مجموعة الحفلة لباخشوين، ورواية صالحة لعبدالعزيز مشري، وغازي القصيبي؛ وفي جيل السبعينيات تابعت فهد العتيق ويوسف المحيميد. بعدهما جيل جديد أحدث ما يشبه الانفجار الأعظم في الرواية السعودية الحديثة: ليلى الجهني - أحمد دهمان - رجاء الصانع - يحيي أمقاسم - رجاء عالم - عواض العصيمي - عائشة الدوسري - هاني نقشبندي، وأسماء أخرى تشكل خارطة الرواية السعودية؛ إضافة إلى التجربة الشعرية السعودية بما تضم من مساحات لها تميزها لدى الجيل المعاصر وبخاصة: محمد الثبيتي، عبدالوهاب فارس.

● **وماذا عن معطيات الإنتاج الروائي في منطقة الخليج العربي بعيداً عن المملكة؟**

■ في الكويت، يفرض الجيل الجديد نفسه روائيا بأسماء تعرف طريقها، أتابع باهتمام -منذ سنوات- تجربة بثينة العيسى، وبعدها سعود السنعوسي، حياة القلوب، عبدالوهاب الحمادي، استبرق أحمد - هديل الحساوي، وبصفة عامة الرواية الخليجية تشق طريقها بثبات لتأخذ مكانا يليق بها في الرواية العربية، وتقدم إنتاجا يليق بتقديمها للسرد العربي، فقط الأمر يتطلب المزيد من الدراسات النقدية التي لا تنغلق على محلية عربية واحدة، وإنما تكون قادرة على إعادة تشكيل الخريطة العربية بإضافة مساحات جديدة لهذه الخارطة، التي من الظلم، ومن غير اللائق بتاريخها أن تظل على وضعها الراهن.

● **في الختام، ماذا عن الحلم الخاص بعالم الدكتور مصطفى الضبع؟**

■ أحلم بمشروع نقدي يعمل على إعادة تشكيل خريطة الأدب العربي على أسس علمية، وأحلم بجامعات عربية أكثر فاعلية في دراسة الأدب العالمي، وأحلم بأجيال قادرة على التعامل مع النص العربي وفق ذائقتها الخاصة المتميزة.



حوار مع الروائية المصرية
مروة متولي

عُدّت رواية الكاتبة المصرية مروة متولي «الجوفار» استباقا حدسيا لما حدث من ربيع مصري، إذ وصفت درجة مظاهر التجبّر والظلم والقهر التي عرفتها الجوفار، وتنبأت بسقوط هذه الآلة الظالمة.. ولو على يد أناس هدتهم أغلال القمع طيلة عقود من الزمن.

■ حاورها: إبراهيم الحجري- المغرب

● **بعد انتظار حلو، جاءت باكورتك الروائية الأولى مضمّخة بالقسوة والوعثاء؛ فماذا يعني لك هذا الخروج الإبداعي القاسي؟**

■ «الجوفار» روايتي الأولى.. كانت كتابتها تجربة قاسية بالفعل، وقد تأجّل خوض هذه التجربة لمدة ثلاث سنوات؛ نظراً لخوفي من كتابتها، وكذلك بسبب التردد الشديد حول فكرة كتابة رواية، أساساً؛ فكنت أكتب بعض الفقرات ثم أتخلى عن الفكرة تماماً، ثم أعود إلى الكتابة. وهكذا ظللت لفترات طويلة لا أعلم هل سأكمل هذا العمل وأتم كتابة الرواية بالفعل أم لا؟!! كان هذا في خضم العمل على أطروحة الدكتوراه، إلى أن قررت أنني إذا استطعت ألا أكتبها فلن أفعل، ولم أستطع.. فالرواية فرضت نفسها فرضاً، فاستغرقت في كتابتها، وكنت أود الانتهاء سريعاً منها.. وكأنني كنت أبحث أنا أيضاً عن «خروج» من أوجاع الجوفار وآلامه وعذاباته.

هذه الرواية أحبها كثيراً بكل ما تحمله من ضعف وأخطاء تجربة كتابة الرواية الأولى، لذا أتجنب أن أطلع عليها بعين الناقدة.

• عرفت المرأة عموما برهافة المشاعر، لذلك تميل إلى الموضوعات الرومانسية الرقيقة التي تباعد نوعا ما العنف ضد الذات والعالم، عكس ما ذهبت إليه أنت، حيث العالم مقيت، جاف وقاس... من أين لك بهذه العوالم؟

■ لكل كاتب همومه ومشاغله وقضاياه وأسئلته. أما عن المرأة والموضوعات الرومانسية فهذا يتوقف على كيفية فهم الكاتبة للرومانسية، فبالنسبة لي لا تعني رهافة المشاعر أن ننفصل عن الواقع وأن نحلّق في السماء؛ نطارد الأقمار ونهرول خلف النجوم؛ بل هي تعني أن نشعر بكل ما نعيشه ويحيط بنا. هكذا تصبح القضايا الحياتية قضايا فنية وفكرية، وتصبح المعاناة مجالاً للتأمل. من هنا، أتيت بهذه العوالم المقيتة الجافة والقاسية، من عالمنا العربي، من أوطاننا، من واقعنا الذي نعرفه جيداً؛ لذا، جاءت الرواية تحمل الكثير من عنف الاستجابة للوقائع التي لا يتحملها الإدراك، كما أنها تسعى إلى الخلاص والنفاذ إلى عالم الإمكان، إذ يمكن إقامة الصلة بيننا وبين الحياة.

• تميزت روايتك بالمتانة على مستويي الخطاب واللغة والدلالة. هل أفدت من تجربتك النقدية والأكاديمية، أم أن هذه الرواية كانت مشروعا قبل مراسك النقدي؟

■ الرواية أتت في منتصف الطريق أثناء سنوات العمل على أطروحة الدكتوراه كما ذكرت سالفاً، ليس من شك في أنني قد أفدت من دراستي الأكاديمية ومن ممارسة النقد، إلا أنني وببساطة شديدة أفدت أكثر من ذائقتي الخاصة، فكنت أكتب ما أحب أن أقرأ، وأبتعد عن ما لا أحبه في روايات الآخرين.

• عرف المشهد الروائي العربي مؤخرا غزو نوع جديد من الكتابة تروّج له كاتبات جريئات أقمن الدنيا وأشغلن الناس. وهو الكتابة عن الجسد الذي كان قد تناوله كتاب رجال فيما سبق لكن بطريقة مختلفة. ترى ما الذي أضفته المرأة الكاتبة على هذا النوع من الموضوعات الساخنة في المحكي الروائي؟

■ هذه الظاهرة نراها أنموذجاً تستوحيه الكاتبة تلو الأخرى، تسير على منواله وتكرره من دون أن تعارضه أو تتجاوزه، هكذا نرى الأمر، إلا أننا لا نستطيع استنفاد هذه الظاهرة وشرحها في كليتها، وكذلك لا نرغب في الدخول إلى الكثير من التفاصيل.

> *«الجوفار»، رواية أحبها كثيراً بكل ما تحمله من ضعف وأخطاء تجربة كتابة الرواية الأولى، وأتجنب أن أطلع عليها بعين الناقدة.*
>
> *بالنسبة لي لا تعني رهافة المشاعر أن ننفصل عن الواقع وأن نحلق في السماء نطارد الأقمار، ونهرول خلف النجوم، بل هي تعني أن نشعر بكل ما نعيشه ويحيط بنا.*

لقد شهدت السنوات الأخيرة زيادة ملحوظة في هذه الأشكال من الكتابة، وإذ بهذه الأشكال تزداد وتنتشر، وعلى كل حال هي روايات باتت موجودة بالفعل، تجد مَن يقوم بكتابتها ونشرها وقراءتها، وهي ظاهرة لا نعترض على وجودها من منطلق اعتراضنا على فكرة الإقصاء بالأساس، ولإيماننا الكامل بالحرية؛ لكن يظل السؤال: وهل تعكس مثل هذه الكتابات الإحساس بالحرية؟ كما أننا في هذه المرحلة التاريخية البائسة لسنا بحاجة إلى مثل هذه الكتابات، وعلى العكس تماماً.. فنحن بحاجة إلى الكتابة التي بإمكانها مواجهة الأشياء الفادحة والخطيرة الأهمية، ويمكننا القول إن البروز المتزايد لهذه الأعمال قد انعكس في التركيز على كاتباتها، ونحن حينما نأخذ بعين الاعتبار حجم نشاط الإنتاج الذي نشهده، فلا بد لنا أن نؤكد أكثر فأكثر على الطبيعة التجارية لهذه الروايات، التي يظل هدفها الأساسي هو إثارة القارئ بشتى الأساليب والمواضيع التي تتناولها، بهدف دفعه إلى شرائها، حتى وإن انتهى به الأمر إلى عدم قراءتها، وهنا تصبح دور النشر مسؤولة إلى حد كبير عن ذلك التزايد، وعن الدخول اليومي للمزيد من الكاتبات إلى تلك الحلقة التي تسببت في فوضى كبيرة، وفي ظهور أشكال من الكتابة يدرجونها جهراً تحت مسمى الرواية، على الرغم من الإطاحة بالتقاليد الأدبية برمّتها.

> *هناك نمو هائل للرواية العربية، وفي توزيع جغرافي جديد، وهو ازدهار يعكس درجة ما من درجات التطور في مجتمعات لم تعرف مثل هذا الكم من الإنتاج الروائي من قبل.*
>
> *يجب الاعتراف بأن المشهد الروائي المصري لا يعيش أزهى عصوره، بل إنه يعاني لعنة الشهرة وصناعة الأسماء التي خلقت كتّاباً بلا كتابة!*

● هل تعتقدين أن كتابة الجسد رهان جديد للارتقاء بشكل الروائي وتحميله همّ إنساني طالما بات يحجبه الستر والعيب؟

■ أرى أن كتابة الجسد وما إلى آخره من مسميات، هي أبعد ما تكون عن الهمّ الإنساني وعن الارتقاء بالشكل الروائي، فأنا أظن أن الهمّ الإنساني الأكبر يتركز في أعلى الرأس وليس في الجسد، وأرى أنّ العيب الذي يجب تخطيه وكسر حواجزه هو الفقر والظلم والقهر والخوف والمرض والجوع والذلّ، وأرى أنه يتوجب تحرير العقول والنفوس قبل تحرير الأجساد، ومن بعد فليقرر كل عقل ما يشاء بشأن جسد صاحبه.

● انتقلت من كتابة النقد إلى كتابة الرواية. كيف تصورين صعوبة هذه التجربة المزدوجة. وما الذي وجدته في الرواية ولم تجديه في النقد؟

■ الرواية أصعب بكثير، وهي دائماً مهمة

مرعبة ومؤرقة وممتعة أيضاً، إلى أبعد الحدود، إلا إنني وجدت في الرواية الحرية الكاملة بعيداً عن إشكالات النقد، وأكثر ما أحبه هو متعة مجهولاتها واحتمالاتها المفتوحة إلى ما لا نهاية إذ لا حدود، بينما يتقلّب النص بالكاتب إلى أن تكتمل الرواية.

- كيف تقيّمين وضع الرواية العربية الآن في ظل السياقات الثقافية المتداخلة؟ وبخاصة لما دخلت المرأة حلبة الكتابة الجسدية من بابها الواسع؟

■ هناك نمو هائل للرواية العربية وفي توزيع جغرافي جديد، وهو ازدهار يعكس درجة ما من درجات التطور في مجتمعات لم تعرف مثل هذا الكم من الإنتاج الروائي من قبل، وهو يعكس حاجة ما في هذه المجتمعات إلى كتابة الرواية وإلى قراءتها على حد سواء؛ فالطاقة الأهم في الإنسان هي المخيلة الإبداعية. لكن السؤال هو هل كل ما يُكتب في خضم هذا النمو الهائل هو رواية حقاً؟ وهل تأتي هذه الروايات مُرضية لنا من حيث القيمة التي نتوقعها؟ هنا أتحدث كناقدة، وأقول إننا لا نصادف كثيراً تلك الرواية التي تهزنا وتتسبب في متعتنا الذهنية، تلك التي تبهرنا بتراكيبها ومجازاتها ورموزها، وذلك النص الذي يجد الناقد نفسه مضطراً إلى أن يحشد له ضروب خبرته ومعرفته؛ لذا قليلة هي الروايات التي تستحق أن تحظى باهتمام مدروس جاد، ولك أن تتخيل ماذا لو كان



كل هذا الازدهار الروائي نتاج لكتابات حقيقية قيِّمة تسعى نحو المعنى والحقيقة وليست كتابات تروّج للسائد والمستهلك من الأفكار، ويبقى لهذا الازدهار على كل حال فائدة أساسية وهي أنه سوف يدفع بشكل أو بآخر إلى إعادة النظر في معايير تحديد القيمة وفهمها بشكل مغاير في ضوء جديد.

- في قمة الحصار، كتبت المرأة الخليجية روايات رائعة. فهل الحصار والمنع والرقابة ضروري كي نكتب أدبا جيدا؟

■ الكاتب حر على الدوام؛ مهما اشتدّ الحصار والمنع والرقابة. دائماً وأبداً سيجد الكاتب سبيله ليقول ما يشاء؛ وفي المقابل فإن الحرية المصطنعة وكسر التابوهات الفارغة لا يمكنها أن تصنع أديباً، الحرية

والكتابة أكبر وأعمق من كل ذلك.

● **لم يعد النقد قادرا على متابعة ما ينشر من إنجازات روائية، ولا قادرا على توجيه المنتوج الإبداعي وتقويمه. إلامَ يعود ذلك في نظرك؟**

■ بات الناقد لا يشعر بأهمية دوره بكل تأكيد، ناهيك عن معاداة الكثير من الكتّاب للنقد، فهم ربما يعدونه عدوهم الأول ولا يحبذون وجوده أصلاً، فبعضهم يهاجمه بشكل واضح يصل إلى حدّ وصفه بـ «الخزعبلات»!

● **يُحتفى اليوم كثيرا بالرواية والقصة على مستوى الجوائز والمنتديات والندوات والحملات الإعلامية على حساب الشعر الذي تسلطن لقرون من الزمن. هل يمكن القول بأننا في زمن الرواية؟**

■ الرواية اليوم هي الفن الأشيع والأقرب إلى مجموع القراء، من هذا المنطلق يمكننا القول بأننا في زمن الرواية، إلا أن هذا لا يعني أننا نعيش زمنها الذهبي، فمن كل مائة رواية تصدر، كم رواية ستبقى مع مرور الزمن؟ أظن أنه من الواجب أن يتم طرح هذا التساؤل.

● **كيف تجدين الرواية المصرية مقارنة مع مثيلاتها في العالم العربي؟ وأين تكمن مواطن القوة فيها، بوصفك متابعة وناقدة؟**

■ ليس من شك في وجود روايات مصرية ذات قيمة مشرقة وخلاقة، إلا أنه يجب الاعتراف بأن المشهد الروائي المصري لا يعيش أزهى عصوره، بل إنه يعاني لعنة الشهرة وصناعة الأسماء التي خلقت كُتاباً بلا كتابة. كما أن ثمة فساداً يحكم كافة الأمور، وهناك المحيط الثقافي والمؤسسات التي تمارس النفي والإقصاء على كل من يعتمد الكلمة الحقة الأصيلة؛ لذا، صار كل ما هو حقيقي وصالح يقبع في غربة شديدة ممتدة بينه وبين محيطه. الرواية المصرية وكل ما هو مصري يخضع لعملية التدهور الدائبة التي تعيشها مصر، إلا أنني أتمنى أن تندفع الرواية المصرية نحو المزيد من التأمل في الواقع بدلاً من نقله دون جدوى، كما أتمنى أن يتم التخفف من لغة الصحافة السائدة، وأن ألمس المزيد من العشق للغة بعيداً عن كل امتهان وتمييع وتشويه، وأتمنى أن تبلغ الرواية المصرية درجة أكبر من الحيوية والقوة والتأثير.

● **مع الفجوة الرقمية، اختلط الحابل بالنابل، وتهدّمت سلطة المؤلف الرمزية، وانهارت أبراج الرقابة، وفاضت الشاشة بالمنتوج الأدبي غثه وسمينه. كيف تقيمين هذا الوضع؟ وما آفاق الوضع الأدبي في ما يستشرف من الزمن؟**

■ ربما يشعر مَن يقرأ سؤالك بأن ما ذكرته يضيف المزيد من الكآبة إلى المشهد الروائي، إلا إنني أرى كل ذلك إيجابياً، وأرى أنَّ مثل هذا الوضع سوف يصحح أخطاءه بنفسه، مع مرور الوقت.

شعريّة العتبة

كيف يلتقي التشكيل والكتابة في بوابة الكتاب؟

■ عبدالغني فوزي*



كلما تصفّحنا كتاباً، أو مررنا على واجهة كتب؛ إلا وحضرت بعض الأسئلة المتدافعة في الذهن وأفق التلقّي حول غلاف الكتاب الأدبي؛ نصوغ منها: هل الكاتب يختار لوحة الغلاف من دون نظر الفنان التشكيلي؟ لهذا ترى بعض اللوحات غارقة في تجريديتها؛ في حين تجد المحتوى واقعيا وتسجيليا. هل الكاتب يهتم بالعتبات، ومنها لوحة الغلاف، من خلال البحث عن مناسبة وشرط بين اللوحة ومحتوى الكتابة؟ وإذا استحضرنا العصر وتحولاته المتسارعة، من الملاحظ هنا أن بعض الكتّاب يبحث عن جاذبية للغلاف قصد تسويقه ولو من خلال اللوحة، دون محتوى. ما نوع العلاقة بين لوحات الأغلفة ومحتويات الكتابة؟ هذه بعض الأسئلة الحارقة التي نستحضرها هنا، لمناقشة أهمية اختيار اللوحة الفنية ضمن تصاميم الكتب الأدبية العربية.

تعد العتبات في الأعمال الأدبية ملمحا أساسيا، يمكن اعتماده كمرتكز لولوج محتويات الأثر الإبداعي. ونعني بهذه العتبات: العنوان، الإهداء، النصوص الموازية.. اللوحة. غير أن هذه الأخيرة، من خلال ملئها لحيّز مهم من الغلاف، تتصف بالكثير من الجاذبية والجمالية الآتية من خطاب آخر (التشكيل)، له ميكانزماته وآلياته في التعبير وتقطيع العالم. وهذا لا يعني أنّ هناك حدودا فاصلة وقاطعة بين الخطاب التشكيلي والخطاب الأدبي؛ بل ينبغي قراءة ذلك ضمن أفق مشترك، وبعين جديدة على حدّ تعبير الشاعر حسن نجمي في كتابه «الشاعر والتجربة»، تراعي النسب المنطقية والمعرفية بين الأنواع التعبيرية والفنية. وهو ما يؤكد، أن هذه التعبيرات المختلفة في جدل دائم، بوصفها محكومة بسياقات واحدة، مع مراعاة خصوصية كل نوع تعبيري، بوصفه يتموقع في زاوية ما، مستندا على مادة (خام) تغتني بالتخييل والتأمل الذاتي.

يبدو في الثقافة العربية، أن العلاقة بين الكتابة والتشكيل حديثة جدا؛ نظرا لتصورات ظلت راسخة في الأذهان، ترفع من قيمة المكتوب وتؤطر الكتابة. إلا أن

انفتاح الأعمال الأدبية، وبخاصة الشعر.. كسر من صلابة تلك التصورات. فانخراط بعض الشعراء من هنا وهناك عربيا، دشّن لعلاقة مختلفة مع التشكيل، في إطار من البحث المشترك لطرق آفاق تعبيرية وجمالية جديدة. نذكر -على سبيل التمثيل فقط- تجربة الشاعر محمد بنيس، والفنان ضياء العزاوي في «كتاب الحب»، والشاعر حسن نجمي، والفنان محمد القاسمي في ديوان «الرياح البنية»، وكذا الشاعر عبدالمعطي حجازي في ديوانه «كائنات مملكة الليل»..

هذا فضلا عن هندسة الغلاف والصفحة بصريا من خلال علاقة السواد والبياض مع أدونيس والتجربة الكاليغرافية المأسوف على توقفها. ويمكن القول إن الشعر بذلك ومع أسماء معينة، يبحث عن جماليات تشكيلية في باطن القصيدة؛ وهو ما جعل الشعراء مؤخرا يلتفتون إلى أغلفة كتبهم، في حوار مع التشكيليين، لخلق تناسق مستساغ جماليا.

وامتد ذلك، إلى الغلاف الأدبي (مع الرواية والقصة)؛ إذ تكون اللوحة بوابة عبور، قد تشكل إضاءة مهمة لملامسة ملاحظات أولية حول العمل الأدبي من الداخل. وبمشاهداتنا المتريثة للكثير من الأغلفة، على اختلاف أنواعها الأدبية، نلاحظ أن الكتاب العربي الإبداعي الحديث والمعاصر منفتح على مختلف المدارس التشكيلية (الكلاسيكية، الواقعية، السريالية، التجريدية..). فإذا كانت الرواية العربية من دون تعميم طبعا، تميل إلى لوحات مفتوحة الدلالة وتشخيصية أكثر؛ فإن الشعر يجنح إلى لوحات تستند إلى اللون المتشكل من الداخل كفضاءات وكوات متشظية عن لمسات ذاتية، محكومة بجوهر باطني.

كانت الأغلفة، فيما سبق، تأتي لملء الفراغ وللتزيين والإثارة؛ وهي بذلك لوحات مفارقة لمتن الكتب الأدبية. لكننا اليوم أصبحنا أمام أغلفة مهندسة بشكل واع، تحمل بصمة الفنان والكاتب معا، كأن الأمر يتعلق بحوار داخلي بين الخطاب التشكيلي والأدبي «أليس مصدر الكائنين المكتوب والمصور هو الجسد؟» كما يتساءل الشاعر حسن نجمي في كتابه «الشاعر والتجربة».

انطلاقا من هذه الزاوية، نتمنى أن يمتد الحوار بين الخطاب التشكيلي والأدبي إلى الواقع، حتى لا يبقى مختبر الفنان مغلقا على اللون كأنه أصل وعلّة من دون امتدادات نفسية وجمالية وتخييلية. وفي المقابل، ينبغي على الأديب أن يفتح محبرته اليتيمة على التشكيل، ليكون العمل مصحوبا بلوحات ضمن أفق مشترك يسهم في تطوير الأذواق والجماليات المفصولة قسرا.

ودون أن تمر هذه الورقة، لا بد من التنويه هنا بنوافذ إلكترونية سعت لهذا الدأب. على العموم، فاللوحة المثبتة على غلاف الكتاب الأدبي (الإبداعي منه)، تعد نافذته؛ لهذا، نتمناها أن تكون جميلة بالمعنى التشكيلي، وبعيدة المدى أو النظر بالمعنى الأدبي.

وغير خافٍ أن دور النشر العربية في غالبيتها لا تُخضِع العمل الأدبي لنظر الفنان التشكيلي ولا للجان القراءة. فيكون الاختيار سريعا للوحة، وأحيانا ارتجاليا؛ بل قد تجد الغلاف غارقا في الألوان كأنه دمية للتسلية ووضع غشاوة على عين الناظر. وفي المقابل، هناك الأقلية التي تبحث عن مزاوجة طبيعية وخلاقة بين لوحة الغلاف ومحتويات الكتاب.. حتى لا تبقى اللوحة مجرد ديكور أو شيئا متروكا للخلف الساطع للأسف. فاللوحة نافذة حقيقية، لتقديم فكرة أولية عن العمل الأدبي؛ ولو من خلال إقامته منتصبا في مكانه، في ظل أزمة القراءة.

---

* شاعر وكاتب من المغرب.

مؤهلات الناقد الأدبي..

■ ماجد سليمان*



لقد رأس النابغة الذبياني سوق عكاظ وجلس تحت قبة حمراء ليحكم قصائد الشعراء ويشير إلى مآخذ في قصائدهم ويُعلن مراتبهم. وهنا تأصيل يسير للحياة الأدبية؛ لذا لا يُحكّم ويُنظّر الشعر إلا شاعر، كذلك بقية الأجناس الأدبية. فموسفٌ جداً أن يأتي مَن لم يكتب غير منهج المادة على سبورة القاعة الجامعية، أو الفصل المدرسي ليحكّم كتاباً غنياً بالرسم الأدبي والخيال الخالص. النقد الأدبي لا يُنظّره إلا أديب يُحسن الشعر، ويُبدع القصة، ويُجيد الرواية، ويُؤصّل المقالة، وأحسبه كذلك فلا يُقنعني أن يخوض في نقد الأدب المتخصّص دراسياً لأنه يدور في فلك المحاضرة. أو المتذوّق أدبياً لأنه يُحكّم ذوقه الشخصي؛ أو المتعلّم ثقافياً لأنه يُعوّل على مزاجه النفسي؛ أو المُحبّ للأدب بطبيعته، لأنه باقٍ تحت تأثير الذوق العام

فكلّ هؤلاء يُقدّمون انطباعاً وتأثّراً فقط، ولا يحرثون أرضاً للنقد، ويشكّل أنقّ (النقد والإبداع، كالعربة والحصان)، فلا يمكن وضع الحصان خلف العربة؛ لذا، يبقى النقد يتبع الإبداع دائماً. قد يسألني هؤلاء: ما هي مؤهلات الناقد إذاً؟ فأجيبهم بتواضع: لن يكون الناقد قد حمّل منجله في أرض الإبداع بعد أن يحرّن حقله الأدبي؛ إذ تتوالد الرؤية الذاتية من داخل النص، وتتمخّض الملاحظات في مسارات نفسية كثيرة، لا تملكها العين النقدية المجرّدة من روح الإبداع الأدبي، ويُدركها المبدع عبر الحاسّة الأدبية الدقيقة الكامنة في نفسه؛ فالأدوات المعرفية والطريقة الإجرائية تُصبح مُسخاً في غياب الحسّ الأدبي وانتماك النفسيّ للحالة الإبداعية المبذورة في المبدع.

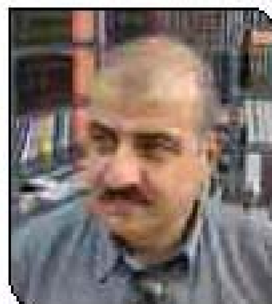
لذا، فالناقد الحقيقي: هو الخارج من رحم التجربة الإبداعية الأدبية المحضة، والمتمرّس في نسجها، شعراً ونثراً، حتى يُؤمن جانبه النقدي، فالأدب يُنتجه وينقده الأدباء، مَن لا صلة لهم به شعراً ونثراً، وعملاً وصناعة هم المشكلة، كالمتسمّين بالنقّاد والأكاديميين والمتطفّلين على مائدة الأدب، لأنّ التنظير من دون ممارسة للعمل نفسه، برهانٌ على زجّ النفس في ما ليس من صنيعها.

المبدعون المدلجون تحت سماء الإبداع هم أعلم بما يطأون. ولننظر كيف أن النقد الأدبي يوزّع مجاناً ولا يُباع، فخلف كل جدار، وأمام كل متجر، وتحت كل وسادة، مسخٌ من النقّاد، مُهمتهم إشغال المشهد الأدبي، والاتجار بأعمال المبدعين.

وقد قلتُ رحمني الله: إذا رأيتم المرء مُنشغلاً بالنقد والتنظير في فنّ لم يَخُض مضماره، ولم يُسرج مع أهله حصانه.. فاعلموا أنه مُتسوّلٌ جبان، فقبيحٌ أن يُنظّر في الأدب مَن لا نثر له فيه ولا شعر، كما أنّ أهمّ صفة يجب أن يتمتّع بها الأديب هي الاستقلاليّة، لا أن يكون تحت تأثير آراء نقدية اعتباطية لا أكثر، مُطمئناً لمبادئه.

لذا، يُقال للمتسمّي بالناقد المجرّد: أرنا إبداعك بدلاً من أن تُمطرنا بوابل نصائحك وهرطقاتك الارتجالية، فالعمل الإبداعي هو المحك. فقد قيل: الناقد الأدبي، همّه الأول الحُكم والقضاء على ما يقرأ، لأن الحكم والقضاء يُضيفان الجاه، لا أن يتفهّم ويتعلّم.

* كاتب وروائي من السعودية.



من شيء يولد شيء
ملخص لمنهجية التصميم

■ محمد صوانه

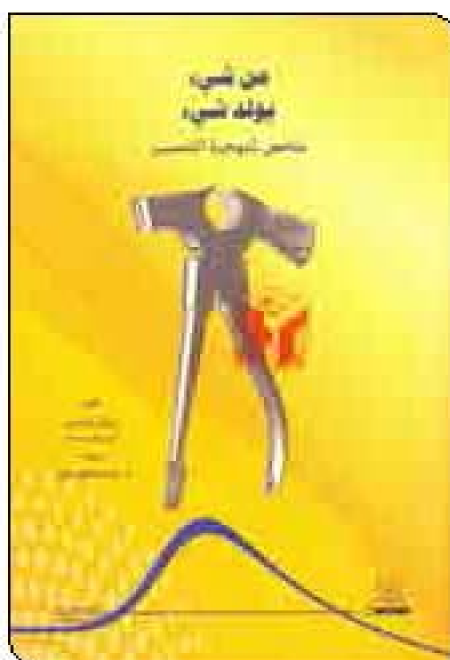
التصميم ليس منحة تعطى للقلائل فقط منذ ولادتهم، بل إن في كل إنسان يولد على وجه الأرض إبداعاً كامناً، يمكنه أن ينّميه ويطوّره، ليتمكن من تحقيق ثمرات إبداعية، يفيد منها في حياته ويفيد مجتمعه؛ وقد تنطلق إبداعاته ليكون منها منتج عالمي يفيد منه الناس جميعاً. كتاب (من شيء يولد شيء: ملخص لمنهجية التصميم) مترجم من اللغة الإيطالية، مؤلفه (برونو موناري Bruno Munari) وترجمة د. جمال عليان، عضو هيئة التدريس بكلية العمارة والتخطيط بجامعة الملك سعود بالرياض. جاءت الترجمة في ٣٦٠ صفحة من المقاس التقليدي للكتب (١٧ × ٢٤ سم) صادر عن النشر العلمي بجامعة الملك سعود بالرياض.

ينطلق الكتاب من مفهوم أن كل تصميم جديد ينتج عن تصميم آخر سبقه إليه مبتكر آخر.. يبني عليه ويطوّره ويحسّنه بتفادي العقبات التي لوحظت أثناء الاستخدام، فهو مثل البناء المتكامل؛ كي يمنحه فرصاً أفضل ليقدم للبشرية منتجاً يتوافق مع العصر المتسارع الباحث عن الجديد والمتطور دائماً.

كما يعالج الكتاب منهجية عملية من خلال أمثلة واقعية ممكنة، ويطلق العنان لخيال المصمم من خلال شطحات فنية ابتكارية، يمكن الحصول عليها من خلال إعمال الفكر واتباع المنهجية العلمية الصحيحة في البناء والتطوير؛ فالإبداع لا يعتمد على الارتجال، بل يحتاج إلى منهجية علمية واضحة في ذهن المبدع المتحرر من التقليد الباحث عن الابتكار، وصناعة منتج مبتكر ومفيد.

في عتبة الكتاب، تطالعك صورة إبداعية لافتة؛ يتوقف القارئ أمامها متأملاً، ولأول وهلة تبدو أداة بسيطة التصنيع؛ لكن مع بعض التأمل تتكشف أمامك الأفكار الإبداعية التي تشكلت بها هذه الأداة غير المعقدة في مظهرها؛ إذ إن طريقة تشكيلها وتوظيف كل طرف فيها لعمل مختلف عن الآخر جعلها مجموعة من الأدوات جمعت في أداة واحدة صغيرة (انظر صورة الغلاف).

جاء الكتاب في خمسة فصول؛ خصص الأول منها لتعريف التصميم والفرق بين توظيفه لابتكار أدوات نافعة وبين البذخ؛ وفي الفصل الثاني يقدم المؤلف منهجية التصميم المبنية على التفكير العلمي، ليعمم المنهجية ويجعل من الإبداع فنا ممكنا، وكيف يقوم المصمم بتجزئة المشكلة الكبيرة إلى مشكلات صغيرة ليتمكن



من التغلب عليها؛ وفي الفصل الثالث يستعرض مهارات التصميم الأساسية مثل الرسم الحر، والعمل للوصول إلى التجانس الشكلي وعمل المجسَّمات، وكيف يمكن تحليل المنتجات وفهمها، تمهيدا للبدء بالتصميم الإبداعي. أما الفصل الرابع، فيقدم تطبيقات عملية لمنهجية التصميم، من الصغير إلى الكبير ومن البسيط إلى المعقّد؛ وفي الفصل السادس يتحدث المؤلف عن موضوعات متصلة بالفكر الحديث في مجال التصميم، ومنها إعادة تدوير المواد المصنعة، واستخدام الصور المزدوجة ومراعاة المشهد البصري وتوظيف الفراغ وتحسين ظروف العمل.

الكتاب بوجه عام، ينمّي الفكر الابتكاري لدى المصممين والمبدعين ومنتجي المواد الاستهلاكية، وكذلك للمعماريين ومصممي المباني الضخمة والمتوسطة سواء كانت قصورا أم مقرات مصانع أم مبانٍ ريادية تقام فيها احتفالات أو نشاطات ثقافية أو تجارية أو معارض ضخمة. وهو مفيد لدارسي العمارة والتصميم والعاملين في مجال تصميم الأدوات والمنتجات، وأدوات الصيانة وغيرها. وهو محفّز لكل مبدع أو راغب بتطوير مهاراته أن يوظفها ويفيد من أساليب المصممين السابقين والمعاصرين ومهاراتهم في اجتراح آليات جديدة وإبداعية في ابتكار نماذج من التصاميم المعاصرة لمزيد من الرفاهية وتحقيق أفضل مستوى من الجودة في استخدام المواد والفرص المتاحة وتعظيم وظائفها وأدوارها وأدائها.

ومن دون شك، فإن الترجمة العلمية أضحت ضرورة ملحّة؛ لأن التدريس الجامعي في العالم العربي يعاني من سيادة التدريس بغير اللغة العربية، ما يزيد من الفجوة بين خريجي الكليات العلمية وبين لغتهم الأم؛ ومن ثم، فإن تفاعل الخريجين - بوجه عام - مع متطلبات البحث العلمي المخبري والميداني يكون أقل إنتاجية.

صورة الغلاف

أداة لخزانة العرض في المحلات التجارية (الفترينا)، إذ يحتاجها مصمم الواجهة داخل الخزانة الضيِّقة؛ فتتيح له هذه إمكانية الفك والتركيب والشد ونزع المسامير والبراغي، فهي تحتوي على: (مطرقة، ومفك، وكماشة، وقطّاعة، ونازع مسامير). وتصميمها يمكّن مستخدمها من إنجاز أعمال أخرى أيضا كما يظهر من الشكل العام لها. الأداة تسهل عمل العارض، ويمكن تثبيتها في طرف حزام البنطال، فتكون دائما في متناول اليد، وتغني عن حمل عدة أدوات.

الكتاب : عشتُ سعيداً
المؤلف : عبدالله عبدالكريم السعدون
الناشر : المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- المغرب ١٤٣٠هـ

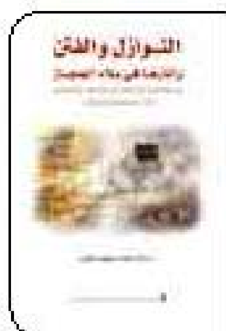


يقع الكتاب في (٤٥٠) صفحة، يكتب خلالها اللواء الطيار عبد الله السعدون- بأسلوب أدبي ماتع - رحلته من القرية، إذ لم يعرف سوى الدراجة.. إلى قيادة طائرة مقاتلة. وهذه الرحلة تجتاز حقبة زمنية شهدت فيها المملكة العربية السعودية تغيرات كبيرة، كما تقدم وصفا لحياة القرية التي عاش فيها طفلا يافعا.

وهي رسالة تطرح أمراض المجتمع ومعوقات التقدم، وتشرح أسباب السعادة والصحة في عالم مليء بالجهل والأوهام والأمراض، عالم مزّقته الحروب، وهدّه الفقر.

لقد أراد الكاتب أن يقدم تجربة إنسانية تشجع على مواجهة مصاعب الحياة وتمنح الأمل، لعلها تسهم في نجاح إنسان أو مساعدة مريض، أو رسم بسمة على شفتي يائس.

الكتاب : النوازل والفتن وآثارها في بلاد الحجاز
المؤلف : د. نجلاء محمد عويض المطيري
الناشر : مؤسسة عبدالرحمن السديري



صدر عن مؤسسة عبدالرحمن السديري كتاب: «الحجاز من بداية القرن الأول الهجري إلى نهاية القرن الثالث الهجري (القرن السابع إلى التاسع الميلادي)».

للحجاز أهمية متميزة في العالم الإسلامي؛ وقد مرّ خلال تاريخه بأحداث كثيرة، تناولها الباحثون؛ لكنهم لم يتناولوا النوازل والفتن كوحدة واحدة مستقلة، رغم أهميتها؛ ولم تذكر في المصادر التاريخية إلا في حالات قليلة وبإشارات عابرة.

يعرض الكتاب لأهم النوازل والفتن التي وقعت من بداية القرن الأول إلى نهاية القرن الثالث الهجريين (من القرن السابع إلى التاسع للميلاد)، كما يتناول الآثار التي ترتبت على تلك الأحداث ودورها في إعادة صياغة الحجاز عامة، وبشكل خاص مكة المكرمة والمدينة المنورة.

يصدر الكتاب ضمن برنامج النشر ودعم الأبحاث، وهو برنامج محكم، في مؤسسة عبدالرحمن السديري، ونأمل أن يمثل إضافة إلى الدراسات التي تدرس تاريخ الحجاز.